ميرال الطحاوي

أيام الشمس المشرقة

رواية

دار العين للنشر

مكتبة ياسمين
telegram @ yasmeenbook

أيَّامُ الشَّمْسِ المُشْرِقَة

telegram @
yasmeenbook

أَيَّامُ الشَّمْسِ المُشْرِقَة

رواية

ميرال الطحاوي

دار العين للنشر

أسستها د. فاطمة البودي عام 2000

المدير العام

4 ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: 23962475 20+ ، فاكس: 23962476 20+

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الطبعة الأولى: 2022 م

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢٢/٩٧٣١

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 647 - 3

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار العين

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف

وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

أيَّامُ الشَّمْسِ المُشْرِقَة

رواية

telegram @yasmeenbook

ميرال الطحاوي

telegram @
yasmeenbook

دار العين للنشر

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الطحاوي، ميرال.

أيام الشمس المشرقة: رواية/ ميرال الطحاوي.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٢

ص؛ سم.

تدمك: ٣ ٦٤٧ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

ب- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٩٧٣١ / ٢٠٢٢

إلى روندا ستيل.. صديقة كل الأيام

«أيُّها المُسَافر، اشْترِ الورد لعلَّك تُقَابل في الطريق مَن يَستحقُّه».

شمس الدِّين التبريزي

(1)

الشمس المشرقة

دخلت "نِعَم الخبَّاز" إلى ممرات "الشمس المشرقة" بخطوات ثقيلة ومتعبة وحذرة، كان قلبها يدق بعنف ولم تجد لذلك سببًا واضحًا فواصلت السير في الطرقات التي تعرفها، توقفت قليلًا بعد أن لمحت أمام بيتها عددًا من سيارات الشرطة وسيارات الإسعاف يحيط بها عدد من أفراد طاقم الإغاثة الذين وقفوا بانتظارها، لمحت أيضًا بعض الجيران الذين صوَّبوا نظراتهم المرتبكة باتجاهها، أدركت "نِعَم" آنذاك أنها في مواجهة كارثة، لكنها لم تستطع أن تُقدِّر حجمها أو أبعادها، فالكوارث التي تحدث في الجوار يصعُب عدُّها أو تقدير حجم ما تسفر عنه من خسائر.

حين دخلت البيت، وجدت "نِعَم الخبَّاز" بِكْرها الذي جاوز التاسعة عشرة بقليل ممدَّدًا على الأرض وجهه إلى الأسفل والطلقة التي اخترقت دماغه خرجت من الخلف واستقرت في الحائط، رأت جسده الضخم ممددًا في بركة من الدم الطازَج الذي لم يتجمَّد بعد.

منذ عدة أشهر حدثت تلك الضجة أمام منزل جارتها "سوزانا"، بعد أن قُتلت ابنتها "يولاندا" بعدة طلقات من سلاح صديقها الذي قتل نفسه أيضًا وعبرت الجثتان في سيارة الإسعاف سريعًا، ولم يكن هناك وقت ليفكر الناس كيف ماتت "يولاندا" الصبية الجميلة ابنة الثامنة عشرة، تلك البنت التي عرفوها منذ كانت تلعب مع الصِّبْية حول تلك البيوت الخشبية المتناثرة، وراقبوا جسدها وهو يتفتح باكتمال ونضارة مثل ربَّات البهجة في الأساطير القديمة، ثم شهدوا خروجها المأساوي من الحياة.

شاهد البعض كيف بكت "سوزانا" بحُرْقة لأنها فقدت ابنتها الكبرى، ثم عادت إلى تنظيف البيوت وفتح صدرها للرجال الذين لم يتوقفوا عن خطْب وُدِّها ومواساتها في تلك المصيبة التي ألَّمت بها، ماتت البنت الجميلة وبقيت هي في البيت نفسه، محت فقط آثار الدم عن نوافذ بيتها ثم فتحتها كأن شيئًا لم يحدث خلفها من قبل.

قبل ذلك بوقت قصير، شهدت "الشمس المشرقة" أيضًا مقتل "أوسكار" الذي كان يعبث في ماكينة الصِّرافة التي تجاور محطة البنزين، وتواجه الرصيف الذي يتكدس عليه عمال كثيرون كل صباح بانتظار فرصة عمل يومي.

في الحادية عشرة مساء تقريبًا عندما كان كل شيء يبدو ساكنًا في "الشمس المشرقة"، انطلقت رصاصة ما لتستقر في رأسه، وحين خرج الجميع ليتابعوا بقية المشهد، كانت جثة الشاب "أوسكار" ملقاة أمام ماكينة الصرافة، ولم يستطيعوا تقدير حجم النَّزْف على السُّترة الحمراء.

كما لم يستطيعوا التأكد أن الرصاصة قد أتت من جهة سيارة الشرطة التي لمحها البعض تغادر الموقع بسرعة، أم جاءت من جهةٍ أخرى. ليس مُهمًّا الوقوف حول التفاصيل، يسقط البشر برصاص طائش طوال الوقت في تلك التلال، يحدث ذلك داخل البيوت الخشبية الفقيرة؛ وبالتالي يُرجح أن يكون انتحارًا أو مشاجرة عائلية من تلك المشاجرات التي تحدث في "الشمس المشرقة"، وتؤدي إلى نتائج ينساها الناس بعد وقتٍ قصيرٍ لينشغلوا بغيرها.

تشتعل حوادث إطلاق النار كل مرة في أماكن غير متوقعة، فمنذ عدة أشهر شهدت إحدى المدارس الأوَّلية عراكًا مصحوبًا بإطلاق النار في غرفة مدير المدرسة أثناء اجتماع مجلس الآباء، انطلقت على إثره صافرات الإنذار وانبطح التلاميذ تحت الطاولات ترقُّبًا للإخلاء الأمني، حدث ذلك بعد مشاجرة بين عامل البناء الملون الذي تعود أصوله ربما إلى إحدى الجزر الكاريبية، والذي يتحدث بلغةٍ لم يستطع أحدٌ أن يفهمها. كان غاضبًا جدًّا وتفاقم غضبه في تلك اللحظة التي تيقن فيها من عجز المحيطين به عن فهمه. بعد نوبةٍ من الهياج، رفع سلاحه في وجه مدير المدرسة وهو يردد بشكل جنوني قبل كل جملة وبعدها: "هل تفهمني؟.. أنت لا تفهمني!"، بالَ المدير في سرواله عدة مرات وهو يؤكد له بصدق: "نعم أفهمك.. إنني أحاول يا سيدي..".

بعد تلك الحوادث العارضة تحول إطلاق النار في الوادي إلى تراجيديا متسلسلة ذات طبيعة موسمية كالحرائق، لا يعرف أحد كيف تبدأ أو أين تنتهي. كان آخر تلك الحوادث هو ما شهدته مدرسة "مَونْتن ليك" الثانوية

ذات صباح، حين قرر أحد الطلاب إطلاق زَخَّة من الرَّصاص المتواصل على جدران المدرسة، أصاب خلالها الشاب نفسَهُ وقتل بعض الطلاب العابرين، بعدها أغلقت المدرسة أبوابها لعدة أسابيع ثم فتحت أبوابها بعد أن تأكد للجميع أن إطلاق النار صار جزءًا من الحياة في تلك الأرض، جزءًا من تقاليد التعبير عن الغضب والسَّأم، ذلك الغضب الذي يتفجر فجأة، ويسفر عن ذاته في شكل فاجعة لا يمكن محوها بسهولة.

"نِعَم الخبَّاز" وحدها كانت تعتقد أن إطلاق الرصاص يحدث للآخرين، يحدث لـ "يولاندا" و"أوسكار" و"سوزانا"، ولا يمكن بالطبع أن يصل إلى بيتها، لكنه وصل.

ذات مساءٍ خريفيٍّ انفجر الرصاص المكتوم، ورأت كيف تحول جسد بِكْرِها "جمال" إلى بركة دم، بعد ذلك حدث ما يتكرر حدوثه، كتب رجل الشرطة تقريرًا مختصرًا للواقعة: (إطلاق رصاص من الفم عبر الجمجمة، استقرت الرَّصاصة في الحائط، الضحية يرتدي شورت رياضيًّا أسود، عاري الصدر، تفوح من فمه آثار "الماريجوانا"، ويحمل في يده جهاز تليفون نوكيا أحمر اللون، وجارٍ إكمال البحث عن أسباب ودوافع الانتحار).

أثناء تشريح الجثة توافَد أصدقاء "أحمد الوكيل" الذين يديرون "المغسلة الإسلامية للدفن الشرعي"، وتحدث الإمام "أبو عبد القادر" عن الميت والغُسْل وصلاة الجنازة وإجراءات الدفن وموقع المقبرة. توافدت أيضًا صديقات "نِعَم الخبَّاز"، مثل "فاطيما" و"سوزانا" و"كريستال" مُتَّشحات بالملابس السوداء والبيضاء، وتحدثن إليها عن الصبر، وعلَت أصوات

القرآن المرتَّل، وأصوات التوسُّل للرب بإنزال السَّكِّينة، وتناثرت المُصلَّيات الملونة، وفاح البيت بروائح البَخُور والبهارات الشرقية، وبعض الأزهار التي وُضعت على الأرض في موضع الجسد الذي بات في المقبرة القريبة، تلك التي يطلقون عليها "حديقة الأرواح".

في الليل ذهب الجميع وأغلقت "نِعم الخبَّاز" باب بيتها، لكن رائحة الموت ظلت شهورًا تحاصرها ولم تُفلح المنظفات العميقة في إزالتها، حتى بعد أن تكفل الجيران باستبدال سجَّاد أخضر بلون الصبَّار ببساط البيت القديم، أملًا في أن يبدد ذلك التغير بعض الروائح العالقة بالذاكرة، لكن ذلك اللون المحايد للسجَّاد زاد من كآبة المنظر، وظل الدم المسكوب في ساحة البيت، والرصاصة التي ارتشقت في الحائط جاثمَيْن على المشهد. ومع الوقت انشغلت "نعم الخباز" بأوجاعها، وانشغلت "الشمس المشرقة" بعدة كوارث أخرى، مثل غرق "ميمي دونج"، وفقدان "لوسي" قطة "إيمي"، وهروب "عمر" ابن "نعم الخباز"، وجروح "سليم النجار" ومحاولة انتشال أطفال المرْكَبة المنكوبة "عين الحياة".

***

تنام "الشمس المشرقة" تحت أقدام سلاسل الجبال القرمزية على الساحل الغربي لتلك البلاد، منحنيةً بتواضعٍ بين مفارق الطرق التي تؤدي إلى المنتجعات الجبلية في الشمال، ستبدو صورها من الفضاء مجرد تجويف أرضي منخفض وسط حلقة من التضاريس الصخرية والهضاب الصحراوية، تتماسُّ حدودها الجنوبية مع صحراء قاحلة كانت ولا تزال مَعبرًا حدوديًّا

تاريخيًّا للمتسللين، وتطل من الشرق على سلسلة أخرى من التشكيلات الصخرية البازلتية، التي تتدرج ألوانها الرمادية وتتراقص ظلالها كرؤوس شبحية فوق التلال. أما من جهة الغرب فقد احتلَّ الساحلَ جرفٌ صخريٌّ ضخمٌ تحول إلى مقصدٍ لهواة التسلق، وتسبَّب هذا الجرف في تعثر اتصال "الشمس المشرقة" بالمحيط، وانحصر كل ما يربطها بالساحل الغربي بذلك الأخدود أو التجويف المائي، الذي توسع وشق طريقه بمحاذاة الجرف الصخري فصاروا يطلقون عليه مجازًا لقب "الخليج".

ونتيجةً لتلك التضاريس الجغرافية الفريدة فقد اعتادت بيوت "الشمس المشرقة" أن تتنفس كل يوم غبار التلال التي تطوقها وتتصالح مع أبخرة ذلك الخليج الضحل، الذي تفوح منه رائحة ذكور كلاب البحر النافقة بعد معارك ضارية في مواسم التزاوج، ثم رائحة مخاض الإناث اللواتي يضعن صغارهن في جيوب الماء الدافئ.

تهبُّ عليها رياح الصيف فتحمل تراب الجبل وتصفع به النوافذ والواجهات الزجاجية، ثم يسقط المطر فتسيل الأصباغ المتسخة كدموع كابية حارقة تترك آثارها كأخاديد تنحت مساراتها في طبقات الطلاء المتشقق، تُعرِّي الأمطار الموسمية خشب تلك البيوت الفقيرة، وتفتح شهية النمل الأبيض والعقارب الحمراء فتخرج راقصةً من بين شقوق الأرض، وتتسلق أخشاب وقراميد الأسقف، وتشق طريقها زاحفةً من الجحور إلى أصص الأزهار المعلقة في الشرفات.

"الشمس المشرقة" مجرد مستعمرة صغيرة، أو أنقاض مدينة حدودية

شبه ساحلية مهجورة، يقولون إنها كانت في السابق بيوتًا خشبية قميئة يسكن فيها عمال مناجم النحاس التي نضبت، ثم رحل العمال من زمن بعيد تاركين خلفهم بعض الوحدات السكنية الفقيرة، أو سلسلة من الأكواخ الصغيرة التي تتراقص في الفضاء الجبلي منفصلةً ومتقاربةً وكاشفةً لبعضها البعض، ثم توسعت المستعمرة البشرية مع الوقت وضمت إليها غيرها من الأحياء و الإمتدادات السكنية، التي تجاورت بين الهضاب الصحراوية وتحولت إلى محطة لعبور العمال المتسللين إلى المزارع الجبلية في الشمال.

من تلك المستعمرة تخرج حافلات عمال النظافة وتعمير الحدائق كل صباح، تتسلق ممرات الجبل وتسير باتجاه التلال البعيدة حيث تنام منتجعات "الجنة الأبديَّة" عالية بين القمَم الجبلية، يحمل العمال في طريقهم إليها أدوات تهذيب الأشجار، وماكينات قص الحشائش، وتقليم النخيل، وتزيين الحدائق. تخرج أيضًا إليها تلك الحافلات الصغيرة التي تحمل لافتات شركات النظافة "كلين هوم"، "سوزانا كلين"، "ماتيلدا وأخواتها لتنظيف البيوت".

تمر الحافلات في مسارات محددة وطرق ومنعطفات منحوتة بين ممرات الجبال، تتسلق الممرات الجبلية الضيقة لتصل في النهاية إلى "الجنة الأبديَّة"، حيث تتراقص المنتجعات الجبلية البعيدة، وتتكشَّف ممرات القصور العالية، المترفة، والتي يحتاج أصحابها إلى خدمات عاملات النظافة والأيدي العاملة باستمرار.

***

المنافذ الحدودية الجنوبية التي قذفت بـ"نِعَم الخباز" وبغيرها من سكان تلك الأرض لم تعُد الآن آمنة أو صالحة لمحاولات التسلل، بعد أن تكفلت قوات حرس الحدود بتأمين تلك المساحات الصحراوية الشاسعة التي نفقت فيها الكثير من الجثث الآدمية عطشًا، وانتهت رحلتهم قبل أن تبدأ. الحدود الساحلية أيضًا تم تأمينها بعد إغلاق مداخل الخليج بخوازيق ومدقَّات من الحديد على مسافات شاسعة من اليابسة، لكن تلك الإجراءات لم توقف تمامًا محاولات التسلل عبر حاملات البضائع، أو سيرًا على الأقدام لمسافات شاسعة عبر الصحراء الممتدة وصولًا إلى أرض "الشمس المشرقة". صارت البلدة الساحلية بمرور الوقت وحسب موقعها الجغرافي هي المحطة الأولى للعبور، يتخفَّى في أزقتها الهاربون عدة أيام ثم يواصلون البحث عن طريقٍ آمنٍ بين ممرات الجبال للهرب شمالًا، باتجاه مزارع الكروم البعيدة، أو تلك المناطق التي لا يسألهم فيها أحد من أين جاءوا؟، إذا استطاعوا بالطبع تفادي عربات ترحيل العمالة غير الشرعية، أو تلك الدوريات الأمنية التي تنقضُّ على الطرق الجبلية من حين إلى آخر، وتنجح في مطاردة بعضهم وإجبارهم على العودة عبر الحدود نفسها التي تسللوا منها، بينما يفلح آخرون في الاختفاء حالمين بأن يرافقهم الحظ الطيب ويتم نسيانهم إلى حين.

لم تكن "نِعَم الخباز" من تلك الفئة على أية حال، فقد استطاعت أن تحصل على إقامة شرعية دائمة، وعاشت بما يكفي لتنسى كيف جاءت إلى تلك الأرض، لكن حسب روايتها التي كانت أيضًا غير دقيقة وربما مُتخيَّلة فقد قالت إن الله قد عوضها عن طفولتها الشقية خيرًا فحدف بها إلى تلك

البلاد مصادفة فقد جاءت كراعية للعجائز، وعملت في بيوت العَجزَة في المنتجعات الشمالية لسنوات لم تعُد تذكرها، لكنها تؤكد أنه تم استقدامها بطريقة شرعية تمامًا، وخالية من الشبهات؛ لذا فقد كان الكثيرون يعتبرونها محظوظة حتى تلك اللحظة المشئومة التي فقدت فيها بِكْرها، لكن فَقْده لم يكن أول أو آخر تلك الكوارث التي مرت بها في حياتها.

***

في الرابعة من عمرها انكفأت "نِعَم" على راكية النار وترك ذلك ندوبًا عميقة في الشق الأيمن من وجهها الأسمر البالي، وزادت الخدوش من لمعان عينيها الصغيرتين اللتين تشبهان عيون الثعالب الغاضبة.

لم تخبئ "نعم" تلك الندوب التي توارت قليلًا بفعل التجاعيد وغبار الزمن، بل كانت تستخدمها وفقًا لما تقتضيه الحاجة كوثيقة على ما تعرضت له في طفولتها من كوارث تستوجب الشفقة.

حسب روايتها أيضًا، حدث ذلك في يوم شتائي أوْحَلَت فيه الشوارع في الحارات الضيقة وتجمدت أطراف الصبية الذين يركضون طوال يومهم في أزقَّة تلك القرى الصغيرة التي كانت تنام غرب الدلتا، قامت زوجة أبيها الأولى التي يلقبونها بـ "الرَّيِّسة" بإشعال النيران وتوسطت المجلس الذي تَعبَّأ بدخان أرجيلتها.

"الرَّيِّسة" هي السيدة الأولى والمالكة الأصلية للبيت والمخبز ولها وحدها حرية التصرف في شئون هذه الحياة. يتوسط المجلس أيضًا "جعفر

الخباز" الذي يتضاءل وجوده في الحضور الجسدي للريسة، ذلك الحضور الذي يملأ الفراغ بصبغة خُنْثويَّة خالصة؛ فقد أضفت شراهتها في التدخين هذا الإيحاء الخشن للأنوثة. فهي تقوم مثلًا كل عدة ساعات بإشعال النار في حُزْمة من الخشب المتفحم في وعاء فَخَّاري، بغرض التدفئة ولتتمكن أيضًا من رصِّ وتعبئة رؤوس الدخان ولا تنقطع في جلستها من حرق قطَع الفحم وسحب أنفاس الأرجيلة والبصق في كل اتجاه، حتى يتعبَّأ صدرها بالتبغ ويفيض بالبلغم والبصاق. في المساء يضطجع "جعفر الخباز" بجوار "الريسة" متعبًا، ومستمتعًا بمشاركتها في سحب الدخان الذي يغلف حياتهما بتلك القسوة، تمدُّ "الريسة" وَرِكَها الضخمة فيضع رأسه ثم تناوله الأرجيلة، فيلتقم خرطومها ويصبح الدخان العسلي الكثيف سُحُبًا متراكمة فوق فُتات الأطباق الفارغة ونُفايات الأبناء الذين يتقافزون حول مشهد انتهاء النهار.

في ليلةٍ من تلك الليالي سقطت "نعم" على الموقد والجمرات المشتعلة، كان "جعفر الخباز" مُقعيًا ككلب على حجر "الريسة" كعادته بينما كانت أُمُّ "نعم" تدلك قدميه، وانشغلت الزوجة الثالثة في تحضير الشاي على موقد الكاز الصغير على طرف المجلس. تلك الليلة كانت النار أكثر توردًا وشراسة توسطت بلهيبها الجلسة، وكان المطر يطرق النوافذ فالتَمَّ الصغار حول طاقة الدفء وتبادلوا بعض الحكايات والشتائم والألعاب الغامضة، ثم الضحكات ثم أطفأ نحيب "نعم الخباز" وتشوُّهات وجهها المحترق مشهد الانسجام العائلي الذي قلَّما يتكرر في البيت.

"جعفر الخباز" كان طويلًا ونحيلًا وله عَيْنَا ثعلبٍ جبلي، عينان مترقبتان، مفعمتان ببريق التنمُّر وحكمة التروِّي، عينان تكشفان قدرات متعددة على القسوة والغدر، ورثت "نعم" عنه تلك العينيْن، لكنها لم ترث منه ملامحه الناعمة التي لا تتلاءم مع أصوله العرقية التي لا يعرفها أحد؛ بخاصة شعره الأشقر الكثيف الذي ينسدل من تحت العمامة، وملامحه القوقازية، وبياضه الرائق، تلك الملامح التي لا تخدش وسامتها سوى دقة الوشم التي تجاور بروز الحاجب الأيمن.

يجلس "جعفر الخبَّاز" في ذاكرة "نعم" متكئًا على الوسائد بجلبابه الكشميري ويمدُّ ساقيه وسط قبيلة من الأبناء، يجلس مبتسمًا متوردًا، راضيًا عن نسائه الثلاث اللاتي أنجبن له عددًا من الذكور زَجَّ بهم مبكرًا إلى مخبزه؛ ليتقاسموا مسئولية أعمال المخبز، مثل حمل وتفريغ أجولة الدقيق ثم العجن والتقطيع والخَبْز وإشعال الوقود في الأفران.

كان العمل داخل المخبز يسير وفقًا لما حددته "الريِّسة" من مهام يتقاسمها الجميع من دون تفريق أو محاباة بين أبناء الضرائر، بينما يكتفي "جعفر" منذ أن تزوجها بالجلوس جوارها نهارًا على تلك المَصْطَبة الطينية التي تجاور مدخل الفرن. تكون "الريسة" دائمًا منشغلة بعدِّ الأرغفة ومتابعة حركة البيع وعدّ النقود التي تنتهي إلى حافظة من القماش تتدلى برباط من صدريتها التي تظهر بجلاء من تحت قَبَّة ثوبها المرقش بالورد، تفتح صدرها وتنحني فيرتخي صدرها المنفرط بضخامة غير عابئةٍ بنظرات العابرين.

تدير "الريسة" عالمها بروح ذكورية خالصة، اكتسبتها بمرور الوقت

وبمساعدة ملامحها الحادة، ونبرات صوتها الخشنة، وموهبتها في توظيف الألفاظ والإشارات الجنسية في مواجهة خصومها المحتملين. صحيح أن المعارك التي خاضتها لتفرض هيبتها كانت قليلة، لكنها كانت كافية للتعرُّف إلى هذه المهارات الفردية في فنون التفحُّش، فهي تحلف بأعضائها الجنسيَّة وتشخر من أنفها بتلذُّذ وتستخدم أصابعها الوسطى، وتهز مؤخرتها الضخمة مقلدةً أنثى البط في حالة التلاقح لتوصيل رسائل تعجيزية إلى غريمها.

تمتلك "الريسة" مُخيِّلة خصبة تُمكِّنها من تقييم كل شيء حولها حسب قدراته الإخصابية والجنسية، تجلس بجوار "جعفر الخباز" وتقول هازئة بفلان: "وش القرد" وفلان "أبوخرية" وعِلَّان "أبو رقعة في لباسه"، وفلان "أبو عِدَّة مصدِّية" ولا تخفي في أدائها ما الدلالة الجنسية المستترة وراء كل لفظ تتلفظ به.

كانت تلك الموهبة تضمن لها سطوةً في مملكة الذكور الذين يتحاشون دائمًا لسانها، كما تضمن لها مكانتها بجوار "جعفر الخباز" الذي يعتبرها رَبَّة البهجة، يضحك وينثني على فخذها مبتهجًا كلما انحنت على أذنه لتصف له أحد العابرين أو العابرات بتلك المتخيلات الجنسية التي تدغدغ حواسَّه.

تعتقد "الريسة" أن العالم ينبني بين أفخاذ النساء، وأن التلاقُح الجنسي جوهر الحياة ذاتها؛ لذلك كانت حريصة على تزويج بنات "جعفر" الكثيرات بمجرد بلوغهن. تزوجت بعضهن في القرى المجاورة كبلاد السواركة

وبلاد الغرابوة وبلاد البحر، وبعضهن الأخريات تزوجن في بلاد أبعد لا يعرف أحد طريقها، تؤمن "الريسة" أن كل بنت ونصيبها وأن كل امرأة تستطيع أن تخلق الكون الذي تريده بين فخذيها.

"جعفر الخباز" بدوره كان قصير النَّفَس في المفاوضات فهو لا يسأل عن المهر أو ترتيبات الزواج، فقط يتفقَّد المؤخر الذي يجعله تعجيزيًّا ويضمن بذلك قدرة نسيبه الجديد على تدبُّر أمر عروسه في بيته لبقية أيام عمرها، فمتى خرجت البنت من بيته فمن الأفضل أن تظل حيثما ذهبت، وألَّا تفكر مجرد تفكير في العودة إلى بيت أبيها إلا لمجرد الزيارة.

لم يتعرف "جعفر" إلى أحفاده فضلًا عن أولاده، ولم يكن مكترثًا سوى بحياته التي تتمحور حول صلواته التي يؤديها بانتظام في المسجد الذي يلاصق مخبزه، قضى "الخبَّاز" نصف حياته في الباحة الخلفية لهذا المسجد الذي تتعهَّده إحدى الفرَق الصوفية، تلك التي يرخص أفرادها كل أنواع المُغيِّبات كالحشيش والأفيون، على اعتبار أن تلك المغيبات تعين العبد على الانفصال النسبي عن الوجود، أو تطلق طاقاته الروحية.

يتبادل "جعفر الخباز" غليونه مع أهل اليقين ويُقسِّم أوراده الرُّوحية بين الصباح والمساء وأحيانًا يتطوع بفروض الضحى إذا كان ذلك ممكنًا. يتطوح "جعفر" بين سُحب الدخان وهو يردد أوراده اليومية، ويشعر في تلك اللحظات بأنه فارق هذا الكون وصعد إلى حيث تجلس "الريسة" على كرسي العرش وحدها، وتدور الفتيات الصغيرات اللاتي ادَّعين أنهن بناته ثم تفرقن في بلاد الله يدُرن حولها.

لا يمكن الوثوق بما يراه "جعفر" في شطحاته، يمكن فقط التكهُّن بأنه خُلق ليدور حول قطبها برضى تام.

يواظب على الجلوس بجوار ربَّة البهجة صباحًا، يجلس على باب المخبز بجانبها، حيث يتلقى التحية من العمال ويُمعن النظر إلى العابرين وهو يحتسي فناجين قهوته المعطرة بالأفيون. في المساء يتوسط مجلسه في ساحة البيت الملحق بالمخبز، إلى جوار "الريسة" أيضًا، متصدرًا المجلس، متكوِّعًا، ممتلئًا، غائبًا عن الوجود وسط الأشباح التي تتراقص حوله.

عاش "جعفر الخباز" على جرعتين من القهوة المعطرة بالأفيون، سمحت له تلك الجرعة بالسباحة دائمًا في منطقةٍ ما بين الحياة والموت، هادئًا وغائبًا وحاضرًا حول مقام "الريسة" الذي لا يستطيع تخطيه حتى في شطحاته.

تتذكَّر "نِعَم" من ذلك العالم الذي تركته وراءها تلك اللحظة التي قال فيها "جعفر" شيئًا يخصها، وكان ذلك أول وآخر ما قاله لها: "أنتِ ونصيبك يا نعم.. الله يكتب لك الخير يا بنتي مطرح ما تروحي"، كان يفكر أن ابنته مجرد بضاعة بائرة في سوق الزواج، وأن ثمَّة طرقًا أخرى للحياة عليها أن تسلكها لتعيش، وهزت "الريسة" وركها في حركة لا إرادية تصاحب شد أنفاس الدخان عميقًا، ثم ربَّتت على ظهرها وجذبتها من سروالها وقرصتها قرب موضع عفَّتها وقالت ضاحكة وربما ناصحة: "سكة أبوزيد كلها مسالك"، ثم شخرت تلك الشخرة التي يتهاوى "جعفر" أمامها.

لم تظهر أُمّ "نِعَم" في هذا المشهد الأخير لأنها كانت مشغولة بشيء ما، إرضاع طفلة جديدة، غسيل كومة من المواعين في ركنٍ ما... لن تتذكَّر "نعم"

ملامح تلك الأم، بينما ظل حضور "الريسة" خالدًا مجسدًا كل مواصفات القوة والقسوة والسلطة التي طمحت "نعم" وسعت إليها.

في ذلك الصباح أوصلها جعفر إلى بيت "أمر الله"، وبذلك خرجت "الريِّسة" وأُمُّ "نِعَم" والإخوة الكثيرون والفرن والبيت من حياتها، صارت "نعم الخباز" خادمة صغيرة، تنام تحت قدمَي السيدة "ذات الأوجاع"، السيدة التي تحتاج طفلة صغيرة تؤنسها في الليل بعد أن تركها أولادها وتفرقوا في البلاد.

ترحل البنات عن بيوت آبائهن لأسباب متعددة، معظمها زيجات مُدبَّرة في عمر البلوغ لاتقاء اللحظات الحرجة، التي تجد فيها البنات الصغيرات أجسادهن وقد تفتحت فجأة وصرن مطمعًا للقريب والغريب، بعضهن يرحلن أصغر من ذلك ما بين السادسة والثامنة، تتنافس بعض المتخصصات في تدبير خدمة البيوت في التكسُّب بتشغيلهن خادماتٍ صغيراتٍ في المدن التي تتطلب سفرًا طويلًا.

يوم رحلت "نِعَم" كانت في السادسة أو الثامنة لا تعرف بالضبط، لكن ذاكرتها ما زالت عالقة بتفاصيل بيت "أمر الله"، ذلك البيت الطيني الذي يُشرف على أحد المصارف التي تهبُّ منها رائحة الماء العطن.

تتذكَّر فقط وجه "أمر الله" الذي يرسم رهبته عبر خريطة من التجاعيد والأوشام، تشريط غليظ على ذقنها، عصفورة خضراء مدقوقة أعلى حاجبها، وشمًا آخر لسمكة صغيرة على ظهر كفَّيْها.

"أمر الله" لا تبتسم ولا تتحدث كثيرًا ولا تسمح لأحد أن يقترب من طعامها أو شرابها، أو يدخل حجرتها التي تغلقها بالمغاليق، تجلس على فراشها وتنفخ دخانها وتتشكّى من الضجة ووجع رأسها، لا يمنعها ذلك من مراقبة حركة البنات الصغيرات معظم الوقت. في الصباح تتفقّد بناتها ثم تلقي على شعر كل واحدة منهن كمية كافية من الكيروسين تكفي لحرق فروة رأسها، ثم تلقي قطعة من الصابون وتشير بيدها إلى إحدى الغرف الخلفية للمنزل، وتترك الصغيرات يتدبَّرن تسخين المياه وحَكَّ أجسادهن بالقَشِّ وفَرْك أقدامهن بالحجر الخفَّاف، وتتغاضى عن صوت الضجيج وهن يتبادلن الكلمات النابية والتراشق بالماء الحار، ثم ارتداء الملابس والانشغال في تضفير شعورهن التي ما زالت تحمل رائحة الكيروسين النفاذة، وفي الليل يتحلقن حولها في صمت بانتظار أوامرها أو استكمال طقوس النظافة بحَكِّ ودَهْن أياديهن المتشققة من أعمال الحقول بقشر الليمون وزيت الخروع.

تتوسَّط "أمر الله" مجلسها وتسند ظهرها على الوسائد وتدخن سجائرها التي تلفها بعناية، وتتحلَّق البنات حول قدميها التي تَهُزُّهُما بين حين وآخر ليتتابعن في تدليكهما، ثم تكرر تعاليمها التي تنتهي عادةً بجملة واحدة: "ح ترجع لي وسأعلمها الأدب" تقول مثلًا: "اللي تمد أيدها على حاجة مخدومها ح ترجع لي واعلمها الأدب.. فاهمين؟". تصمت قليلًا كأنها تتذكر ما ينبغي عليها قوله، ثم تكمل: "النظافة أهم شيء، أيدك ولبسك وشعرك لازم تكون نظيفة طول الوقت"، تنظر إلى أظفارهن وتكمل: "أهم شيء في الحياة هو الرضى، اللي يرضى ربنا يرضيه، واللي يتبطَّر على النعمة ح يرجع لي واعلمه الأدب".

لم تكن "أمر الله" تصلي ولا تسبِّح ولم يتناقل الناس عن كراماتها سوى أنها تأكل مال النبي، لكنها مع ذلك تضع اسم الله في كل جملة، تصمت طويلًا قبل أن تتذكر ما أرادت أن تقول، ثم تكمل كأنها لم تنقطع قطَّ عن الكلام: "نعم وحاضر غير ذلك تحطِّي لسانك في فمك وصوتك يفضل واطي، البنت اللي يعلو صوتها في حضور مخدومها ح ترجع لي مثل الكلبة وح اعلمها الأدب".

كانت "أمر الله" تعلم أن بناتها كما يطلقون عليهن لسنَ بناتها في الحقيقة، وأنها لم تنجب قط، وأن الكثير من بناتها لم يعُدن إليها أو إلى غيرها، وأنها لن تستطيع أن تعلمهن شيئًا وأن الحياة وحدها كفيلة بأن تعلمهن المهارات اللازمة للبقاء والنجاة، تعلمهن اللامبالاة والصمت والانكسار، والقدرة على استشعار الخطر، والحكمة في نسج الأكاذيب، والتفنُّن في كسب التعاطف، ثم تدربهن على القسوة والتلوُّن والنكران.

في الغرفة المعتمة التي تنام فيها الفتيات تسمع "نعم" صوت نحيب الخادمات الصغيرات وأمنيات الهرب، لم تعرف "نعم" قط تلك المشاعر، لم تُصب بداء الحنين مثل غيرها من الخادمات الجدد، لم يكن هناك ما تبكي عليه أو يثير الشجن، تتذكَّر فقط أنها وضعت يدها على خدِّها تلك الليلة، وتحسست الحفر الصغيرة التي تركها الحرق القديم على وجهها، ونامت مرتاحةً لفكرة الهرب والسفر والتنقُّل بين البيوت.

في بيت "أمر الله" تدربت "نعم" على غسيل وطَّيِّ الثياب وحكِّ الأواني ونظافة البيوت، كما أتقنت بعض التدابير الأخرى اللازمة لخدمة البيوت

كالطاعة والتهذيب وسرعة البديهة، تدربت أيضًا على تلك النظرة المتذلِّلة المستعطفة.

بعد أسابيع من التمارين الشاقة على ما تتطلبه الحياة الجديدة من مهارات، عقفت "أمر الله" كل بنت في يد الأخرى في رباط طويل، وسحبت البنات الخمس قبل بزوغ الشمس وهي تقول: "أمامنا سفر طويل لا أريد أن أسمع كلمة واحدة طوال الطريق.. ولا واحدة تفتح فمها بكلمة معي أو مع غيري.... مفهوم؟". لم تفتح أيٌّ منهن فمها بالكلام، لم يبتسمن ولم يبكين، كُنَّ يفتحن أفواههن في دهشة وحيرة، ولم تجرؤ إحداهن على التنفس بصوت مسموع.

ذلك الصباح قصدت "أمر الله" وبناتها ساحة البلدة، وعبرت إلى موقف عربات نصف النقل التي تنتظر ركابها في ذلك الشارع الترابي الطويل، حيث يقع مركز البلدة التي لا تزال قرية صغيرة رغم التوسع، تناثرت على جانبَي الشارع الترابي عدة مبانٍ حكومية، عُلق عليها لافتات إرشادية لا يقرؤها أحد؛ لأن معظم العابرين لا يقرءُون إنما يعرفون بمجرد النظر ما تشير إليه تلك اللافتات، هنا تقع الوحدة المحلية وهناك مكتب البريد بجوار مركز الشرطة وفرن جعفر الخباز الذي كان عنوانًا كبيرًا لتلك الحاضرة الناشئة. كان هناك أيضًا بعض دكاكين العطارة والشموع وبعض السلع التموينية البسيطة بجانبه، بعد ذلك ينحدر الطريق ليصل إلى السوق والمقابر.

ركبت "أمر الله" وبناتها الخمس في وسيلة المواصلات الوحيدة التي كانت متاحة آنذاك، صندوق عربة نصف نقل مكتظ بالبشر ورائحة الطين

والفقر، يقرفص فيها طلاب المدارس العليا، وعمال اليومية الذين يضمون إلى صدورهم بعض أدوات الحفر والبناء، وتتكوَّم في قعره بعض البائعات القرويات اللاتي يحتضنَّ أقفاص البيض والجبن وغيرها من المنتجات الريفية لبيعها في أسواق المدينة الكبيرة.

بعد امتلاء الصندوق، خاضت العربة في ذلك الطريق بين الحقول الواسعة، توقفت أيضًا في بعض محطات الطريق ليهبط البعض ويحل آخرون محلهم، الركاب الجدد يتطابقون في الهيئة ولكنة الحديث مع الركاب القَدامَى. تغيرت بعض الوجوه بينما ظل جسد "أمر الله" وبناتها يهتز في صندوق السيارة حتى وصلنَ أخيرًا إلى موقف سيارات الضواحي، ذلك الموقف الذي يفضي إلى محطة القطار، حيث ركبت، وكان مكتظًّا كعادته فوقفت البنات الخمس حولها، اهتز بهن القطار في محطاته الكثيرة، ونزل بعض الركاب وحل محلهم آخرون فلم تجد الفتيات بُدًّا من افتراش الأرض بين المقاعد والجلوس بانتظار محطة الوصول.

توقف القطار أخيرا فنزلت "أمر الله" ببطءٍ يتناسب مع عمرها، ونزلت الصغيرات خلفها، سارت باتجاه الكورنيش المطل على البحر، فواصلن السير خلفها حتى فقدن القدرة على الاتزان، وتخبطت أقدامهن في الأحذية البلاستيكية الملونة وتسارعت نبضاتهن، لكنها لم تلتفت إلى بطء خطواتهن.

واصلت السير بمحاذاة البحر الهائج، كان فصل الشتاء ما زال في ذروته، فهبت أمواج البحر واصطدمت بالصخور وتركت رذاذها على ثوب

"أمر الله" الأسود. بعد السير المتواصل لمسافة ليست قصيرة، شعرت بالتعب، فجلست بعدها قليلًا على الطُّوَار المحاذي للبحر، وجلسن حولها، أشعلت سيجارتها وراقبت السيارات التي تمرُّ أمامها، حدَّقنَ في السيارات مثلها، لكنهنَّ لم يفهمنَ قط ما الذي كان بانتظارها أو انتظارهن.

قامت "أمر الله" بعد ذلك وعبرت الطريق باتجاه بعض البنايات المواجهة للبحر، وقفت عند أرقام بعينها، دخلت وخرجت من بيوت كثيرة يعرفونها وتعرفهم، خاضت بعض المجادلات وبعض المحادثات الجانبية التي ارتفع صوتها فيها قليلًا عن المعتاد، وهمَّت في بعض اللحظات أن تجذب رباط الفتيات الخمس والعودة بهن عبر الطريق نفسه، لكنها في نهاية النهار كانت قد أدارت تلك المجادلات بمهارة وأتمَّت تسليم كل واحدة من بناتها إلى بيت مخدومها نظيفة ومعطرة بتلك الرائحة، التي هي مزيج من الطين والتراب والكيروسين والصابون الرديء والترقب والخوف.

السيدة ذات الأوجاع

لم تعُد تتذكَّر اسمها، ستطلق عليها "السيدة ذات الأوجاع"، تقول إنها كانت عجوزًا ضامرة، تكدست أدوية الخرَف والأمراض المزمنة على طاولة جانب فراشها، وعلى الرغم من الزيارات النادرة لأبنائها المشغولين دائمًا فقد كان على "نعم" وحدها تحمُّل عبء رعايتها، تبديل ملابسها، تنظيف جسدها، تقديم الوجبات في موعدها.

السيدة ذات الأوجاع كانت متطلبة ككل العجائز، ولا تنام خشية أن يداهمها الموت في غفوتها، وتتحدث كثيرًا مع أشباح لا تراها، تناديها بأسماء تختلف بحسب يقظتها وساعات غفوتها. في الليل تنام "نعم" أسفل فراش العجوز، على الأرض تشد غطاءها وتتلحَّف الأغطية الثقيلة وتسمع صوت هذيان العجوز حتى يعبر النوم. اعتادت "نعم" أن تبول في ثيابها أيضًا مثل العجوز الراقدة، وتشاركها مخاوفها من الموت الذي ينتظر فريسته في أحد أركان الغرفة، في لحظات انتباهها تصبح العجوز أكثر تشكُّكًا وقدرة على التطلُّب:

- غسلتِ المواعين...؟ طيب الكوباية دي بتعمل إيه هنا؟

ترد "نعم" مزمجرة:

- حاضر.

تعيد غسل الأكواب، تلميع الملاعق.

لكن ذات الأوجاع لا تسمح لها أن تجلس بجانبها، كلما نظرت إليها تتذكر دائمًا أشغالًا كان عليها أن تقضيها قبل ذلك، تقول بصوتها الواهن:

- قفلتِ باب الصالة.. فيه تيار بارد يأتي من الطرقة... روحي شوفي كده؟

تذهب "نعم" وتعود فتتذكَّر السيدة ذات الأوجاع أن قدميها تؤلمانها:

- هاتِي مرهم الروماتيزم... اطفي نور المطبخ..

ثم تسألها عدة مرات في اليوم:

- مين من البنات جالي النهار ده؟

لا ترد "نعم" على ذلك السؤال لأنها لا تعرف بالضبط عدد الأشباح التي تراها العجوز في منامتها.

تسأل السيدة ذات الأوجاع أيضًا عدة مرات عن دوائها:

- فين الدواء؟ أنتِ نسيت الدواء؟

تتابع "نعم الخباز" كل المسلسلات الإذاعية التي تعرف أوقاتها بدقة وتفكر كثيرًا في أبطالها الذين يتحولون مع الوقت أشباحًا يرافقون عزلتها.

لا يعكر مزاج "نعم" إلا صوت العجوز التي تقرر من حينٍ إلى آخر أنها لا تريد تلك الضجة الصادرة من الجهاز، ترفع رأسها بعد غفوة وأخرى وتقول: "اطفي المخروب ده.. بيوجع راسي". تطفئه "نعم" لعدة دقائق ثم تُعيد فتحه حين تكون العجوز قد غفلت قليلًا عنها.

بعد عدة أشهر عانت السيدة ذات الأوجاع من فقدان الشهية ولازمتها نوبات من الفزع وموجات من الحمَّى والارتعاش، تنام لمدة طويلة لكنها تستيقظ من غفوتها كل عدة ساعات بفزعٍ لتنادي بأسماء بناتها، رافق ذلك نوبات من الهذيان التي تستدعي فيها السيدة ذات الأوجاع أشباحها.

صارت العجوز تجترُّ ذكرياتٍ بعيدة وتتحدث إلى كائناتٍ تبدو في الجانب الآخر من الوجود.. أُمِّها التي رحلت من نصف القرن، زوجها الراحل الذي عذَّبها في حياته، إخوتها الذين فقدتهم في مراحل متعددة. في النهاية وجدت "نعم الخباز" نفسها في مواجهة الموت الذي صار يطرق الباب بخفوت، تنشغل بالغناء أو بِعَدِّ أقراص الدواء، وأحيانًا بدسِّ الجرعات الزائدة إذا أرادت أن ترتاح قليلًا من أنَّات العجوز، تتهرب ليلًا من سحب المبوَلة، وتغيير الحفاضات وتقليب زوايا الجسد في الفراش، وتراقب نهارًا جسد العجوز وهو يسير نحو التدهور، تراقب كيف يفرز الفم لعابه، ويدلق الجسم سوائله ويهترئ البدن بقُرَح الفراش، تعاود الانشغال بتغيير الحفَّاضات وتجفيف السوائل، ثم تجلس بجوار جسد السيدة ذات الأوجاع متسائلة لماذا تنتهي الحياة بتلك الصورة المؤلمة؟.

تستيقظ "نعم" عدة مرات في الليل لتتفقَّد أنفاس مخدومتها، وتعاود

الرقاد مترقبة خطوات الموت الرتيبة في فراغ البيت.. يأتي الموت، كما أدركت بعد تراكم خبراتها، مصحوبًا بالروائح الكثيفة، رائحة الدواء والمطهرات ممزوجة بالبول والإفرازات، يأتي الموت أحيانًا أخرى مصحوبًا بخفة أو سَكِينة مفرطة وأحيانًا بفرح يشبه الخلاص. الأنفاس الأخيرة مفرطة في قساوتها، ثقيلة ومصحوبة بحشرجة ثم يتحول الجسد إلى خرقة، مجرد كومة من الفضلات، مجرد قطعة مهترئة من الثياب التي استهلكت، مجرد صور باهتة على جدران في بيت قديم، مجرد ريح عابرة، ريح خرجت من بطن السيدة ذات الأوجاع وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

ظلت "نعم" تؤنس السيدة ذات الأوجاع حتى عبر الموت بها فتنقَّلت بعد ذلك في عدد من البيوت متخصصة في خدمة العجائز، صارت مع خبراتها في هذا المجال أكثر تخصصًا، تعرف الآن كيف تقوم بتركيب القسطرة وتبديل المحاليل والعناية بقرح الفراش وتبديل أوضاع الجسد كي لا يتيبس، وتعرف في النهاية كيف يتسلل الموت إلى مخدع مخدومتها ويُنهي فصلًا من فصول رحلتها.

تقوم بكل ذلك بآلية وحياد وخبرة، وصارت لا تخاف الموت الذي مر بجانبها أكثر من مرة، صارت تخاف فقط الأوجاع، الألم والمسكِّنات والقُرح، تخاف النهايات التراچيدية للمُسنِّين الذين ينادون على أبنائهم وحين يتأكدون من انشغال الأحياء بأمور دنياهم، يقتنع العجائز بعدم جدوى تلك الاستغاثات، فيتحولون إلى مناجاة موتاهم، يتحدثون إلى تلك الكائنات البعيدة عن الأوجاع والخلاص.

تنقَّلت "نعم" بين مكاتب توظيف الخادمات التي قذفت بها إلى المدن والقطارات والسفن والمدن البعيدة وبيوت الغرباء، كان البعض يختارها لأنها صغيرة وخفيفة وتستطيع تحمُّل المشاق، والبعض يختارها لأنها دميمة ولن تثير مطامع الأزواج أو الأبناء الذين تفتَّحت حواسُّهم بعد أن أدركهم البلوغ.

تتذكر "نعم الخباز" عددًا من مخدوميها بكثير من المرارة، تلك التي ستظل تلازمها حتى بعد أن انتهى بها المطاف إلى أرض "الشمس المشرقة".

لا يعرف أحد على سبيل التأكيد متى أو كيف وصلت، ولا كيف عبرت البحر واستقرت في تلك البلاد، يرجحون أنها جاءت برفقة أحد مخدوميها المُسنِّين، فهناك على بُعد عدة أميال شمالًا من أرض "الشمس المشرقة" تقع مصحَّة استشفائية ضخمة للمُعمِّرين يقصدها الأغنياء والقادرون من بلاد الله البعيدة، في السابق كان يُسمح فيها باصطحاب العاملات والخادمات كمرافقين دائمين للمُسنِّين.

المصحة كانت ولا تزال منتجعًا صغيرًا مشمسًا يمتاز بهوائه الجبلي، ويُعرف بطواقمه الطبية متعددة الجنسيات، من المؤكد أنها جاءت كغيرها في ذلك الوقت عبر تلك المصحة، في صحبة أحد المعمرين، أو ربما هبطت من مركبةٍ ما حطت على ذلك الخليج الضيق الذي كان دائمًا محطة من محطات التسلل، وكان يتسرب من ثغراته أفواج من العمال الهاربين أو المواطنين المحتملين إلى أرض "الشمس المشرقة".

"على مؤخرتي" كان هذا هو التعبير المفضل لـ"نعم الخباز" للتعبير عن قدرتها على مجابهة الأشياء، تقول ذلك بالتحديد إذا نظر إليها أحد باستعلاء، ولنَقُل بشكل واضح بازدراء، أو قرف وبرود. يحدث ذلك طوال الوقت لأسباب جوهرية مرتبطة برؤية البشر لبعضهم البعض في هذه "الشمس المشرقة"، ومرتبطة أيضًا بهيئتها العامة. كانت مؤخَّرتها لا تزال جيدة، وصلبة، وتبرز من تحت السروال الضيق، الذي يستهويها انسيابه على جسدها لأنه يؤكد أنوثتها في موضع من المواضع، لكن ما تبقى من هيئتها كان مثيرًا للشفقة والرخص، تعكس ملابسها خليطًا من أذواق المهمشين، وذلك لأنها كانت تعتمد بشكل أساسي على ما يمكن أن نسميه فضلات الآخرين، أو ما تخلص منه الأغنياء وألقوا به أمام أبواب البيوت، بالإضافة إلى ذوقها الخاص الذي يميل إلى الفوضوية والتجهُّم، فهي مثلًا تفضل الأحذية الرياضية الضخمة، وتكون عادة مستعملة ورخيصة، تتناسق في النهاية مع خطواتها الضجرة.

ترتدي "نعم" فوق سراويلها الضيقة سُترات قطنية، مطبوعة بتلك الكلمات التي تجهل في الغالب قراءتها، تلتقطها من أماكن محددة، وتختارها لأنها مجانية، أو رخيصة. ليس مُهمًّا أن تلائم ذوقها أو ذوق غيرها، المهم أن تكون مجانية؛ لذلك حمل معظمها لافتات إعلانية مضحكة، مثل "دكتور سوس لتبييض الأسنان" أو "القلب المقدس يضمن لك وجبة مجانية"، أو "معًا لمكافحة الجوع". تفضل "نعم" أيضًا التِّشيرتات التي تعكس الطابَع الإقليمي للمنطقة، تلك السترات التي نُقش عليها نبات الصبار ورموز "الكوكابلو" التي ترمز للتجدُّد والحياة عند بعض القبائل التي أوشكت

على الانقراض، أو أشكال رمزية سحرية أخرى تختلط مع صقورٍ وأفاعٍ وشياطين وآلهة قديمة.

لم تكن "نعم" تعتقد بتلك القوة السحرية الكامنة في نقوش ورسوم تلك القبائل المنقرضة، كانت فقط تجد في تلك النوعية من الملابس وفرة، فعادةً ما يلقي بها سيَّاح التلال الشمالية في النُّفايات أو صناديق التبرعات، وبعدها تذهب إلى أيدي "نعم" المدربة على التقاط تلك الفضلات.

كانت تلك الملابس على أية حال تتسق مع طبيعة "نعم" التي هي خليط من كل مُكوِّنات "الشمس المشرقة"؛ الحدَّة، والتجهُّم والقبح.

حينما هبطت "نعم" على تلك الأرض لم تكن، كغيرها من المهاجرين، قادرة على إجراء محادثة بسيطة يمكن فهم مغزاها، لكنها رغم ذلك كانت تجرؤ كغيرها على تبادل الأحاديث بمنتهى الثقة، ومن دون مبالاة بالنتائج. وكانت تلك المحادثات غالبًا ما تنتهي بالابتسامات المتبادلة، وبعد اعتقاد كلا الطرفين بأنهما عاجزان عن التواصل لأسباب ثقافية أو إدراكية عميقة، ثم بمرور الوقت يكتسب الغرباء تلك البلاغة الشفهية التي تُمكنهم من التواصل بتلك اللغة الدارجة متعددة اللكنات.

وبعد أشهر قليلة تمكنت "نعم" بسرعة من التواصل وإدارة حوار وَقِح قصير ومباغت، واستطاعت أن تمتلك عدة مهارات كلامية تُمكنها من الانتقاء بدقة من قاموس الشتائم، تلك العبارات المتداولة التي ربما لا تفهم معناها بدقة، لكنها تنطقها بصورة صحيحة، ومعبرة، وتستطيع توظيفها في السياق لتصيب بها أهدافها بكفاءة.

تعتقد "نعم الخباز" أنها من جيل الرواد، ليس فقط في مظهرها، بل في جوهر تجربتها، تلك التجربة التي تتكرر كل يوم بشكل مخيف ومحزن. هي من ذلك الجيل الأكثر حظًّا، الذين جاءوا مبكرين، واستطاعوا أن يحصلوا على بطاقات الضمان الاجتماعي وكروت الطعام ومعونات البطالة وتوفيق أوضاع الهجرة. كانت من الجيل الذهبي الذي يستطيع أن يكوِّن الثروات الصغيرة من تجارة ألبان الأطفال والبضائع المهربة، جيل المعونات والاقتراض من البنوك، كان ذلك منذ وقت طويل حين كان العبور أسهل وفرص العمل ممكنة، ومكاتب الهجرة أكثر تعاطفًا مع قصصهن المأساوية، الحقيقية أو المُخْتَلَقَة، وإذا سألتها لماذا جئتِ إلى هنا يا "نعم" ستجيبك على طريقة المكاتب الرسمية أنها هاربة من جحيمٍ ما "أبويا الله يجازيه.. النصيب الله لا يعيده، لقمة العيش والنصيب".

كان وجود الحرق القديم على بشرتها السمراء وثيقة تكفل لها التصديق بكونها ضحية بشكلٍ من الأشكال، ضحية عنف أو حرب أو اضطهاد عِرْقي، تعرف "نعم" الاستفادة من تلك المؤثرات الفيزيقية حين تود ذلك. كان ذلك التشوُّه يغطي نصف وجهها على أية حال، لكن النصف الآخر كان أكثر مرارة، وهو وجه امرأة أرادت أن تُحِبَّ وتُحَبّ، وتشتهي ويرغب فيها الرجال، وللأسف لم تستطع أن تنال تلك الأمنيات، أو تسطو على تلك المتخيلات بالرغم من قدراتها المتعددة في اقتناص ما تريد من الحياة.

تملك "نعم" شَبقًا وتَشهِّيًا لأشياء بالغة الغرابة، تشتهي دور العاشقة والمحبوبة وهو دور لم تفلح في تجسيده في الحقيقة، تعشق النظارات الشمسية الكبيرة، الحقائب الضخمة التي تعلن عن ماركاتها بصورة واضحة، تحب جمع الحُلي والأوشحة الحريرية، الملابس الأرستقراطية التي مرَّ على شيوعها عقودٌ طويلة، تحب أيضًا جمع المراوح المكسيكية، وقطَع المنافض الخزفيَّة، وتجمع أيضًا صور الأُسَر الموسرة في إطاراتها القديمة، واللوحات الزيتية التي رسمها مجهولون للجنَّة الأبديَّة. تقفز من عينيها تلك النظرة المفعمة بالتشهِّي وهي تنحني بأدوات التنظيف على تلك البيوت الباذخة التي تقدم لها خدماتها، تلك البيوت المليئة بالتحف وبقطع الخزف واللوحات والصور العائلية، والمطابخ المكدسة والعربات الفارهة، والدواليب المتخمة بالملابس. وكان الخروج من أرض "الشمس المشرقة" وعبور الجبال في حافلات التنظيف هو طقس العبور المقدس لتلك "الجنة الأبديَّة" التي اشتهتها والتي لا يوجد مكان لها أو لأمثالها فيها، كان ذلك الشبق والتمني والاشتهاء هو الذي دفعها إلى الاحتفاظ أيضًا بكثير من الأحجار الكريمة الجالبة للحظ، تلك الأحجار التي خاضت في سبيلها رحلاتٍ طويلة بين ممرات جبال "سانتان" و"سينورا" أو "وادي الأرواح العائدة" حيث كانت تتردد على أسواق الأحجار الكريمة على طريق "منجم الذهب الجنوبي". تتوقف في تلك الأسواق التي تمتلئ بنساء يشبهنها، متجهمات ووحيدات، يبحثن عن أحجار الحظ والحسد والمحبة، تمتلئ تلك الممرات الجبلية أيضًا بالمغامرين وسائقي الدرَّاجات النارية الجوَّالين، وتجار المخدرات الوافدين من الوديان المحيطة.

تقف "نعم" على منصَّات البيع، تفاصل كثيرًا، وغالبًا ما يعطونها الأحجار الأقل قيمة للخلاص من إلحاحها وأحيانًا للخلاص من القطع المهشَّمة والكرستالية الرخيصة.

يلمح الباعة هذا الولع باقتناء الفُتات في عينيها ويودون الخلاص السريع من تسكُّعها حول البضاعة والخلاص من أسئلتها الكثيرة التي تعطل سير المفاوضات غير المعلنة، أو التي تحدث تحت الطاولات لبعض البضائع السرية التي تشتهر بها تلك المناطق.

تضع "نعم" أحجار الحظ الكريمة في صناديق ورقية لأنها تؤمن أن بعضها يجلب المال وبعضها يجلب المحبة وبعضها يرد الحسد وبعضها يمكن أن يصير مع الوقت ثروة لا تُقدر بثمن. تضع مثلًا بجوار فراشها قطَعًا صغيرة من حجر القمر وناب الحيَّة إلى جوار قطع الشمع، التي تحرص على إشعالها في الليل لتصبح قوى كونية حارسة لأحلامها.

اهتمت في فترات أخرى بصنع الحُلي وقوى الطاقة الخفية وقضت سنوات طويلة في محاولات قراءة الطالع للوافدات الصغيرات، ولم تنجح في استثمار تلك المهارات لأن سكان "الشمس المشرقة" لا يتطلعن إلى شراء الحلي اليدوية، ولا يجدن الوقت للتفكير في الحظ والطالع الذي ترسمه الأحجار.

ظلت "نعم الخباز" تعتقد أنها تمتلك طاقات كبيرة، ومهارات تسويقية لا حد لها، وتحاول كثيرًا في كل اتجاه، وحين تكتشف فشلها في مشروعاتها الربحية تستقبل هذا الفشل بالروح الهازئة نفسها وتقول جملتها الشهيرة "على جزمتي"، قالت ذلك بعد أن أخفقت في مشروع طبخ وتسويق الأطعمة

الشرقية، ومحاولة استضافة أطفال الوافدات الجُدد، فضلًا عن فشلها السابق في صناعة الحلي، وتجارة الملابس المستعملة، لكنها لم تكُفَّ عن البحث عن بديلٍ لعملها في التنظيف بعد أن صار ذلك العمل يرهق فقرات ظهرها التي بدأت في التآكل والتعب.

تعشق "نعم الخباز" برامج التلفزيون المحلي وبرامج الواقع، تداوم على مشاهدة "عروس البحر" وهي مسابقة رخيصة تتقدم لها المراهقات من كل المقاطعات القريبة ليعشن بالتناوب أسابيع في إحدى الجُزر مع العريس الذهبي، وهو الفتى الوسيم الذي تختاره إدارة القناة ليصبح حصانها الرابح، تتابع بشغفٍ سعيَ كل متسابقة للاستحواذ على مشاعر هذا الزوج المحتمل تارةً بخلع ملابسها ومعانقته أو التنزُّه معه في القوارب أو بجرِّه إلى حوض السباحة، وتارةً أخرى بمحاولة الكيد لغيرها من المتنافسات للفوز به.

لا تتعب "نعم الخباز" من الفقرات الإعلانية التي تتخلل مقاطع العرض التلفزيوني، تتحرك بنشاط بين الفواصل لتحضير بعض المأكولات الخفيفة وتعود، تضبط إيقاع عودتها إلى فراشها في اللحظة المناسبة حيث تعلن نتيجة الحلقة والتي غالبًا ما تكون بانسحاب المتسابقة أو إنهاء خدماتها. تترقب "نعم الخباز" أسبوعًا كاملًا دخول متسابقة جديدة للبرنامج، تحفظ أسماء المتسابقات وتناقش مع صديقاتها أسباب خروج ودخول كل عروس متسابقة "كرستين طلعت من الجزيرة.. والله دي كانت زَيّ فلقة القمر، قال إيه: ليست مثيرة.. الله يخيبك راجل".

صديقاتها "سوزانا" و"كريستال" و"فاطيما" أيضًا يتبادلن معها تلك الاهتمامات التلفزيونية ويشاركنها في التعليق عليها أمام البيوت في محاولة لملءِ فراغ ذلك الليل الطويل، يتبارين أيضًا في التعبير عن مشاعرهن تجاه الأحداث الدرامية التي لا تخلو من مطاردات عاطفية، وخيانات زوجية، ومعارك واعترافات تنتهي عادةً بفضائح أسرية.

ظل إخلاصها لمتابعة تلك العروض التلفزيونية يرافقها، حتى بعد أن كبرت، وتحطمت فقرات ظهرها، وفقدت الرجال الثلاثة الذين وهبت حياتها لهم، ووهبوا حياتهم للفرار منها. رحل الزوج والولدان واحدًا بعد آخر وبقيت "نعم" على ذلك الخليج، تحاول تجاوز تلك الحقيقة باجترار الأسى، واقتناء فضلات الآخرين، ثم الجلوس في نهاية النهار لتحكي عن الأولاد الذين يكبرون فجأة، ويختفون فجأة، ويطلقون الرصاص بغضب، ويهربون إلى الجبال ولا يعودون، ثم تنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الأزواج الذين يمارسون الأشياء ذاتها.. تلك الأشياء التي تعرفها "الشمس المشرقة"، السرقات الصغيرة، والخيانات المتكررة، السُّكْر والتسكُّع في الطرقات بلا عمل، والهروب مع زوجات الآخرين، ثم الركض خوفًا من عربات الشرطة، أو الركض في طرق الموت من كل اتجاه.

***

تعرف "نعم الخباز" الكثير من نساء الحي، تعرف كيف تصنع أصدقاءها، وفي الحقيقة تختارهم بعنايةٍ لملء فراغ روحها بتفاصيل حياتهم التراجيدية، تلك التفاصيل التي تؤنسها وتطمئنها أن ذلك الشقاء مقسوم ومحتوم ولا يخصها وحدها.

تقضي "نعم الخباز" وقتًا طويلًا مع صديقتها "سوزانا" التي تعمل في التدبير المنزلي أيضًا، والتي لا تزال تأكل كبقرة وتنتف حواجبها الرقيقة وتضع الكثير من المساحيق على تجاعيدها، بل وتنام مع كل عابر رغم أنها فقدت منذ وقت قريب ابنتها "يولاندا" في مشاجرة بينها وبين صديقها انتهت بإطلاق النار، وسقوط جثة الابنة وصديقها معًا على الفراش نفسه الذي ما زالت تنام عليه. تراقب "نعم" صديقتها "سوزانا" وهي تفتح نافذتها وتتبادل مع العابرين تفاصيل تلك الكارثة التي حدثت لابنتها وغيرها من الكوارث، تتابعها وهي تقف بملابسها التي تكشف جسدها وتجترُّ تلك المشاهد المؤلمة وهي تحرك يديها التي تفوح منها رائحة الكلور والمنظفات الكثيفة؛ نظرًا لتخصصها في تنظيف المراحيض.

تتعجب "نعم الخباز" من خبرة صديقتها التي لم تكن جميلة على الإطلاق في اجتذاب الرجال، وقدرتها على أن تظل عاشقةً ومعشوقةً وفراشها لا يخلو من رجل.

تحب "نعم الخباز" صديقتها الصومالية "فاطيما" التي تشاركها أحزانها وتشعر معها بروعة القدَر الذي يعاقب الناس بأشكال عادلة لا يتدخل فيها الجمال كنعمة محضة، فعلى الرغم من جمال "فاطيما" فقد كان زوجها يخونها مع كل من عرف من النساء. وبعد جلسات التعاطف المشترك صارت "فاطيما" هي الصديقة الوحيدة التي تخصها "نعم" باعترافاتها التي تتعلق بالرجال، ربما لأن "فاطيما" بطبيعتها متفهمة وساهمة، ولا تعلق على اعترافاتها، ولا تدقق كثيرًا في رواياتها المتعددة والمتناقضة، ولا تنشغل بمطاردتها بتلك

الأسئلة المربكة عن هؤلاء العشاق، وربما لا تكترث حتى بمعرفة الحقيقة.. تقول لها "نعم":

- أول رجل أغواني، الله لا يكسِّبه بقى، سرق كل فلوسي، كنت عيِّلة لسه وحصل اللي حصل.

تتعدد أصول هذا الحبيب حسب طبيعة الجمهور فهو يوناني في بعض المرويات، وأحيانًا قبرصي وتختصر وجوده بأن بيت أهله في حي الجريج هناك على البحر في تلك المدينة الساحلية حيث عملت عدة سنوات في مرافقة السيدة ذات الأوجاع، كان ذلك قبل أن تعبر المحيط وتهبط في إحدى السفن إلى أرض "الشمس المشرقة". كان هذا الحبيب أول من حدثها عن السفر والمراكب، وكان أول من سرق منها ما اكتنزته وهرب "الله لا يكسبه بقى"، تهز "فاطيما" رأسها ولا تعلق، تفكر عادةً في مرويات صديقتها التي لا تتطابق أبدًا، عن طريقة وأسباب هجرتها إلى تلك الأرض. تدرك "فاطيما" مثل غيرها أن كل الغرباء يخترعون تاريخهم الشخصي بطرق مُتخيَّلة ولا داعي للتدقيق فيها أو التوقف عندها، تتخيل "نعم" مثلًا صورًا رومانتيكية كثيرة لذاتها، صور تقف فيها على شاطئٍ ما وتنتظر حبيبًا محتملًا لا يظهر، أو يظهر لمدة وجيزة يسلبها فيها ما ادخرت ثم يختفي، تتعدد الصور لكنها عادة ما تكون الضحية.

تحب "نعم"، "فاطيما" لأنها الصديقة الوحيدة التي تتقبل بسذاجة أساطير "نعم" العاطفية بينما يستقبل الآخرون تلك المغامرات بكثيرٍ من التشكُّك والحذَر، ربما لأن "نعم" لا تتوافر لها تلك الممكنات والمواصفات الشكلية التي تجعل من قصص الحب مخرَجًا مناسبًا لمأزق وجودها.

تعبر "نعم الخباز" على بيت "فاطيما" من حينٍ إلى آخر فتجدها جالسة، تضع يدها على خدِّها تراقب الفراغ أمام بابها، أو مشغولة عادّة في ضفر خصلات الشعر الأفريقي للراغبات. تحب أن تجلس بجانب "فاطيما" وهي منهمكة في تضفير الشعور المستعارة التي تفوح منها رائحة العطور والدلكة وزيوت الشعر، وتتدخل أحيانًا لتحسم جدل الزبائن حول تكلفة ضفر الشعر وعدد الخصلات المستعارة التي استعملتها، تشتبك أيضًا في فصالٍ عنيفٍ بالنيابة عن صديقتها المريضة بداء الحسرة، مؤكدة لها أنها خائبة ولا تعرف قيمة روحها، وقد تخوض مشاجرة أخرى مع زوج "فاطيما" السِّكِّير الذي يتسكَّع معظم الوقت أمام البيت ليراقب الداخلات والخارجات إذا لم يكن منشغلًا بسرقاته الصغيرة من الجوار، تقول له على طريقتها:

- ألم تجد عملًا لك بعد يا أخويا؟

لا يرد.

- والله لا تستحق ظفرها.. أنا عارفة إيه كان وقَّعها فيك؟

يبتسم ويقول:

- عقبالك لما تسعدي مثلها.

تكمل من دون أن تلتفت إليه:

- الله يلعنكم، كلكم على الشاكلة نفسها، تحبون الأكل من عَرَق النسوان.

يردد زوج "فاطيما" العبارة نفسها التي يُبدي فيها عدم سروره بجيرتها:

- اذهبي إلى الجحيم يا "نعم" أو ابحثي عن رجل يرغب في النظر إلى وجهك.

تتحسس "نعم" وجهها بندوبه التي تعرفها ثم تبصق باتجاهه وتقول:

- كان عندي بغل مثلك وطردته..

تسير "نعم" باتجاه بيت آخر من بيوت صديقاتها، تلك البيوت الخشبية المتهالكة والمتجاورة في بؤس، في المحطة الأخيرة من التجوال تتوقف عادة أمام بيت صديقتها "كريستال" المكسيكية التي دائمًا ما تكون مشغولة في حصر غنائمها من حملات إخلاء البيوت المنكوبة.

يعمل زوج "كريستال" مقاولًا صغيرًا مع إحدى شركات التأمين المحلية التي تتولى مهمة تنكيس وإخلاء البيوت المحترقة، أو البيوت التي تحدث بها كوارث، تحتاج تلك الشركات إلى بعض المقاولين الصغار الذين يستخدمون بدورهم عمالًا ومهاجرين غير شرعيين لأداء بعض المهمات العاجلة، مثل تنظيف تلك البيوت وإخلائها استعدادًا لإعادة الإعمار.

تعتقد "نعم" أن إخلاء البيوت المنكوبة عملٌ مربح، وطالما خططت في أحلامها لامتلاك شاحنة ومنافسة زوج "كريستال" في عملياته إجلاء المخلفات وإزالة أنقاض البيوت المنكوبة، واستطاعت "نعم" في النهاية تحقيق تلك الأمنية لكن بعد عددٍ من الكوارث التي أصابت حياتها وتركت فيها جروحًا عصيَّة على الشفاء.

تحدث الكثير من الكوارث في الوادي، ويكون على هؤلاء العمال والمقاولين الصغار أن يركضوا بعد انطفاء النيران لإخلاء وتنظيف تلك البيوت؛ ينزعون المبردات، والأفران، وشاشات العرض التلفزيونية، وغيرها من الأدوات الكهربائية، ثم يستولون عليها كجزء من الأنقاض.

تصبح الغنيمة أكبر إذا أصابت الحرائق والكوارث تلك البيوت الجبلية العالية البعيدة المليئة بأباريق الشاي الفاخرة، واللوحات النادرة، وصور الأغنياء في الإطارات الفضية، البيوت التي لا يدخلها شعب الشمس المشرقة إلا في تلك المصائب. تنشغل "كريستال" دائمًا بالجلوس أمام بيتها أيضًا منهمكة في تنظيف بعض قطع الأثاث الناجية، الملابس التي لم تأتِ عليها النار، تحب "نعم الخباز" أن تجلس بجانب صديقتها "كريستال"، لتتشاورا دائمًا في قيمة المقتنيات الناجية من وسط الحطام، وأسعارها وطرق إعادة استثمارها، أو تتفاوضان في تسويق بعض قطع الأثاث.

تخرج "نعم" من كل جلسة بشيءٍ ما لتقتنصه، إطار خشبي، ممسحة للأرض، فاتحة للمعلبات، أي شيء يعجبها تلمسه بشغف وتقول لصديقتها: "هل تريدين هذا البرواز؟"، تبتسم "كريستال" المنهكة من تفاصيل البيع والشراء، المشغولة بأعبائها المنزلية الكثيرة، والتي لا تجد وقتًا للنظر إلى ما تطمع "نعم" في اقتنائه، تقول لها بلهجة محايدة:

- خذي ما تريدين.. كلها أشياء عديمة الفائدة كما ترين.

كانت "كريستال" قليلة الكلام ومشغولة بتجارتها ومثقلة بما لا تودُّ البَوْح به بخاصة بعد هرب ابنتها الوحيدة، تلك البنت الصغيرة الممتلئة،

ذات الشعر الأسود الكثيف، التي كثيرًا ما شاهدها الجيران تلعب أمام هذا البيت قبل أن تنمو أنوثتها قليلًا فتخرج ولا تعود، حدث ذلك للكثير من الصغيرات في هذا الشارع قبلها وبعدها، راودهن هاجس الأنوثة مبكرًا فهربن مع أول رجل وقعن في غرامه.

تعاملت "كريستال" مع غياب ابنتها باعتباره قدرًا لا يمكن تفاديه، وتطورًا طبيعيًّا لا يستدعي القلق، واعتقدت أن ابنتها ربما هربت مع أحد العمال المؤقتين الذين عادة ما يتكدسون حول بيتها، وأكّدت لنفسها أنها سوف تعود عاجلًا أم آجلًا ربما حاملة طفلها المنتظر كما يحدث كثيرًا للفتيات في البيوت المجاورة.

كانت "كريستال" كأيِّ أُمّ ما زالت تنتظر عودتها، وتحاول التحايل على الفَقْد بالانشغال بعملها الذي يقتضي استضافة هؤلاء العمال الوافدين الذين ينجحون في التسلل، تفتح بابها للعابرين الذين يقضون بعض الأيام أمام بيتها، ثم يكملون رحلتهم عبر تلك الجبال البعيدة بحثًا عن لقمة العيش.

في طريق عودتها ألقت "نعم الخباز" نظرة على زوج "كريستال" الذي يستلقي على الحشائش أمام البيت وحوله عدد من العمال المتسللين، يتبادلون بعض الخمور الرخيصة ويراقبون العابرات وتعلو ضجة أصواتهم التي هي خليط من أرقٍ وسُكْرٍ وحنينٍ إلى أشياء مجهولة. تراقبهم "نعم" بعد ذلك من نافذة بيتها المواجه لبيت "كريستال" يدخلون ويخرجون ويأكلون ويجولون نصف عرايا أمام باب البيت، ثم ينامون أينما وجدوا مكانًا لذلك، أمام البيت أو في صندوق الشاحنة الصغيرة بجوار البيت الذي تتكدس

أمامه قطع الأثاث والملابس القديمة، تلك النُّفايات التي تُجمع ثم تُرسلُ كل عدة أسابيع في شاحنة باتجاه الجنوب، تعود الشاحنة بعد ذلك محملة ببعض الأطعمة المحلية كالمخللات، وعُلب الفاصوليا السوداء، ومساحيق التنظيف، وبعض البشر الذين لا يعرف أحد كيف يتم تهريبهم عبر نقاط التفتيش والحدود المغلقة.

من شاحنة الجنوب تسلل "أحمد الوكيل" ذات مرة، وحيدًا ونحيفًا ومثقلًا برائحة الغبار والشوارع التي تمزق فيها حذاؤه، يقضي اليوم جالسًا مثل غيره أمام بيت "كريستال" منتظرًا الفرج، وحين تفرغ سجائره يتمشى في الحي قليلًا ثم يعود جالبًا علبة جديدة ومشروبًا محليًّا ثم يجلس كما كان، مواصلًا تدخينه بصمت، متبادلًا كلمات قليلة مع مَنْ حوله، غارقًا معظم الوقت في عوالمه التي لا يدركها غيره. عَبْرَ نافذتها بدأت "نعم" في مراقبة "أحمد الوكيل"، ومع الوقت نصبت شراكها بدأبٍ وأناةٍ حوله.

***

(2)

حديقة الأرواح

تطلُّ "الشمس المشرقة" من الجهة الشرقية على ثلاثة تكوينات جبلية صخرية منحوتة بأشكالٍ يصعُب التكهُّن بحقيقتها، يطلقون عليها "أشباح الأخوات الثلاث"، يعتقد المدققون في تلك الأشكال الصخرية البازلتية المتجاورة أنها تعكس في الليالي القمرية ثلاثة وجوه بشرية متشابهة لثلاث عجائز يتربعن بحكمة فوق التلال، ويحتضنَّ بتلك التجاويف والتضاريس ذلك الفضاء الصحراوي المحيط بها.

يمكن لتلك المرتفعات الصخرية أن تعكس ما يشتهي العابرون تخيُّله، ولقد اشتهى السكان الأصليون لتلك الأرض رؤية تلك المنحوتات البازلتية بوصفها أجسادًا أنثوية وردية وقانية وعملاقة ومخيفة، واعتقد البعض بقُدسيَّتها والبعض بخصوبتها؛ لأن الأمطار الصيفية تنزلق من بين ممراتها وتغمر الهضاب الصغيرة تحت أقدامها لتشكل مروجًا عُشبية من النباتات

الصحراوية، التي تبدو من بعيد فقط جميلة ومبهجة.

في تلك الهضاب تنمو أشجار المسكيت والصَّفْصاف الصحراوي والسنط والنباتات الشوكية، وتتضخم أشجار الصبَّار وتتعدد أشكالها وتزهر بتلك الأزهار ذات الألوان الأرجوانية التي تجتذب ضحاياها من الكائنات.

تحت أقدام الشقيقات الثلاث وعلى واحدة من تلك الربوات العشبية تنام مقابر "الشمس المشرقة" والتي يطلقون عليها "حديقة الأرواح"، انتثرت القبور على الربوة بلا سياج، فأصبحت المقبرة ساحة مفتوحة تتفتح فيها النباتات الشوكية والصبَّار والأشجار العُشبية وتحتضن تلك الشواهد الصغيرة، والقبور التي يحرص أصحابها على تجميلها بالأزهار البلاستيكية الرخيصة والصلبان، والحجارة الملونة التي نُقش عليها أسماء الموتى، تنام المقابر متجاورة لا يكترث أهلها بالهُوِيَّات التي انحدروا منها، تتراصُّ القبور إلى جانب بعضها متساوية وعارية وفقيرة وسط نباتات الصبار العملاقة.

في "حديقة الأرواح" يتسكع المتسللون الجُدد بحثًا عن مساحة ظليلة حول تلك المباني الخدمية الملحقة بالمقبرة، يجلسون تحت ظلال تلك الأشجار الصحراوية العملاقة ويفترشون مساءً تلك الممرات العُشبية وينامون.

في "حديقة الأرواح" كان "أحمد الوكيل" يجول باحثًا كغيره عن مأوى حين عثر على المصلى الذي خُصِّصَ كوحدةٍ خدميةٍ ملحقةٍ بالمقبرة لهؤلاء الذين يحرصون على الدفن وفقًا لطقوس الشريعة الإسلامية، ثم أُضيف إليه مساحة صغيرة لصلاة الجنازة، زودها بعض المؤمنين بالمصاحف وسجاجيد

الصلاة وقَنانِيِّ المسك والبَخُور والأكفان والملاحف لتغسيل وتكفين الموتى، ثم أصبح مسجدًا يقصده البعض للصلاة.

في ذلك المصلى قابل "أحمد الوكيل" الرجل الذي سيصبح صديقه الوحيد في تلك البلاد، الإمام "أبا عبد القادر"، الذي كرَّس حياته للقيام بواجباته الشرعية في رحلة تكريم الإنسان، من هيئته كان يمكن التكهن بأن الإمام ينحدر من سلالة باكستانية أو ماليزية، أو غيرها من تلك البلاد التي يرتدي أبناؤها قميصًا فضفاضًا طويلًا وصدريةً وصندلًا من السيور.

يجلس "أبوعبد القادر" إلى مكتبه معظم الأيام، مُسبِّحًا ومرددًا أوراده، مبتسمًا بلحيته البيضاء، ووجهه الأسمر الذي لوحته الشمس المشرقة سنين، فتكاثفت على حافته التجاعيد.

كان في مظهر "أبي عبد القادر" ما يوحي بالحكمة والنظافة والدقة، قال له إنه أستاذٌ للشريعة، صدقه "أحمد الوكيل" بينما تشكَّك الآخرون في ذلك، ربما لأن كل سكان "الشمس المشرقة" يكذبون بشأن ماضيهم الذي هربوا منه، كما أن كثيرًا من الوافدين أيضًا يدَّعون أنهم حصلوا على الشهادات العليا في بلادهم، ثم ينسون تلك الأكاذيب الصغيرة بعد أن يكتشفوا أنها لا تقدم ولا تؤخر في تحديد هوياتهم المحتملة.

"أبوعبد القادر" كان يكرر مثلًا أنه يحمل درجة الدكتوراه في الفقه والدراسات القرآنية، وأنه كان ذات يوم أستاذًا للشريعة في جامعة الفاروق الإسلامية، وأنه حفظ القرآن في شبابه لكنه نسيه.

لم تكن تلك الحقائق مهمة لوظيفته كإمام، فكل ما كُلف به كان مجرد

إقامة صلاة الجنائز، وبعض الخبرة بطقوس الغُسْل والتكفين وأداء عملية تكريم الموتى، وقد قام بذلك بالقدر الكافي من الرصانة والورع.

كان "أبوعبد القادر" يقف طويلًا، ويبكي كثيرًا، حتى تنفطر قلوب المشيعين من آلام الوقوف تحت سياط الشمس حتى تنتهي المراسم، لكن ذلك الإخلاص هو ما يميزه كرجل دين يتفانى في طقوس تسليم الروح إلى بارئها.

يتقاضى "أبوعبد القادر" راتبه من صندوق التبرعات التي تُجْمَع لدفن الموتى، تشارك في تلك التبرعات بعض المؤسسات الخيرية؛ لأن معظم المهاجرين يموتون فجأة، وغالبًا لا يجدون لهم أُسرًا تتكفل بمصروفات الدفن أو الجنازات. كانت تلك التبرعات بالطبع غير كافية لراتبه، لأن أعداد المتبرعين ليست كبيرة، ومناسبات الدفن وما يتبعه قليلة، لكنه استطاع أن يتكسَّب بطرق شرعية أخرى، فقد كان يوفر مثلًا أجرة البيت بالعيش كليًّا في دار تكريم الموتى، يكوم حوائجه في غرفة الغسل، بجانب الطاولة التي يُسجي عليها جسد الميت، تلك الغرفة المعبأة بالورد البلاستيكيّ وقطع الصابون وآنية البخور وأثواب للتكفين وبعض القطن ومستلزمات أخرى لتجهيز الجسد. وينام في غرفة السجَّاد الأخضر التي خُصصت للصلاة على الميت.

يعيش وينام "أبوعبد القادر" في هذا الحيز الضيق، تحيط به المقابر من كل جهة، ينام معتقدًا أن تلك المقبرة أجمل المشاهد التي يمكن أن تراها في "الشمس المشرقة".

اعتاد "أحمد الوكيل" منذ وصل إلى تلك الأرض أن يطرق بابه لصلاة الجماعة، وينام في أحد أركان المصلى إذا سمح له الإمام بذلك.

بعد أن توطدت تلك الصداقة، صار "الوكيل" يساعده أحيانًا في إعداد الوجبات الحلال وتعبئتها، ويرافقه وسط المطبخ الذي يفوح برائحة الأرز والخضراوات والكاري والفُلْفل الحار، وسندويتشات الفلافل، التي يغلفها ثم يرافقه بعد ذلك إلى الرصيف الذي يتجمع عليه عمال اليومية، هناك يجد الإمام بعض زبائنه في انتظاره.

يمارس "أبوعبد القادر" إلى جانب ذلك الكثير من الأعمال التطوعية لتأمين احتياجاته، فإلى جانب الطعام الحلال، يقوم بالتصوير الفني متعدد الأغراض، حيث يحتاج البعض إرسال صورهم إلى عائلاتهم بخلفيات ومؤثرات محددة، مؤثرات بصرية تؤكد نجاحهم ونبوغهم، صور تؤكد أن الحظ رافقهم وأنهم قد حصلوا على ما طمحوا إليه في تلك البلاد، بعضهم يود إرسال صورة زوجته وأطفاله وهم يطفحون بالسعادة في حقل من الورد، وبعضهم يريد فقط أن يلتقط صوره من خلف هذا المكتب وهو يدخن مُدَّعيًا الثراء الفاحش، يجيء زبائنه مستعدين للصور، ثم يتركون لأبي عبد القادر صنع الديكورات اللازمة والمقنعة لخلفيات تلك الصور.

تصلح "حديقة الأرواح" بتدرُّجاتها اللونية وأشجارها وأزهارها الصحراوية منظرًا طبيعيًّا يعكس طبيعة تلك البلاد؛ بخاصة إذا التقطت الصور من بعيد ومن زوايا تجعل كشف حقيقتها مستحيلًا؛ تظهر المقبرة في عدسة "أبي عبد القادر" باعتبارها حقلًا من الأزهار والأشجار التي

تحتضنها الجبال، كان الرجل باختصار يستطيع أن يخلق المؤثرات البصرية المناسبة لمونتاج الصور المطلوبة، من خلف مكتبه الأنيق في غرفة تكريم الموتى، كان يلتقط صور الأطباء، ورجال الأعمال، والأزواج السعداء، والأبناء النجباء.

يمارس "أبوعبد القادر" مهمته في تحقيق الأمنيات بدأبٍ وسريةٍ وتفهُّم، مثلما يكفن موتاه بأناةٍ ويرسلهم إلى مأواهم الأخير بالاحترام اللائق.

عاش "أبوعبد القادر" في "الشمس المشرقة" محققًا آمال رعيته، راضيًا وقانعًا بما لديه، يعتقد أنه يقوم بأعمال جليلة لجاليته الصغيرة، مثل الذبح الشرعي والطعام الحلال وطقوس عقد القِرَان؛ أي إضفاء الصبغة الشرعية على عقود الزواج والطلاق وبالطبع كانت مهمته الكبرى إعادة الأجساد إلى أمها الأرض، والأرواح إلى السماء على شريعة الإسلام؛ أي أنه بطريقةٍ ما يُكسِب تلك الطقوس البشرية الهيبة الدينية التي تستحقها.

***

في النهار يخرج "أحمد الوكيل" جائلًا في أزقَّة "الشمس المشرقة" باحثًا عن رزقه، يسير مبتسمًا لتتسع له تلك الأرض وتقبل بوجوده، يبتسم حينما ينظر إليه العابرون بتلك النظرة التي هي خليط من احتقار وتعالٍ، أو حين يتجاهلون وجوده بحياد كأنه مجرد سحابة من بؤس وانحطاط، يدرك أنه مجرد عابر، حقيبته الصغيرة التي يحملها على ظهره تعطيه ملامح صبي هارب من مدرسته، أو متسلل جديد وربما سارق محتمل.

يخبئ في الحقيبة كل ما يمتلك؛ وثائق الدخول، شهادة ميلاده، إقامته غير الدائمة، أختام السفن ومحطات التوقف والعبور، تذاكر القطارات التي سلكت به سهول هذه الأرض. في الحقيبة أيضًا بعض المستلزمات الأكثر حكمةً مثل بعض المعلِّبات والأدوية يخفي فيها قلقه وخوفه، ويتوسَّدها في الليل كأنيسٍ لوحدته.

على أرصفة العمال اليوميين يتجول "أحمد الوكيل" بتلك الهيئة الرَّثَّة سائلًا عن الطريق إلى محطة الوقود، ممسكًا ورقة ما وينطق بكلمات غير مفهومة، يحاول أن يشرح بيديه كيف ضل الطريق إليها، غالبًا لن يدله أحد على المحطة التي يتجمع حولها المتسللون، فمن هيئته سيعرفون أنه متطفل جديد سيجد مع الوقت طريقه إليها وإلى غيرها. معظم شعب "الشمس المشرقة" يركض خلف لقمة العيش ولا يتلفتون حولهم، بل يحاول أكثرهم تجنُّب الاصطدام والتعثر بالغرباء، أما المتسكعون بلا عمل فسينظرون إليه بشماتة؛ لأنه يُذكِّرهم ببلاهتهم حين قدموا، بأحلامهم الكبيرة التي أصبحت تثير السخرية، هؤلاء سيتعمدون تضليله إذا سألهم عن أي شيء.

يتلفت "أحمد الوكيل" حوله، ثم يلقي بطاقة الهاتف التي اعتاد أن يحملها دائمًا في يده، رغم أن البطاقة والهواتف صارت عديمة القيمة والفائدة، فالذين يعرفهم ويفكر في الاتصال بهم بعيدون، ولن يستطيعوا مساعدته، والذين يحومون حوله لا يكترثون بوجوده في الحقيقة، لكنه يبتسم، فتلك هي الأداة الوحيدة التي يتواصل بها، يبتسم ببلاهة وتذلُّل معتقدًا أن ذلك قد يجعل الآخرين أكثر رضاءً عن أنفسهم، فهم بالتأكيد أفضل منه حالًا،

يستطيعون التجول والبحث عن عمل بكلمات مفهومة، ويجدون لأنفسهم موقعًا ظليلًا تحت سياط هذه الشمس الشيطانية، يستطيعون أن يطلقوا على مساكن الرُّحَّل والأكواخ الخشبية الصغيرة بيوتًا، وعلى تلك الأرض التي تلفظهم وطنًا.

يبتسم لعربات الشرطة التي تجول في الشوارع كي يبدد تكهناتهم المسبقة بأنه مشرد، أو مهاجر غير شرعي، أو لص محتمل يتلفت بعينيه بحثًا عن شيء ليسطو عليه، يبتسم لعاملة الوجبات السريعة التي تنتظر منه أكثر من تلك الابتسامة، ولعاملة السوبر ماركت التي تتفحَّصه بضراوة لتتأكد من أنه لم يدسَّ شيئًا في الحقيبة التي تحني ظهره، يبتسم حين يشتمه البعض لأنه بتلك الابتسامة البلهاء يُحبط قدرتهم على إذلاله. يتمسك "أحمد الوكيل" بقدرته على ادِّعاء عدم الفهم؛ ليؤكد للغرباء بأنه يمتلك كل مظاهر البلاهة التي تستدعي بعض التعاطف.

يبتسم حين يقف على رصيف محطة الوقود أخيرًا، منتظرًا مَن يختاره ليقوم بتلك المهام العاجلة، غسيل سيارة غارزة في الوحل، تسليك خزَّان الخراء في مزرعةٍ ما، أو قص بعض أغصان الأشجار العالقة أمام بيت آخر تلك هي المهن التي تدرَّب عليها، يبتسم محاولًا أن يجعل ابتسامته محايدة، لا تحمل أي دلالة سلبية كاللامبالاة أو السخرية أو الحنق، ابتسامة تسمح للآخرين باستغلاله، وتكفل لهم متعة الاعتقاد بأنهم أذكى منه، محاولًا بذلك تفادي أي مواجهة محتملة. كان يعرف أن العمال الواقفين بجواره على الرصيف مجرد متسللين، مجرد حشرات طفيلية مثله، لكنهم حشرات مدربة وأكبر حجمًا ومتعطشة لإثبات قدراتها على الإيذاء.

يحرص "أحمد الوكيل" على أن يضع لابتسامته نكهة خاصة، يمزجها بـ"نعم سيدي وأمرك سيدتي"، يحفظ تلك الكلمات التي تُختتم بالشكر والتعبير عن الامتنان، ذلك الامتنان سلاحه الأول والأخير في مواجهة مصيره.

في المتجر الصغير تقف تلك الشابة السمراء البدينة، تشي لكنتها بأنها قادمة من إحدى الجُزر، لا تزال ملامحها تحمل أصولها التي تحاول نسيانها، البائعة التي تراقب خطواته، تلك الفتاة التي لا يعرف اسمها، تلك العاملة الواقفة خلف صندوق النقود بضجر، يدرك الآن أنها ليست وَدُودًا على الإطلاق، تستقبله كل مرة بحذر، ثم تواصل الإمعان في هيئته، وتشكِّك دائمًا في العملة الورقية التي يقدمها لها، تقلبها عدة مرات للتأكد من كونها حقيقية وليست مزيفة، ثم تلقي إليه علبة الدخان بضجر من يتخلص من فضلاته. البائعة التي تقول له بعد كل جملة يحاول النطق بها: "لا أستطيع أن أفهمك، ماذا تريد؟، لا تضع يدك على الزجاج،.. هذه العملة مهترئة جدًّا،.. أرجوك لا تتحدث بيديك،.. لا أفهم ماذا تريد بالضبط؟"، بالرغم من أن كل ما يريد هو الشيء ذاته، الطلب الذي لا يتغير، مجرد علبة دخان، لكن البائعة ربما تتقزز من رائحة العرق في ثيابه، وتتبرم من نبرة صوته، ربما لأنه لا يضغط جيدًا على مخارج الحروف مثلها، فتخرج كلماته كلها بلا معالم، تحاول البائعة التي تكره وجوده أن تُظهر أحيانًا تعاطفها في مساعدته، تُكَرِّر ما قاله لكن بشكل صحيح وببطء كي يعرف أين تكمن أخطاؤه، وتطلب منه تأكيد الحروف "أنت" أنت تريد علبة دخان.. دخان، دخان. أليس كذلك؟، تُذكِّره بكل مراكز الاستجواب التي عبر بها، يحاول أن يُنهي الاستجواب باستعمال يديه، يشير بإصبعه إلى علب

الدخان المصفوفة خلفها، محددًا النوع المطلوب لكنها تتراجع إلى الخلف، مُظهرةً قدرتها على إهانته ويعلو صوتها قائلًا: "لا تستعمل أصابعك بهذه الطريقة أنا لست صمَّاء.. إذا أردت أن تعيش في هذا البلد فتعلم بعض اللياقة"، "هل تريد الطويلة أم القصيرة، الأحمر أم الأبيض؟ لا تستعمل يديك هذه المرة"، يبتسم ثم يرد: "سجائر حمراء" تكمل البائعة بمزيد من الانزعاج ومزيد من الرغبة في إذلاله: ".. يجب أن تعرف ماذا تريد قبل أن تسألني.. فهمت؟، يجب أن تكون محددًا... أنا لست مستشارتك في أنواع السجائر.. فهمت؟". يهز رأسه بأدب، مستسلمًا لتلك الحقيقة، إنه لا يرقى في نظرها إلى مرتبة هؤلاء الذين سبقوه في الصف، الزبائن الذين يطلبون بثقة، ويتركون خلفهم تلك العملات الصغيرة بلا اكتراث، ويتجاهلونها بتَعمُّد. الزبائن الذين لا تستطيع تلك البائعة ممارسة مهارات التجاهل والتعالي والتشكُّك معهم، تصبح أكثر رقةً وتهذيبًا معهم، وتؤكد لهم في النهاية أنها في خدمتهم. يراقبها "أحمد الوكيل" وهي تفعل ذلك فيبتسم بأسف، ويخرج مُنكِّسًا رأسه، وبمرور الوقت، علمته الحياة عدة مهارات أخرى إلى جانب الابتسام، مثل قلة الكلام؛ لأن كلامه غير مفهوم، ويحتاج إلى وقت كي يختار المفردات الصحيحة، تعلم الصمت والحياد وحفظ العبارات القصيرة، ثم نطقها بسرعة، دفعة واحدة: "علبة سجائر الجمل أحمر قصير يا سيدتي".

بعد وقتٍ أطول، تعلم "أحمد الوكيل" استخدام البطاقات الإلكترونية بدلًا من النقود، تعلم بالتدريج رفع رأسه إلى الكاميرات التي تسجل لحظة

دخوله وخروجه، تعلم التجاهل، والاحتفاظ بابتسامته لنفسه؛ لأنها وحدها صارت كل ما تبقَّى له لمواجهة الوحدة.

***

طرق "أحمد الوكيل" في البداية باب "وكالة مساعدة المتعطِّلين" للبحث عن عمل، لكن الوكالة لم تكن سوى مجرد مكتب لقيد المتعطِّلين الجُدد، وفي السنوات الأخيرة تقلصت حصة المساعدات التي كانت بعض الجهات الأهلية الخيرية والكنائس حريصة على تخصيصها، بعد أن اكتشفوا أن هؤلاء المتسللين لم يعرفوا أبدًا طريقًا إلى الرَّب، وانشغل سكان "الجنة الأبديَّة"، وهم من طبقة المحسنين، بالحديث عن ارتفاع منسوب الجرائم والعنف في أحياء المهاجرين، فتقلصت المعونات وأصبحت مجرد كميات قليلة من المعلَّبات والأطعمة المحفوظة، أو بعض الأدوية منتهية الصلاحية وبعض قطَع الملابس المستعملة، رغم ذلك استمر طلاب المعونة من العمال يقفون في الصفوف؛ أملًا في الحصول على ما تيسر من تلك المساعدات.

وقف "أحمد الوكيل" في الصفوف محنيًا ومُتربًا ومؤرَّقًا بمخاوفه، لم يطلب أي مساعدة في ملء الأوراق كغيره من العمال الذين جاءوا قبله أو بعده، ومعظمهم لا يستطيع القراءة أو الكتابة، كان حريصًا على إثبات قدرته على تعبئة الطلب، لكنه لم يستطع ملء فراغات السؤال الذي يحدد قدراته في العمل، تردد قليلًا ثم نظر إلى الورقة في محاولةٍ لتذكُّر تلك المهارات التي تؤهله لعملٍ ما. بعد مراجعة الطلب تم تصنيف "أحمد الوكيل" باعتباره ضعيف القدرات، وعاجزًا عن التواصل المفهوم، وباستثناء ما ذكره عن

رحلاته البرية إلى العراق والأردن وليبيا فليس في سجله أي جرائم سوى الدخول غير الشرعي، وواقعة احتجازه في إحدى تلك البلاد بتهمة الإهمال؛ لأنه تسبب في حريق بعض المخازن التي كان يحرسها، وتأكد بعد المعاينة أن الحارس "أحمد الوكيل" قد ألقى أعقاب إحدى سجائره قريبًا من مواد مشتعلة وتسبب بإهماله في خسارة مادية لا يمكن تعويضها، ورُحِّلَ من عدة بلدان أخرى لعدم قدرته على سداد ديونه.

لا يحب "أحمد الوكيل" أن يتحدث مع غيره من العمال عن ماضيه، وبخلاف رحلته في التسلل إلى أرض "الشمس المشرقة" والتي يصف كل محطاتها بفخر فإن ما سبق تلك الرحلة في حياته يبدو له غائمًا ومفقودًا، وهي تفاصيل لا يهتم ولا يرغب أيضًا في تذكُّرها. فلم يسبق له الزواج أو الإنجاب، ولم يملك غير حقيبته التي يحملها على ظهره متنقلًا، وبخلاف وقوفه في صفوف العمالة اليومية، كان من الواضح فشله في الحصول على عمل يومي يغطي به نفقاته؛ لذلك فقد بدأ يملُّ الانتظار في صفوف الترقُّب مع غيره من العمال، صار يمضي كثيرًا من أيامه مع "أبي حامد" يؤدي صلواته ثم يتفقد المقابر بخاصة في أيام الآحاد؛ أملًا في أن يجد بعض الزوار الذين يطلبون منه تقليم بعض الأزهار أو رعاية الأشجار الشوكية التي تحرس الشواهد.

مثل كلبٍ أليف

ظلَّ "أحمد الوكيل" أو غريب الأطوار يرافق شيخه في المقبرة حينًا، أو يجلس على رصيف العمال اليوميين، أو يقصد نقطة التجمُّع العمالي أمام بيت "كريستال" وزوجها المقاول الصغير؛ طمعًا في الحصول على عملٍ ما من الأعمال اليومية.

من أمام بيت "كريستال" بدأت "نعم الخباز" تراقبه كما تراقب فرائسها، ثم قررت بعد تردد الاقتراب منه، حملت ذات مساء بعض الطعام وجلست إلى جواره. تعرف "نعم" كيف تصل إلى غاياتها وكيف تنقضُّ على فرائسها وتمتصُّ رحيقها، تقتحم بحضورها الفوضوي مساحات الصمت وتستطيع أن تتودد لبعض البشر حين تقرر ذلك، وغالبًا ما تقرر ذلك حين يكون لديها دافع، يمكن توصيفها في تلك الحالات النادرة بأنها سيدة مسكينة، وأنها قليلة الحظ وأنها تستحق بعض التعاطف. ترتدي "نعم" هذا القناع الذي يجلب التعاطف ثم تجلس إلى جوار "أحمد الوكيل" متوددةً، في محاولةٍ لاستخدام بعض التعبيرات التي قد تفتح قلبه، تقول: "ازيَّك يا أخويا

إن شالله مجبور؟ ربنا يفتح لك أبواب رزقه". يحب "أحمد الوكيل" سماع صوتها؛ لأنها تُذكِّره بلغته ورائحة الكيروسين والجرو الأليف، يبتسم بخجل، لكنه يظل رغم تلك الابتسامة ساهمًا وغائبًا وغير متحمسٍ على الرد عن أسئلتها الكثيرة المفعمة بالفضول.

كان "أحمد الوكيل" أيضًا كَسُولًا وضعيفًا، وقليلًا ما استطاع العمل ليومٍ أو اثنين يعود بعدها إلى افتراش الأرصفة بعينين زائغتين؛ ظنت "نعم" أنه فقد قدرته على التفكير المتوازن من رحلته تحت تلك الشمس الحارقة لكنه سيتعافى بالضرورة بعد فترة، وعلى هذا الأمل تعلقت به مثل عقرب صغيرة وجدت شقًّا في سقيفة بيت متهالك، فأفرخت وتكاثرت واستوطنت تلك الفجوات التي وجدتها فارغة في جنباته.

قالت له: "إن الله أراد شيئًا من هبوطك بجوارنا".

هز "أحمد الوكيل" رأسه ونفخ بقايا سيجارته...

ولم يرد.

قالت: "أنت والله ابن حلال، لا تُثقل على روحك وإن شاء الله ربنا سيعوضك عن قريب ويبعث لك اللي يؤنس غربتك".

لم يفهم "أحمد الوكيل" إشاراتها لقدَر الله الذي يجمع الغرباء؛ لأنه كان سارحًا أيضًا في أشياء لم تعرفها.

قالت إنها وحيدة في تلك الأرض وأنها عانت كثيرًا وتفهم ما مر به.

نظر إلى وجه "نعم الخباز" بملامحها الكئيبة التي تشعُّ بؤسًا يعرفه وعاشره

طوال حياته، وأحب حروق وجهها الغائرة التي تُذكِّره برائحة الكيروسين التي رافقت طفولته.

وحين كسر الصمت وبدأ بعد عدة أسابيع في الجلوس إلى جانبها والفضفضة عن مشقة أيامه والحكي عن تلك البلاد البعيدة والقرى الصغيرة التي تركها خلفه، يحكي عن طفولته وأم حنان وأمه، أيقنت "نعم" أن قلبه قد سقط في تلك الهوَّة التي تُسمَّى البوح والفضفضة، وأنه قادم لا محالة إلى حيث أعدت العدة لاستقباله.

قال "أحمد الوكيل" ليبرر لها شغفه برائحة المقابر، إن الموت أيقظه مراتٍ عديدةً في صباه، كان الموت يأتي كجَرْوٍ صغيرٍ يتحسس أنفه بلعابه فيستيقظ، لكنه يظل مختبئًا في فراشه؛ حيث يعرف أنه سيواجه كل مرة فَقْدًا جديدًا، في المرة الأولى دفن أباه ثم زرع صبَّارة صغيرة بجانب القبر، ثم حمل الإبريق الفَخَّار وصار يعرف الطريق إلى المقابر، يسقي الصبار ويقرأ ما تيسر من السور موجبات الرحمة ثم يعود.

اكتشف "أحمد الوكيل" في طقوس الحزن ما يلائم مزاجه، صار مشهد السير خلف الجنازات ورائحة القبور وهي تفتح أبوابها، ولحظات الترمُّل والانفجارات بالبكاء طقسًا محببًا إليه، يقترب من تلك الكتل البشرية السوداء والتي تتجمع مساء كل خميس في المقابر، ويشرد خلف صوت النائحات في طقوس زيارة الموتى:

"بلادك فين يا غريب؟ قال كحيل العين.. قبري..

بلادك فين يا حبيب؟ قلت أنا قلبي".

يحب "أحمد الوكيل" ذلك النُّوَاح الذي تردده العجائز، يجلس إلى جوار زائرات المقابر اللاتي صرن يعرفنه وينادينه باسمه، يرتل "ابن الوكيل" بعض الآيات التي حفظها ويدعو للميِّت بالمغفرة فيغدقن عليه بتلك الهِبَات القليلة، يتغنى مع صوت حزانى الفَقْد، وحين يحل الظلام يمضي تاركًا الجرو الصغير الذي يراه يركض بين القُبَب الصغيرة التي يدفن تحتها الموتى، يراه أيضًا في أحلامه فيعرف أن ميتًا جديدًا سوف يُدفن.

telegram @
yasmeenbook

telegram @
yasmeenbook

شَعْر الجِنيَّة

قالت الجارة القريبة:

- يا بْن الوكيل أمك فقدت عقلها يا بْنِي.. اربطها يا بْنِي ولَّا اغلق عليها الباب.

توقف قليلًا ثم نفض يديه بلا مبالاةٍ وقال:

- أربطها فين يا عمَّة؟.. أمي مثل الجاموسة الحارنة.

كانت أمه تجلس أمام عتبة الغرفة التي فاحت منها رائحة الكاز، ساندةً عَجُزها الضخم على الجدار وبين وَرِكيْها مجدول السعف والليف، الذي صارت تقضي نهارها في محاولة جدله وخياطته ليصبح على هيئة حاويات ومقاطف صغيرة أملًا في أن يشتريها أحد.

قصيرة أقصر مَنْ رأى من النساء، وسمراء تلك السُّمْرة الطينية التي يحبها، جسدها الممتلئ ينفرط على الأرض بضخامة، ثديان ينسكبان على وركيها ومؤخَّرة ضخمة لا تسمح لها بالتقرفص أو التربُّع مثل الأخريات.

تمد ساقيها القصيرتين وتتكوم مثل كتلة من اللحم، لكنها مع ضخامة جسدها كانت تملك عينين عسليتين واسعتين، مخيفتين، تشعُّ منهما تلك الغرابة التي كانت مصدرًا من مصادر التخوُّف منها. كانت تملك أيضًا قدرة على الصمت المطلق، الصمت الذي يستمر لأيام وحين تفتح فمها فلا بُدَّ أن يكون لأسبابٍ قاهرة.. كالمغالطة في عَدِّ القروش أو المفاصلة في ثمن البضاعة، كانت تفاجئ الذين يلقون في حجرها بقرش قائلة: "خمسة أبيض".. تقولها بحدَّة وثبات وهي تفتح عينيها المخيفتين، فتهرول البنات وينعتنها بذلك اللقب "اللهم احفظنا"..

لم يلحظ "أحمد الوكيل" تغيرًا يُذكر في صورة أمه، التي كانت معظم الوقت صامتة، وكان أبوه وسيمًا رغم نحوله.. يتحدث كثيرًا، يضحك ويدخن الجوزة ويقول له: "أمك عاملة زي الرحاية يا ولد.. تطحن الحبة العاجفة"، تبتسم الأم بخَفَر لكل كلمة يقولها، فتصبح أجمل حين تكشف أسنانها البيضاء وأنفها المنحوت وملامحها القروية البارزة كنقوش المقابر، عندما كانت أخف وزنًا كانت تشارك أباه الأعمال الأكثر قسوة، كعزق الأرض وتحميل الطين وتقليم النخيل.

بعد دفنه انفرط جسدها وانتفخت قدماها، فقال البعض إن داء زوجها قد انتقل إليها، لكنها لم تستسقِ ولم ينتفخ بطنها، تورمت ساقاها وأصبحتا ضخمتين مثل سيقان الأفيال، وقلَّ كلامها أكثر وانشغلت بتجارتها في الكاز التي لا تدرُّ شيئًا، لكنها تجعلها مشغولة تمامًا بحركة المارِّين أمام بابها المفتوح، منشغلة بكمية الكاز في الوعاء البلاستيكي (الجركن) الذي تملؤه من السوق إلى السوق وتبيعه لتعمير لمبات الكيروسين وكانت الكهرباء

ما زالت بعيدة عن تلك النجوع. تبيع أيضًا حبات النَّعْناع التي تُحكم عليها الغطاء في البرطمان الزجاجي، وتبيع الملح الخشن الذي تكيله بالحفنة، وتسلي نفسها بعدِّ أمشاط الكبريت أو علب "الدخان المعسِّل" الذي يكثر عليه الطلب ليلًا، وحين يخفت البيع والشراء تنشغل ببعض الأعمال التي لا تتطلب منها الحركة، مثل نسج فتائل لمبات الكاز، ومقاطف السعف.

قال أحد الرجال بعد صلاة الجمعة وهو يربِّت بإشفاق على كتفه: "أمك تفعل أشياء غريبة يا بْن الوكيل.. اربطها يا بْنِي، واغلق عليكم باب بيتكم".

فكر "أحمد الوكيل" في ذلك.. كانت تستطيع فتح كل الأبواب، تستطيع أن تخلع الباب إذا لم يفتح لها مرغمًا، لن يستطيع مغالبة جسدها الضخم في غضبها، تستطيع أن تشعل الكبريت في چركن الكاز وتحول البيوت الصغيرة المتراصَّة حولهم كلها إلى كومة رماد.

وضع رأسه في الأرض وقال: "يا عم.. أمي مثل الجاموسة الحارنة لا يقدر عليها إلا الله".

في البيت كانت تلك المرأة المريضة لا تزال هي أمه؛ بخاصة حين تنظر إليه تلك النظرة المسالمة التي توجعه، ينظر إليها وهي ترتق ثيابه، تغني بكائياتها الحزينة بشغف، ترشُّ الأرض الترابية بالماء بعد كنسها، يراقبها وهي تجمع جذور البصل وأوراق الخضروات التي تنبت على أطراف المصارف والقنوات وتخزنها للأيام القادمة، تلضم حبَّات البامية والبقول في عقود تعلقها على أطراف حبل الغسيل، تجفف ما يمكن تجفيفه لفصل

الصقيع، تجلب الماء من الصنابير التي رشقتها البلدة على مفارق القرى، تدَّخر له تلقيمة الشاي التي تتوافر في خزانتها من حينٍ إلى آخر وتعامله باعتباره رجل البيت رغم أنه ما زال ولدًا صغيرًا، تضم رأسه إلى صدرها حين يبكي أو حين يتحدث كثيرًا ولا تستطيع فهمه، تُسدل عليه الحِرام الصوفي الذي تركه أبوه خلفه، تفعل الأشياء التي تفعلها كل الأمهات بدأب، ويتساءل بينه وبين نفسه كيف تشكل تلك المرأة المكلومة خطرًا على أحد؟، لكنه كان يعرف أيضًا أنها تفتح باب البيت في الليل وتخرج عارية تمامًا، تسير هكذا بين أحراش الحقول المجاورة، تعوي حولها الكلاب، يسقط الندى، يراها البعض من فوق أسطح البيوت تركض.. تسير باتجاه المقابر ثم تعود مثلما ذهبت، تعود أحيانًا ملطخة بالطين وعلى ساقيها تطفو بعض الخدوش والجروح الصغيرة، تجلس على عتبة الباب الذي خرجت منه تلبس ثيابها ثم تتكوَّم في فرشتها ناعسة.

كان "أحمد الوكيل" آنذاك مشغولًا برجولته التي يهددها ذلك الخزي، كيف يحوم المتلصصون حول جسدها الضخم وثدييها المتدليين على سُرَّتها، كيف يواجه تلك الابتسامة التي تقول له: "يا بْن الوكيل لقد رأينا عورة أمك".

ذات يوم جلست الجارة الطيبة على عتبة دكانها الذي تبيع فيه الكاز وقالت لها:

- يا أمُّ الوكيل الله يستر عليكِ.. الحزن مقسوم ولا داعي لشق ثوبك يا بنت الناس.. الستيرة واجب.

نظرت أمه إلى الجارة باستنكار وهي تكيل في لترات الكاز، ثم ابتسمت تلك الابتسامة البلهاء المسالمة والمستفسرة عما يُشاع حولها، حاول غيرها من الجارات أيضًا الحديث إليها، لكن لم ينجح أحد في جعلها تصدق ما يقولون عن أنها تلك المرأة التي تركض في الشوارع عارية ليلًا.

قال له بعض الرجال المتكئين على المصاطب الترابية في الأزقَّة القريبة من بيته:

- يا ولد، أمك (اللهُمّ احفظنا) يا بُنِي.. كيف تتركها تتجول في تلك الشوارع بتلك الحالة؟.

فكر "أحمد الوكيل" قليلًا وقال:

- وماذا أفعل وهي مثل الجاموسة الحَرُون ترعى في أرض الله؟.

فكر أيضًا في سكب الكاز عليها، في سد الباب بالطين كي تُدفن حية، فكر في الهرب، لكنه لم يستطع فعل أي شيء فكر فيه فاكتفى بالنوم وشد اللحاف القديم على وجهه، صار يتحاشى حضور المشهد، ينام في الليل ولا يحرك ساكنًا.

حين يسمع حركة خروجها يقرر أن ينام أكثر.. ينام حتى الموت، ينام حتى تعود أو لا تعود، أو تضيع في تلك المقابر حيث دُفن أبوه. في النهار يخرج حاملًا كتبه ويقول إنها يومًا ما ستموت من تلقاء نفسها، ولا داعي لقتل أحد.

قال الفقيه:

- فاقد العقل - (اللهُمَّ احفظنا) - مرفوع عنه القلم.. لكن العاقل الذي يتفرج على حُرُمات الناس فله جهنم وبئس المصير.

فكر البعض في بئس المصير وقرروا أن يساعدوا الولد الصغير في تقييد ساقيها وقدميها كل ليلة بحبل حتى يطلع النهار.. ورغم أنها استسلمت في المرة الأولى ومدت يديها وقدميها باستسلام مخيف وتركتهم يقيدون ساقيها، فإنها كانت هائجة تمامًا عندما فكُّوا وثاقها في اليوم التالي؛ قفزت في وجه الرجل الذي فك وثاقها، ومزقت وجهه بأظفارها وكادت تقتله لولا تدخل الآخرين.

تركوها تبكي ذلك اليوم وتخبط بقبضتَيْ يديها على الأرض وتنظر بطرف عينها إلى ولدها الذي جلس أمامها وتقول متسائلة عن سبب تقييدها بهذا الشكل:

- أنا عملت إيه يا بْنِي؟.

التفَّت حولها الجارات وتقاسمن الأسى وتبادلن كلمات الشفقة، ثم أدرن ظهورهن وخرجن من بيتها بعدما بدأ بكاؤها يتحول إلى خُوار مخيف يشبه خوار الجِمال الغاضبة.

تركت الجارات "أحمد الوكيل" يبكي بجوار أمه ويقول لها عدة مرات:

- حقك عليَّا يا أمَّه.. عمري ما ح أخلي حد يمد أيده عليك طول ما أنا حي، ولا حد يكتفك مرة ثانية.

لكنه لم يفِ بوعده، فبعد تلك الواقعة صارت تخرج أكثر ولم تعُد تكتفي

بالمقابر بل صارت تعبرها إلى بعض القرى خلفها، ولم يعُد الليل قادرًا على سترها كما كان بخاصة بعد أن صارت تشرد في الطرق البعيدة أكثر ولا تبالي كثيرًا بضوء الشمس الذي يرافق عودتها، صارت تستقبل الكلمات البذيئة بركل الحصى والخُوار وتعود إلى البيت كل مرة بجروحها، تغفو عدة أيام متعبة ثم تكرر فعلتها..

قال الفقيه وهو يحاول أن يبعد الصبية الذين يتحرشون بها: "رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا".

سأله البعض: "ما هو الإصر يا مولانا؟".

قال الفقيه: "الفضيحة".

فكر الكثيرون في عقفها تحت تلك الشجرة العجوز، اقترحوا عليه تقييدها من ساقيها ويديها مثل البهائم الجامحة، قرر البعض فعل ذلك واستشاروا الفقيه فهزَّ رأسه موافقًا.

نام "أحمد الوكيل" تلك الليلة وما بعدها وحده، دفن وجهه في الحِرام الصوفي محاولًا نسيان صوتها الذي يشق الصمت ويأتي إليه، وفي النهار جلس في دكانه ليبيع الكاز والنَّعْناع وفتيل اللمبات محاولًا نسيان تلك الشجرة، بينما تطوعت الجارات برعاية وإطعام أمه، كن يتحلقن حولها في المساء ويتبادلن الضحكات المكتومة بخاصة إذا بدأت بالتفحُّش، تنتظر العابرين لتقول الكلمات التي تُسر بها النساء في مخادعهن في أوضاع الجماع، تتوجع وتردد بسرعة كل مُسمَّيات العضو التناسلي للرجال والنساء بصوتٍ صاخب؛ يضحك الصبية الذين أصبحوا يتجمَعون حولها إذا لم يجدوا من

يراقبهم، يلقي بعضهم عليها الطوب ويُهيلون التراب، ويلكزون جسدها بالعصيّ المدببة فتتوجع أكثر وتتفوَّه بتلك الكلمات التي يتشوقون إلى سماعها، الرجال أيضًا كانوا يتعجبون من الأصوات التي تصدر من فمها، تثيرهم تلك التأوُّهات والنفخات والأوضاع الغريبة التي يتخذها جسدها، وكانوا يتندرون عليها ويعللون ذلك بأنها مسكينة، لم تشبع من زوجها قط؛ كان عليلًا وقد كتمت كل حوائجها حتى انفجرت مثل مقطورة الخراء، وقال بعضهم كيف لتلك المرأة التي عاشت شبه بكماء ونصف بلهاء أن يجول بخاطرها كل تلك الموبقات؟

انشغل "أحمد الوكيل" عن سيرة أمه وما تفعله ببيع الكاز، وعَدِّ حبَّات النعناع، وانشغل بمدرسته ونسيان الأمر برُمَّته، حاول تجاهل الشجرة والفقيه والرجال، وأصبح إذا مرَّ على مربطها تجاهل كونها في النهاية أمه، وادَّعى أنها لم تعُد تتعرف إليه ولم يعد يعرفها، فقط كان يفكر مثل غيره أن الموت رحيم وقد يجيء في الوقت المناسب، لكنه حتمًا سيعبر وسيأخذها معه ذات يوم. كان يعتقد أيضًا أن الموت يستر الجسد ويحل البشر من أوجاعهم المزمنة، ولم يحزن كثيرًا حين جاءه في المنام ذلك الجرو الصغير ولحس أنفه، قام وحمل حِرَامه ثم خرج وسار باتجاه الشجرة، لمح لون جسدها الذي صار أزرق مثل فراشات الخريف، وضع لسانها الذي تدلى في فمها وأغلقه بوشاح رأسها، نظر في عينيها المفتوحتين بدهشة فرآها تركض في حقولٍ بعيدةٍ عاريةً أيضًا، ثم صار الجرو الصغير الذي يأتيه في أحلامه يركض خلفها، أسبل أهدابها وقال لنفسه إنها صارت حُرَّة، ثم فك وثاقها وأمال رأسها على ساقيه، وضع على جسدها حرامه الصوفي وانتظر حتى

طلعت الشمس، عبر الخارجون إلى حقولهم، ثم توقف بعضهم، أحاطوا به في صمت، ثم وضعوا جسدها على المحمل لتغسيل جثتها، مشوا حوله وهو يسير خلف نعشها وقالوا بأسف: "أمك ماتت يا وكيل".. ضم "أحمد الوكيل" خطواته لتلحق بغبار النعش المحمول وقال بصوت لم يسمعه غيره: "كله يموت".

الذين ركضوا بالنعش قالوا إن تلك المرأة كانت (اللهُمَّ احفظنا) حملًا ثقيلًا في حياتها ومماتها، وحمدوا الله أن ذلك الحمل قد انزاح أخيرًا عن صدور الجميع.

في طريق عودته سمع "أحمد الوكيل" ضحكات الأشقياء من جديد: "أمك ماتت يا وكيل"، ضحكوا فكرر لهم جملته الخالدة: "كله يموت"، سمع حكايات العجائز في الحقول عن الجِنيَّات وعقوبة كشف المحارم، سمع عظات الفقيه في الصلوات عن ضرورة الرُّقَى التي تدرأ سوء الطالع، وحكمة القدَر الذي يستدرج الصبايا إلى ذلك المصير البائس، سمع أيضًا دقات قلبه، تركض كجروٍ هاربٍ من مرمى الحجارة الصغيرة التي تطارده.

تدلَّت أغصان الشجرة العجوز وتمايلت بغُنْج، ظللت الفضاء بأسى، وفاض ماء النهر وسمح لبعض الجدائل الخضراء أن تلامسه، فزع بعض العابرين من هبَّة النضرة والتورُّق في تلك العروق التي كانت شبه يابسة منذ عدة أسابيع، تأمل الفقيه جذوع الشجرة وقال مفسرًا بحرج وقد حاصره الفزع في عيون الرجال: "وأنا إيه اللي عرَّفني مالت غصونها ولا اتعدلت ولا الجن لبسها؟.. أنا كنت سليمان الحكيم...؟ الله أعلم.. يعلم السر

وما أخفى..". لكنه رغم ذلك كان يشعر مثلهم بثقل الذنب، قضى عدة أيام يرتل مُعوِّذاته، وينثر الملح ويعلق الأحجبة في ثنايا جذع الشجرة الأملس الذي تمدد وانحنى وتشكَّل على هيئة خَصْر امرأة عارية، ولم تُفلح كل الرُّقى في تفادي ذلك الشبه بين جذع الشجرة وجسد امرأة صُلبت عليه.

يعبر الرجال في طريق عودتهم من الحقول أمام جذع الشجرة ويتناقلون أنهم سمعوا صوتًا يشبه الأنين عندما مروا به، يحاول بعضهم تفادي النظر أو الالتفات إليه، لكنهم لا يتوقفون عن سؤال الفقيه: "هل أصابتنا خطيئة يا مولانا؟".

يواصل الفقيه قراءة أوراده ويفكر في الخطايا، ويقول إنه يعتقد أنهم يتوهمون ذلك الصوت، وأن "أم الوكيل" قد استراحت، واستردَّ الله وديعته، وانتهت تلك القصة.

أسرَّت له بعض الأمهات أيضًا بفزعهن من انتقام الله وأن يقعد هذا الأذى الذي أصاب "أم الوكيل" لبناتهن.

قال الفقيه مبررًا: "ليس على المضطر حرج، وأن الله أراد الستيرة لعرضها"، ثم أردف مؤكدًا: "أن (اللهم احفظنا) لا يسترها إلا القبر وأن الله أراد لها الستيرة".

قال الفقيه أيضًا ليُخرس الناس أو يُرضي ضميره: "يا بْن الوكيل.. إن الله لم يقسم لي الولد ولم يُقدِّر لك رفقة والديك، فعسى أن يبدلك الله خيرًا منهما ويعوضني بك خيرًا".

هز "أحمد الوكيل" رأسه وقال: "ونِعمَ بالله".

كان "الوكيل" يحمل إبريقه الفَخَّاريّ الأسود ويهمُّ سيرًا باتجاه نبتة الصبَّار الثانية التي زرعها على قبر أمه، مشى الفقيه إلى جانبه وهو يربِّت على كتفه، كان الفقيه قصيرًا ونحيلًا ولا يتجاوز ظهره المحنيّ طول الغلام، مشيا كظلين يتسنَّد أحدهما على الآخر باتجاه الضفة الأخرى، صعدا الرابية، أطلت المقابر، أوشكت الشمس على العبور إلى مغربها. سقى "أحمد الوكيل" صبارة أبيه وصبارة أمه، وصبارة جده وجدته، كان كل ذلك الصبار في حفرة واحدة ضمت في قبَّتها عظام كل من جمعته به صلات الدم في تلك الأرض، قال الفقيه بعد أن فرغ من قراءة أوراد الموتى: "أنا في مقام جدك الله يرحمه، كان رجلًا طيبًا، كان فلاحًا مثل أبيك، مرض وهو صغير ورحل مثل أبيك مبكرًا"، قال الفقيه ذلك بنبرة حزينة دفعت "ابن الوكيل" إلى استحضار صورة الجرو الصغير، استحضر أيضًا حياته التي قضاها حتى الآن بين الموتى والعديد ورائحة الخبز على المقابر، فكر أنه يريد أن يعيش أكثر من أبيه وجده، وشعر الفقيه بقتامة جملته وما جلبته من أسى فاستدرك قائلًا: "العمر الطويل لك يا بني.. إن الله يعطي العمر لمن يشاء ويَقدِر".

فكر "أحمد الوكيل" أنه لا يملك شيئًا وأن عطف الفقيه قد يساعده، مشيا باتجاه بيت الفقيه، قالت زوجة الفقيه وكانت صغيرة ونحيلة جدًّا أكثر نحولًا من الفقيه: "وماله.. اللي يطعمنا يطعمك يا ولدي".. لم يكن هناك الكثير من الطعام في بيت الفقيه على أية حال، لم يكن في بيته سوى بعض أرغفة الخبز، وبعض الجبن من آنٍ إلى آخر وكان ذلك هو أقصى ما يستطيع الفقيه التكفل به، فعلى الرغم من أن الفقيه هو أيضًا مقرئ القرية، ويَؤمُّ الجنازات، ويُوثِّق الزيجات، ويجمع زكاة العيدين، ويُحيي بعض الموالد

بالأذكار، فإن تلك المهمات أو تلك المناسبات قليلة، ومعظمها يقوم بها متطوعًا، ومدركًا أن الفقر هو ما يتشارك فيه الجميع بصمت وتجاهل.

لم يكن الفقيه يحتاج إلى من يساعده في الحقيقة، لكنه ربما كان يحتاج إلى من يؤنسه، أو يتسنَّد عليه ويرافقه في تلك المناسبات، يؤازره بترديد الأذكار حين يغيب صوته المتعب، ويشاركه شطحات الوَجْد وهو يهز رأسه ذات اليمين وذات الشمال، ويتشارك معه في ترديد الأوراد السبعة العجيبة: الحزب الصغير والحزب الكبير، وحزب البحر، وأوراد الرفاعية، والألطاف الشاذلية، ومناجاة مولانا أبي الفيض لدرء الأذى، وصد البلاء.

برع "الوكيل" في أداء دوره في مساندة الفقيه؛ ذلك لأن "أحمد الوكيل" يملك هذا الوجه الجنائزي الذي يؤهله إلى التوسُّل والبكاء وإثارة الشجن، تلك الملامح الساهمة التي ورثها من أمه والوهن والاصفرار العليل اللذين ورثهما من أبيه، كما أن في عينيه ذلك الحزن الذي يحرِّض على التعاطف والإيمان بأن لله في خلقه شئونًا كثيرة تصلح للتدبُّر.

لم يكن ذلك عبئًا على اليتيم أيضًا، فالمناسبات التي عليه أن يرافق فيها الفقيه قليلة وبعيدة، باستثناء ليلة المولد النبوي وعاشوراء والأيام الستة البِيض والأعياد التي توفر له قدرًا من الصدقات، مثل حفنات الشعير والذرة والبلح وأحيانًا بعض حبات البرتقال شتاء، أو حفنات الأرز في مواسم الحصاد، لكن تلك الهبات لم تكن تكفل له ما يسد رمقه، لأنها قليلة وبعيدة وغير دائمة؛ لذلك حافظ "أحمد الوكيل" على تجارة الكاز، وحرص على الذهاب إلى المدرسة التي تبعد عدة كيلومترات من النهر والمسقى

والجسر المطل على الطريق الترابي. كان هناك الكثيرون مثله يذهبون إلى المدرسة محبة فيما اصطلح الناس على تسميته بـ"وجبة التغذية"، وهي قطعة من الحلاوة الطحينية وأحيانًا الجبن المطبوخ ورغيفان تُعطى للطلاب في نهاية اليوم الدراسي لتشجيع الآباء والأبناء الذين لا يرون في المدارس فائدة تُذكر؛ لذلك فقد كانت مواسم التعطُّل وهي الفترة التي لا يجد فيها الطلاب عملًا في الحقول، هي ذاتها الفترة الموسمية التي يندفع فيها الصبية، ويتسابقون مشيًا في الطريق الترابي باتجاه المدرسة. تبعد المدرسة عدة كيلومترات وربما أكثر من تلك القرى؛ لذلك يذهب بعضهم إليها متسلقًا الشِّباك العلوية للعربة الداتسون التي يتكدس فيها عمال البناء والأنفار الباحثون عن أرزاقهم في مركز المدينة، بعض الطلاب يصل متأخرًا أو لا يصل إلا على نهاية النهار، وبعضهم يقضون الوقت هربًا خلف الفصول الطينية بعد الفوز بوجبة التغذية، وبعضهم يفضل الجلوس في المقاعد الخشبية ليضعوا رؤوسهم على الطاولات الخشبية وينامون بعد رحلة من الجري والإنهاك للوصول إلى تلك المقاعد، ينعسون ببؤس فلا يكترث أحد لغيابهم أو حضورهم سوى موظف الغياب والحضور الذي يدوِّن بدقة ولأسباب إجرائية بحتة لحظات حضورهم وانصرافهم. في منتصف النهار يطالبهم المعلم بأن يغسلوا أحذيتهم البلاستيكية المرقعة باللحام والتي تفوح منها رائحة الطين ورَوَث البهائم، وأن يتوضئُوا ثم يسيرون خلفه صفًّا.. على أكوام القش التي فرشها بجانب المراحيض، يصلي الطلاب خلفه ثم يجلسون بانتظار حصة التغذية، وبعدها يفكرون في التسلل والهروب إلى الحقول المجاورة.

أُمُّ حنان

لم يعرف "أحمد الوكيل" في صباه من النساء سوى أمه، ثم أم "حنان" وابنتها "زينب".

قال الفقيه ذات يوم: "بيتك مطرحين يا ولد".

فكر "أحمد الوكيل" في سؤال الفقيه وفي تخطيط بيته الذي هو حجرة جانبية هي دكانه يبيع فيه الكاز والنعناع والمعسل وعلب الكبريت والذي فتح به بابًا منفصلًا يطل على الطريق، وهناك بيته الذي هو مجرد باحة كانت مطرح منامة أبيه ومن بعده منامته، تُفضي الباحة إلى حظيرة خلفية صغيرة، تكفي لتخزين بعض الحطب وكومة من القش وحبل غسيل.

قال الفقيه والست أم "حنان" تجلس بجوار زوجته، "البيت بيتكِ والمطرح مطرحك.. وأينما حللتِ أنت ضيفة كريمة".

تعلق نظر "أحمد الوكيل" بأم "حنان" واعتقد أنها أجمل من رأى من النساء، طويلة وبيضاء وممتلئة ولها عينان مكحولتان، أحب الولد عينيها

اللتين يفيض منهما الكحل، بشرتها الناعمة ورائحة العطور الثقيلة في ثنايا ثيابها، طولها الشامخ في ثوبها الأسود الذي لا يشبه أثواب النساء حوله، كانت ترتدي ثوبًا من الكريشة المجعدة بِكُمَّيْن واسعيْن واسعة، وصدر مفتوح يخفي في طيَّاته قميصها الحريري المطرَّز، بعد ذلك سيصبح هذا الثوب مطلبًا من مطالب النساء في القرى المحيطة.

هزت أم "حنان" رأسها فانفلتت خصلة من خصلاته من تحت الطرحة السوداء المطرزة بشرائط الدانتيل، قال الفقيه: "عندك بيت اليتيم" ونظر إلى أحمد الوكيل، ثم أكمل موضحًا أن "الإيجار غير محبَّذ في تلك البلاد.. وقليل من يفتح بيته لامرأة من الغرباء".

وقفت أم "حنان" بالقرب من زوجة الفقيه تركض وراء البطة التي ترفض الرقاد على البيض الذي جمعوه لها، ثم انشغلت بتكتيف جناح البطة كي تعوقها عن الحركة؛ أملًا في أن تستسلم للرقاد على البيض حتى يفقس.

نظرت أم "حنان" إلى المرأة الصغيرة وهي تحاول إرغام البطة على الرقاد فوق بيضها ليفقس، صمتت قليلًا ثم أكملت: "أنا قريبة المرحومة.. خالة الحاجَّة"، وأشارت بيدها إلى زوجة الفقيه التي كانت أصولها كما يُشاع تمتد إلى بلاد البحر، أفلتت زوجة الفقيه بطتها وأزاحتها بيدها بضجر ووقفت فجأةً وهي تحاول إنهاء تلك المناقشة قائلة:

- الله يرحم الجميع... لكن أنا لا عندي خال ولا خالة ولا فاكرة حد من تلك البلاد.

قال الفقيه أيضًا مؤكدًا ليبعد شبهة القرابة:

- يا بنتي الحاجة من نواحي طنطا ولا تعرف أحدًا من تلك البلاد التي تقولين عنها.

قالت أم "حنان" بحدَّة لم تخلُ من تضرع:

- يعني ح تسكنوني بلاد النبي... أنا طالبة سُكنة من حُرّ مالي..

ثم أردفت:

- لحد ما الله يأذن.. ويرد الغائب.

بعد أن سكنت أم "حنان" بيت اليتيم، قالت بعد ذلك مفسرةً نزوحها إلى تلك القرى، إن زوجها سافر إلى ليبيا، فضحكت الجالسات حولها وقلن لها:

- دي بلاد الله خلق الله.

قالت:

- إنه يعمل في تصليح التلفزيونات، لم يكن أحد يملك تلك الأجهزة بعد فاعتقدوا أن زوجها مهندس أو موظف بشكل من الأشكال.

قالت أيضًا إن ابنتها "حنان" تزوجت حديثًا في بلاد البحر، لم يرَ أحد تلك الابنة وإنما رأوا "زينب" التي كانت أجمل من أم "حنان"، صغيرة وبيضاء وتجدل شعرها الأسود في جدائل طويلة وتلبس زيًّا مدرسيًّا لم يَرْتدِه أحد من قبل في صفوف المدرسة.

سيرة أم "حنان" طارت وحطت على البيوت الصغيرة المنكمشة على بعضها والمختبئة تحت أعواد القش، دخلت بدافع الفضول إلى الأحاديث النسائية التي يتلصص عليها الرجال، فأُمُّ حنان هي التي قادت بعض الفتيات الصغيرات إلى روعة اكتشاف الصدريات، كانت خبيرة في قصها وحردها وتزيينها بالركامة والتل، وأحيانًا ما كانت تحشوها بالقطن وتغلفها بالساتان الوردي، صارت بعض الصغيرات يفتحن قَبَّة الجلابيب الخشنة قليلًا؛ لتكشف الركامة الناعمة التي تخبئ الصدور المتطلعة بشبق لهبَّات النسيم. صنعت أم "حنان" حفَّاضات بأربطة وأستيك مضغوط لأيام الحيض، كما أنها أول امرأة رأوها ترتدي هذا "الروب" أو الروبة كما كانوا يسمونه. كولة عريضة من الساتان ولحاف من الكستور تضمُّه على جسدها بحزام عريض من الساتان أيضًا، أو تضم شِقَّيْه بعدد من الأزرار الضخمة والمتعددة الألوان، تجلس على كرسيها العالي أمام ماكينة الخياطة التي تحتل صدر الباحة، فتجلس الفتيات الصغيرات على الأرض وينظرن إليها من فوق عرشها، شعرها مبروم في هيئة كعكة كبيرة وجسدها ملفوف في هذا الروب، الذي اشتعل الهوس به في البيوت الطينية المجاورة، وازدهر عمل أم "حنان" قليلًا بعد أن أصبح الروبة مطلبًا أساسيًّا للفتيات، وأصبحت رؤية بعض النساء يخرجن إلى الحقُول، أو يركضن خلف البهائم بهذا الروب مشهدًا يتغاضى عنه الرجال الذين صاروا أكثر شغفًا بتلك التحولات، العجائز أيضًا كُنَّ يعبرن عن دهشتهن الممزوجة بالسخرية من تبدُّل أشكال الثياب ويضحكن كثيرًا وهن يتفنَّنَّ في إطلاق الألقاب على الخيَّاطة الجديدة، فكُنَّ يسمينها تفكُّهًا:

(أم كعكة، وأم قصة، وأم روبة).

أم "حنان" أيضًا كانت أول امرأة تحفر هذا الكنيف وتطلق على باحتها الخلفية "دورة الميَّه".

قبلها عرفت تلك النجوع طقوسًا مختلفة لقضاء الحاجة، فالرجال مثلًا يعرفون طريقهم إلى دورات المياه الملحقة بالجامع، أو فوق أكوام النفايات، وعلى أطراف المصارف، النساء كن أكثر تحفظًا ويفعلن ذلك في الزرائب أو يخرجن في جماعات إلى تلك الخرابات التي تجاور السفح الرملي والتي يُطلق عليها أرض "العافية"، بحكم تلك الرحلة اليومية للتخلص من الفضلات أعراف كثيرة، فلا تخرج بنت بمفردها، ولا تخرج ليلًا، كما يقتضي العرف من الرجال غض أبصارهم عن تلك الرحلات القصيرة لقضاء الحاجات، أما العجائز والأطفال فإنهن يقضين حاجاتهن حيثما اتفق، في الزرائب، خلف البيوت، أو حيث يتدبرن كومة من الرمال لدفن مخلَّفات الجسد.

قالت أم "حنان" إنها لا تستطيع أن تعيش من دون "كنيف"، واكترت أحد الحفَّارين ليحفر لها في الباحة الخلفية للبيت خزانًا للمرحاض، ثم بَنَتْ بجانب ذلك الخزان "كنيفًا" وأحاطت السور الخلفي لدورة المياه بسقف من الخوص والطين لضمان الستيرة من أعين الجيران فوق الأسطح، لكن مشكلة الخزَّان تفاقمت بعد عدة أشهر، امتلأ وفاض بتلك الروائح التي لا يمكن احتمالها، فنادت على "أحمد الوكيل" لينزح لها الخزان، قضى "الوكيل" يومه في تفريغ الخزان حاملًا على كتفيه حاويات من المخلفات التي سار بها طويلًا ثم قذف بها بعيدًا على أطراف التل الترابي، هناك على أكوام التراب

التي تفصل الأرض المالحة عن حدود الأرض المزروعة، على تلك الربوة الرملية التي تجاور الخراب والأرض البور ألقى حمله عدة مرات ثم عاد، بعدها صار الرجال يرسمون الحدود الجغرافية بين الأرض البور وحدود قراهم بتلك النقطة الفاصلة، كانوا يقولون بتلذذ: "تحت خرا أم حنان، فوق خرا أم حنان"، وفي النزاعات اليومية التي تندلع بين الصبية صار "أحمد الوكيل" يُطلق عليه "نزَّاح الخرا".

***

كان وجود أم "حنان" في حياة "أحمد الوكيل" فريدًا، فغرفته التي تلاصق بابها سمحت له بالتطلع بشغف إلى زخم الحياة الذي تبثه تلك المرأة؛ ولذلك كانت استجابته إلى بُنوَّتها أكثر حماسة، قالت له بتلك النبرة التي يحبها: "أنا لم يكتب لي الله خلفة الرجالة"، فاستعد الولد الصغير الذي يعرف تبعة تلك الكلمة التي سمعها كثيرًا من غيرها، وصار أكثر فهمًا لما تقتضيه تلك العبارة من موجبات التبنِّي؛ استعد ليصبح خادمها المطيع ومرسالها إلى الدكاكين المجاورة، يذهب بقطع القماش بعد خياطتها ويعود من تلك البيوت بكبشة من البصل، طبخة من البامية، بعض أرغفة الخبز، لكن مهمته الكبرى كانت تنحصر في حراسة "زينب" والمشي خلفها بعد أن أصبحت بعد هذا التبني أخته، وكان بدوره يحب التسلِّي بمراقبتها وهي تسير في تلك الطرقات الموحلة التي تفضي إلى غرف الدرس. تمشي "زينب" عادةً مع رفيقاتها، لكنها لا تغيب عن عينيه، يسير الأشقياء من الصف خلفها أيضًا، لكنهم لا يجرؤون على التحرُّش بها، فاكتفوا بمضايقة حارسها الذي

أطلقوا عليه "نزّاح الخرا" و"كلب الفقيه". ظل "أحمد الوكيل" يلاحقها في الطرق مثل ظلها، وظل الصبية يتابعون تلك الملاحقة وهم يتبادلون مع الوكيل تلك النظرات التي يتبادلها الديوك قبل اندلاع الحروب.

أحب "أحمد الوكيل" في بيت أم "حنان" تلك الأشياء التي لم يرَها من قبل في بيته، الطراوة التي تنبعث من الجدران الطينية، الأغاني التي تصدح من الراديو الترانزستور، دقات الماكينة، الستارة التي قسمت الباحة بألوان الورد المتداخلة، المساء الذي تهبُّ نسماته حين تستلقي أم "حنان" على بطنها وتشتكي من ظهرها الذي يوجعها وتقول له: "اتّكى يا ولد.. ظهري اتقطم من قعدة الماكينة"، يتحسس بيديه قناة ظهرها، بينما تنشغل "زينب" بتدليك قدميها، يحب "أحمد الوكيل" دور الفتى الطيب المخلص، وتحب ابتسامته التي تفضح هواجسه بها، يستعرض أمامهُما ما تعلمه، ويعلم أن ترتيل بعض السور القرآنية سيعيد صورته التي يريد للعالم أن يستقبله بها، الفتى اليتيم الأمين، الذي يستحق الشفقة وربما المحبة والتقدير، يختار لها الآيات القرآنية التي تهز قلبها، يدرك أن قصة يوسف وزُلَيْخة تعجب كل النساء.. يرتل بخشوع: "وقدَّت قميصَهُ مِن قُبُلٍ"؛ تتوجع أم "حنان" وأحيانًا تدمع حين يصل إلى قوله تعالى: "فَذَلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّني فيه".

يجد "أحمد الوكيل" في سرد قصص المحبة شغفًا، قصص السيدات الجميلات اللاتي يقعن في محبة الأنبياء في مراحل ما قبل النبوَّة، تعترض أم "حنان" أحيانًا وتقول له: "يا ولد، المرأة كانت في مقام أمه".

يقول بحكمة أشبه بالتوسل: "النبي أيضًا أحب امرأة كانت في ذلك العمر".

يصل "الوكيل" إلى تلك الآية: "ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ".

عندها تقرر أم "حنان" أن تكون وحدها، تقطع التلاوة فجأةً بصدق الله العظيم ثم تقرر بحزمٍ صرفه لتنام: "قوم نام يا ولد.. وراكم مدارس".

تتدحرج "زينب" بدورها على الفراش لتنام بجانبها، يستعد "الوكيل" للخروج من الباب والذهاب إلى غرفته أو دكانه الملحق بالبيت لينام، وقبل أن يغلق الباب خلفه يقول لها كما ينبغي أن يفعل الرجال: "لو احتجتِ شيئًا.. نادي عليَّ".

تضحك أم "حنان" فتعبر رائحة النعناع والمستكة من فمها وتودعه باسمة ".. إن عُزت حاجة ح اناديك"، لكنها لا تناديه ولا تحتاجه، ينام مع تلك المتخيلات المبهجة التي لا يفهمها، صدرها الذي يحتضنه، فمها الصغير المُغوِي فوق فمه، امرأة العزيز تطارد فتاها قد شغفها حبًّا.

حتى تلك اللحظة كانت أم "حنان" تهيمن على متخيلاته، ولم تكن "زينب" حاضرة سوى في فصول الدرس كأخته بالتبنِّي، يرافقها في الصباح ويقدم لها واجبات الحماية في طريقهما إلى المدرسة، ثم يشارك أم "حنان" في جلسات المساء التي تتمدد فيها على البساط متوجعة من هدَّة الحيل التي تصيب قدميها، بينما تفضل "زينب" الغفوة على حجرها وزج أوراق الواجبات المدرسية بيدها ناحيته، وتركها أمامه كي يتطوَّع "الوكيل" للقيام بها.

زينب

تعود علاقة "أحمد الوكيل" المعقدة بذاته إلى اللحظة التي طرقت "زينب" قلبه بولعها الفريد بالسخرية، قالت له "زينب" متهكمة وهو في طريقه لأن يحتل طاولة مدرس الفصل ليمارس هوايته في مسح السبورة: "اقعد يا أبو العرِّيف في مطرحك، مش كل حبَّة تدينا الرقعة اللي في مؤخرتك وتعمل روحك الأَلْفَة"، وضحك الجميع بمن فيهم "زينب"، لكنه لم يضحك، لم يكن قادرًا على أن يتحرر من مرارته، أو اعتقاده بأن "زينب" قصدت تلك الرقعة التي لم يعرف كيف يسترها في مقعدة بنطلونه، الرقعة التي تؤرِّقه كلما مشى مؤديًا الدور الذي يحبه، تحية العلم، الإذاعة الصباحية، الشرطة والإشراف المدرسي. كان يعتقد أن تلك الرقعة هي التي عوَّقته من التقدم وتصدُّر جماعة الخَطَابَة أو تصدر تحية العلم، على الرغم من أنه لم يكن وحده صاحب الرقعة في ثيابه، فالكثير من زملاء الفصل ينحدرون من الأرياف مثله، يأتون من تلك القرى البعيدة والكفور التي تتشابه في فقرها، ومعظمهم لا يكترثون للرقع، ولا لآثار القوباء على جلودهم الخشنة،

ولا لرائحة الطين ورَوَث البهائم الذي تمتلئ به ثقوب أحذيتهم البلاستيكية، لا يكترثون برقع الأحذية ذاتها التي جرى لحامها أكثر من مرة لتفضح هذا الفقر، لكن "أحمد الوكيل" كان أكثر حساسية لتلك الثقوب التي يحاول الفقراء ترقيعها بعدم الاكتراث.

وعلى الرغم من سخافة تلك الأنشطة المدرسية فقد كان حريصًا على النزاع عليها واقتناصها من بعض الطلاب الأكثر حرصًا عليها، مثل ابن عامل السنترال، وابن موظف التموين، وموظف السجل المدني، يمثل هؤلاء وأبناؤهم الطبقة الوسطى التي تهتم بتلك الأنشطة، وباستثناء هؤلاء فكل الآباء كانوا مجرد عمال يومية، وملاك صغار لقراريط بعيدة، ومعظم أبنائهم يتأهبون لترك المدرسة المتوسطة ليتفرغوا للعمل في تلك الحقول، لا يشغل هؤلاء الرقع ولا الأنشطة ولا الخطابة ولا رئاسة الفصل، "ابن الوكيل" وحده كان مشغولًا بصورته عن ذاته، تلك الصورة التي جرحتها "زينب" بتلك العبارة.

ورغم ما بذلته "زينب" من جهود لتطييب ذلك الجرح، فقد تعمدت مثلًا أن تجلس يومها بجواره في صندوق العربة السوزوكي في طريق العودة، وحاولت مرارًا في جلستها المغوية أن ترمم كبرياءه الذي تحطم تارةً بأن تداعبه وتلصق كتفها بكتفه، وتارةً أخرى وهي تميل قليلًا باتجاهه حينما يهتز الصندوق، لكنه تجاهل مداعباتها الخفية وادَّعى الانشغال بمراقبة وجوه الطلاب الذين يتزاحمون في صندوق متأرجح بين الحقول، وقبل أن تصل "زينب" إلى البيت وضع في يدها تلك الورقة الصغيرة التي اجتهد أن يزخرف حروفها بخطه الرزين "كل إناء ينضح بما فيه"؛ مزقت "زينب" الرسالة

القصيرة الجارحة ثم تجاهلته، لكنها لم تهبط من قلبه لسنوات طويلة، ظل جسدها - وهو يسير على حوافِّ القنوات الطينية والطريق الترابي - يتحول إلى رقعة في قلبه لم تتمكن امرأة من رتقها بعد بين ذراعيها.

في طريقه إلى البيت، بدأت تلك الفروق الكونية بينه وبين "زينب" تشغله، كان يعتقد أن الفرق الوحيد بينه وبينها أنها ابنة مدينة، وهو لم يعرف في حياته سوى تلك البلدة الفقيرة التي تجاور تلك القرى، مدينة لا تمتاز سوى بمبنى حكومي أصفر يجاور المدرسة الوحيدة بتلك البلاد، قلب المدينة مجرد بناية حكومية مكونة من عدة غرف؛ غرفة للبريد، غرفة للمأمور الذي لم يرَهُ أحد، غرفة للوحدة المحلية التي لا يعرفون ما هي، ووسط المدينة لم يكن أكثر من حارة ضيقة تتراصُّ فيها دكاكين البقالة الصغيرة المتجاورة، تلك الدكاكين التي تخصص بعضها في تسليم بضائع التموين التي لا تتجاوز الشاي والسكر والزيت، والآخر تخصص في العطارة والشموع والوصفات الطبية التي يتوافد القرويون للتطبُّب بها. تتوسط هذه الأبنية المتناثرة ساحة شبه خالية، تتجمع فيها عربات نصف النقل وتتحول إلى سوق أسبوعية يتجمهر فيها أهل القرى للبيع والشراء، خلف السوق في تلك التلال الرملية تقع المقابر، قبب صغيرة رملية فقدت بمرور الزمن أسماء أصحابها، ثم تلال حجرية بعيدة لأنقاض بعض المسلَّات الحجرية والتماثيل الضخمة التي يُطلق عليها تلال فرعون.

لم يكن ثمَّة فروقٌ كبيرة في الحقيقة بين الكفور والنجوع، وبين تلك المدينة، لم تكن ثمة فروق بينه وبين "زينب" سوى أنها ابنة أم "حنان"، أخته بالتبنِّي التي كبرت وصارت بعد ثلاث سنوات ثمرة مشتهاة.

النبيُّ الكاذب

دخول "مدرس العلوم" إلى المدرسة شكَّل فارقًا في حياة "زينب"، المدرس الغريب كان يقيم مع زوجته في أحد البيوت المخصصة للمدرسين والموظفين المغتربين، والذين يقضون بعض الوقت ثم يعودون إلى بلادهم.

يقضي "مدرس العلوم" معظم وقته في نظافة حذائه من بقايا الطين، ويحرص أن يعيد تصفيف شعره بالمُشْط القصير الذي يضعه في جيب سُترته، سترته النظيفة دائمًا والتي نادرًا ما يبدلها لأنه لا يمتلك غيرها.

كان "مدرس العلوم" هو الحضري الوحيد الذي جاء إلى تلك المدرسة، وكان يعبِّر عن مرارة وجوده في تلك القرى القاحلة التي لا تعرف الفضيلة بكل الطرق، يعبر عن مرارته بالوعظ وعقاب الكَسَالَى والمتأخرين، الذين يلوثون كتاب العلوم برَوَث البهائم.

يقضي "مدرس العلوم" نصف حصصه في عقاب هؤلاء "البهائم" وتلك كانت الصفة التي يختزل فيها طلبة المدرسة، وعقابًا لهم على عدم

مشاركتهم في تجاربه المعملية وعدم قدرتهم على التمييز بين بيكربونات الصوديوم والخراء، كان يصفُّهم بجانب الحائط طويلًا ويمارس عقابهم بجَلَد القدمين، يصعدون واحدًا فواحدًا فوق الطاولة الوحيدة المخصصة للأستاذ، وينامون على بطونهم ويرفعون سيقانهم لتتلقى الضربات الموجعة، وهم يصرخون بالكلمات نفسها: "والنبي يا أستاذ.. خلاص حرَّمت"، وتفوح من أقدامهم تلك الرائحة النفاذة التي تتركها الأحذية البلاستيكية والخوف والعرق وطبقات التشقق في الجلود..

يحب "أحمد الوكيل" تلك الفقرة التي يتم فيها تعذيب الجميع؛ لأنه الوحيد الذي يتفاداها بالطاعة التامة لأستاذه، يحبها لأنها تؤكد هذا الاستثناء الذي لم يكن سوى ذعرٍ في الحقيقة، من انتهاك ذاته المتضخمة والتي لا تشبه إلا ذات مدرس العلوم، المدرِّس الذي يعتقد أنه وُجد في المكان الخطأ وأن عليه أن يترك أثرًا في هذا العالم الذي لا يعرف قيمته. كان يحب "مدرس العلوم" لأنه يشبهه، يحاول بدوره مداراةِ ثقبٍ ما في بنطاله، رقعة يراها وحده، وكان كلاهما يحاول أن يثبت للآخر جدارته بحمل هذا السر المشترك، المرارة التي يعرفان مصدرها، رائحة الفقر التي لا تناسب طموحهما.

ظل "أحمد الوكيل" يمسح الطاولة لمدرس العلوم بتفانٍ ودأب، ويحمل عصاته، ويقف بجواره في مشهد العقاب اليومي الذي يخرج منه الصبية بابتسامة بليدة، وبعد أن يمسح الصبية دموعهم يبتسمون في تَحدٍّ شرس للعقاب بالبلادة واللا مبالاة التي تؤكد رجولتهم.

لم يكن "أحمد الوكيل" يحب المشهد في حد ذاته، كان فقط أكثر جبنًا من الآخرين، ولا يود أن يعرِّض صورته الهشة للانكسار، وربما قاده ذلك الخوف إلى عكس ما صبا إليه فكثيرًا ما انتهك الخوف ذاته وعذبه. كان خائفًا دائمًا من ظلال الصبية إذا مشوا خلفه، وكان دائمًا يحمي ظهره بادِّعاء الثقة التي تُرهب الآخرين، وكان خائفًا من غضب "مدرس العلوم" الذي صارت كل المدرسة تهابه والذي قال له مؤخرًا: "أنت مثل أخي الصغير".

أحب "أحمد الوكيل" تلك الجملة، أحب أن يصبح أخًا بعد أن أتعبته عواقب الأبوَّة والأمومة، لقد دخل مرحلة جديدة من تاريخ رجولته، يتأمل فيها شاربه وقد خطَّ قليلًا وملابسه التي ضاقت كثيرًا، ووجد في صحبة "مدرس العلوم" مصيرًا ألطف لبدء تلك المرحلة.

أحب "أحمد الوكيل" صورته الجديدة التي مكَّنته من الخلاص من الوجع الذي يلمُّ به حين يتذكر أمه، وأراد أن ينسى كل ذلك وأن يصبح "الأخ الصغير" وأن يسير وحده، مفكرًا ومتأملًا كيف يكتسب بدوره تلك المهابة التي يحظى بها أستاذه.

"مدرس العلوم" طويل ونحيل وله أنف معقوف جدًّا، ولحية تجعل وجهه أكثر طولًا.

زوجة المعلم صغيرة وفي المرات القليلة التي خرجت فيها من بيتها فإنها كانت تسير بجانب المعلم محنية الظهر ومتسربلة بالسواد، كان ذلك اللباس الأسود زيًّا جديدًا لم تألفه تلك القرى بعد. قالت بعض النسوة اللاتي تمكَّنَّ

من رؤية وجهها في مناسباتٍ قليلةٍ إنها قبيحة جدًّا وأن ضبَّها مثل ضب الكلبة، وتساءلنَ عن إخفائها لنفسها بهذا الشكل، لكنهنَّ أيضًا اعتقدنَ أنها أفضل من أم "حنان"؛ فهي تجيد التطريز والتفصيل لكن ليس لديها رغبة في أن تخرج أو تدخل أو تختلط بأحد وتقتصر في مهاراتها على خياطة العباءات السوداء، لكنها لم تجد من يُقبل على ارتداء العباءة في تلك البلاد، فانقطعت بذلك أخبارها وظلت تعيش في قعر بيتها لا يشعر بوجودها أحد، وكان ذلك مريحًا للجميع؛ فقد عاشت بينهم ملحقة باسم زوجها مثل علامة تعجُّب غامضة لم يلتفت إليها أحد، لكنها نالت رغم ذلك بسبب تواريها عن الأنظار احترامًا كبيرًا في القرى المجاورة فلم يطلقوا عليها أبدًا وصف الخيَّاطة كما أطلقوه على أم "حنان"، بل كانوا يشيرون إليها باحترام بوصفها "الست زوجة المعلم"، ربما يعود ذلك الاحترام إلى المكانة التي اكتسبها زوجها بمرور الوقت؛ بخاصة بعد أن صار ينافس الفقيه في إمامة الصلاة، وصار أهل القرى يلجئون إلى حكمته في الاستشارات الدينية والعرفية وغيرها من الأمور.

كان المعلم يملك ذلك الطموح الذي لم يمتلكه الفقيه يومًا؛ ولذلك فقد صار سريعًا رُبَّانًا لسفينة القرى البائسة التي وجدت فيه مثالًا لما يمكن أن يكون عليه أبناؤهم؛ بخاصة هؤلاء الذين فشلوا في أعمال الحقل وتربية البهائم، وجدوا في صورته مثالًا جديدًا للنبوغ والقيادة والحكمة، فكان أول من طرق الأبواب لصلاة الجماعة وخطب تلك الخطب المؤثرة التي تدمع لها العينان، وبدأ في تجارة الطب النبوي وطرق الاستشفاء بالأذكار

والأعشاب والرُّقَى؛ كان أول من استنَّ صلاة العيد بالجرن وحث على فضل الصلاة في العراء، وبينما توارى الفقيه في بيته مكتفيًا بالراتب الذي يصل إليه من "جمعية الأشراف وأنصار النسل الشريف" كان المعلم يشق طريق قيادته إلى القطيع.

سار "أحمد الوكيل" خلف معلمه بحبور، مُتيَّمًا بما وصفه له معلمه بأنه وزيره، كان يسير خلف أستاذه وهو يؤكد له قيمته كتابع مخلص له.

اعتقد "أحمد الوكيل" أنه صار شريكًا في مهمة كونية وأن عليه أن يكون عند حُسن ظن "مدرس العلوم"؛ خُصوصًا حين بدأ في تنظيم الحياة الاجتماعية في تلك القرى، واستنَّ فروضًا جديدة لضبط المجتمع، مثل سُنَّة الغرامات، التي حددها المعلم كالتالي: "مَنْ قام بسبِّ الدين لأخيه - وكانوا كثيرًا ما يسبونه، فعليه دفع ربع بريزة، ومَنْ تخلف عن الجمعة، فعليه دفع نصف بريزة، ومَنْ تفحَّش في السبِّ وخاض في عِرْض الأم، فبريزة كاملة"، وتم تحصيل تلك الغرامات لصالح صندوق المسجد الذي أنفق منه على تجديد المسجد الصغير وتوسيعه وإلحاقه بدورة مياه وكسوة مخملية للمنبر.

آمن "أحمد الوكيل" سريعًا بحكمة معلمه وصدق نواياه في إنشاء "جمعية منع المُحرَّمات"، والتي كان هدفها تجهيز عدد من الشباب مثله ليخرجوا في سبيل الله ويطوفون بالقرى والنجوع المحيطة، ويحدثون الناس عن بعض البدَع السائدة، كالنِّياحة على الموتى، ودق الوشم، والجري وراء قُبَب الأولياء. رحب "أحمد الوكيل" بتلك الفكرة لأنها ستؤهله إلى الدور

العظيم الذي كان بانتظاره، لكن تلك الرحلة لم تتم أبدًا لأن الطريق إلى تلك القرى وعرة، ولأنه لم يجد من طلابه من تحمس لترك الحقول واللف على الأبواب.

اكتفى المدرس بوضع قائمة طويلة للمُحرَّمات، تلك القائمة التي تم نسخها بيده عدة مرات، تم توزيعها على عددٍ من زوايا الصلاة البعيدة، شارك الوكيل أستاذه بنسخ تلك القوائم، ثم لصقها على الجدران، كما رسم بالطباشير الملونة على الجدران، جوامع وآيات قرآنية وعدة أحاديث عن غَضِّ البصر وطرق النجاة من النار، ولكن تلك الجهود لم تُفلح في تحقيق مآربها، فالمشكلة الأساسية كانت في أن عدد الذين يقرءُون كان قليلًا للغاية، ومعظم الطلبة الذين كانوا يترددون على المدرسة مثله لم يفلحوا بعد في التهجِّي أو كتابة أسمائهم، كانوا أكثر انشغالًا بعمليات الهرب بعد ضمان وجبة الطعام أو التغذية، ودأب معظمهم على التسرب من حصص الوعظ التي أضافها المعلم كفواصل بين الحصص المدرسية، كان طلاب المدرسة يتسربون بأعداد كبيرة في مواسم جني القطن، وحصد القمح، وحَشِّ البرسيم، واعتادوا ترك المعلم وتلميذه وحدهما يسيران بين الحقول يتحدثان عن عثرات الدعوة والداعية.

أصبح المعلم أكثر إيمانًا بأن تلك البلاد بينها وبين النور بحور من الظلمات، لكنه ما زال متفائلًا، يسير إلى جانب تابعه الأمين ويضع يده على كتفه ويقول:

- يا أخ أحمد، لقد رأيت البارحة في منامي شيئًا غريبًا.

قال "أحمد الوكيل":

- إنه أيضًا يحلم، لكنه لم يعُد يرى ذلك الجرو الذي كان يخبره بسيرة الأموات.

هز المعلم رأسه وقال:

- يا أخي إني أحدثك عن الرؤى.. لقد رأيت فيما يرى النائم أنني أقود صفًّا طويلًا من الرجال، وظللنا نسير في الطريق الترابي حتى وصلنا إلى ذلك التل، خلف المدرسة وخلف مركز المدينة وخلف مكتب الصحة، وفي أعلى الربوة بدأنا بصبِّ ذلك المسجد.

كان له منارة عالية جدًّا، وكنت أقف في منارته وأؤذن وكان صدى الصوت يهز العشب في الأجران والحقول البعيدة.

يبتسم "أحمد الوكيل" تلك الابتسامة التي يود المعلم رؤيتها ويعتقد أنه وجد دليله في اكتشاف اللحظة الغامضة التي يستجيب فيها الكون لأحلامهما.

لم تتبدل علاقة "أحمد الوكيل" بمدرس العلوم حتى بعد أن استجاب الله لرؤياه بطريقة غير متوقعة وتحطمت سيرة المعلم العطرة تمامًا وسط روائح الفصول الرطبة، تبدلت فقط علاقة "أحمد الوكيل" بـ"زينب"، صارت "زينب" ترفض أُخوَّته الافتراضية لها وتُبدي غضبها من محاولاته للتلصُّص عليها ومعرفة أين تمارس رغبتها الجديدة في أن تواجه الحياة بمفردها.

اعتادت "زينب" أن تتجاهل محاولات بعض الصبية التحرش بها ببعض الكلمات النابية والتلميحات الجنسية المتداولة والتي صارت ترد عليها بإصبعها الوسطى فقط، ظل "أحمد الوكيل" يواصل حمايتها آنذاك بالسير خلفها وهو يتبادل معهم بعض الشتائم حين وقفت "زينب" فجأةً ونظرت إليه بحدَّة وقالت: "أنت صدقت أنك أخويا ولَّا إيه.. امشِ بعيد عني"، مشى "أحمد الوكيل" بعيدًا لكنه لم يكفَّ عن متابعتها خصوصًا بعد أن اعتادت "زينب" السير في الطرق التي لا يرتادها أحد، تسير خلف أسوار المدرسة التي تشرف على مصرف للماء الآسن وعدة طرق ترابية تفضي إلى التلال التي ترقد فيها المقابر، يفقد الوكيل بعد تلك الحدود قدرته على متابعتها وهي تختفي بين القُبَب الصغيرة للقبور، صار ينتظرها في الطريق الترابي الذي تعود منه، تنظر إليه وينظر إليها لكنه لم يكن يجرؤ على سؤالها أين كانت؟، لاحظ "الوكيل" أيضًا أنها تختفي كثيرًا بين فواصل الحصص المدرسية، يخرج خلفها ويشاهد خطواتها وهي تعرف طريقها إلى المعمل الذي كان في الحقيقة مجرد غرفة مغلقة وشبه مهجورة، مفتاحها الوحيد في جيب "مدرس العلوم".

تغيب "زينب" وتعود بالابتسامة المتجاهلة نفسها لكل ما يدور حولها، ثم وصل إليه ما تناقله المدرسون في الغرف المغلقة عن قلق الإدارة المدرسية حول ما وصلت إليه الأمور بين البنت والمعلم الذي نَصَّب نفسه رسولًا إلهيًّا، لم تقتصر مناقشة هذا الأمر في الغرف المغلقة بل تسربت تلك الوشايات.

وكان اسم "زينب" يأتي دائمًا ملحقًا ببعض العبارات الجنسية المتعلقة بمؤخرتها وصدرها وبلوغها مبلغ الإناث.

كانت ثقته في المعلم تبدد قلقه من تلك الوشايات كما تبدد أيضًا مخاوفه من تلك التغيرات التي طرأت على سلوك "زينب"؛ خصوصًا تلك الابتسامة الهازئة التي لا تفارق شفتيها.

قال مدرس العلوم: "أنت أخي ويجب أن تفهم أن ذلك واجبي"، حاول أن يقنعه بأن تلك الوقفات الطويلة مع "زينب" بين فواصل الحصص المدرسية هي مجرد محاولات لإقناعها أن تستر جسدها؛ خصوصًا شعرها الذي ينزلق ناعمًا مُغوِيًا حول وجهها الأبيض ويأمرها بإسدال غطاء الرأس على صدرها الذي شق طريقه بين طيَّات الثياب، ثم يؤكد له أن أهداف تلك الوقفات تربوية محضة.

هز "أحمد الوكيل" رأسه مؤكدًا لنفسه أن "زينب" كبرت وأن كل ما يفعله مدرس العلوم يصبُّ في صلاح العباد.

لم تتبدل ثقة "الوكيل" بأستاذه حتى بعد أن صار يرى تلك الرسوم على باب المرحاض المدرسي، والتي حددت جسد امرأة صغيرة وعضو رجل بلحية وكُتب على الجسدين المتعانقين بالطباشير اسم "زينب" واسم "مدرس العلوم"، كانت تلك الكتابات تنتشر أيضًا على الجدران الطينية للفصول، يلمح اسم زينب ومدرس العلوم في جمل مليئة بالأعضاء التناسلية والشَّبَق.. وحين عبَّر "أحمد الوكيل" لزينب عن مخاوفه وعن تلك الرسوم

المسيئة لمدرس العلوم، صمتت "زينب" قليلًا ثم قالت: "ولاد كلب.. أول ما يتعلموا الكتابة صاروا يبصقون الخرا الذي يشغل عقولهم على الجدران".

كانت أم "حنان" آنذاك مشغولة بالخطابات التي لا يرد عليها زوجها المسافر، وصارت تبكي وهي تضع أذنها على الراديو الترانزستور تهمس بمقاطع من أغنيتها التي التصقت بمشاعرها في تلك المرحلة "خُدْلُه يا هوَا منديلي يحوش الشمس وتعب الشمس عن حبيبي"، تهز أم "حنان" رأسها للتجاوب مع اللحن وتتحسس وجهها الذي طفرت عليه بعض الخطوط الخفيفة وتتنهد بأرَق؛ فيفقد "أحمد الوكيل" ما تبقى له من العقل أو القدرة على فهم تحول مشاعر النساء. كل ما أدركه ساعتها أن أم "حنان" صارت أكثر رقة، وأن "زينب" صارت أكثر شجنًا، وأنها تنام كثيرًا على حِجْر أمها وتبكي وتقول لها إن عليهما أن تتركا حفرة الخراء هذه وأن تعودا معًا إلى بلاد البحر.

صار "أحمد الوكيل" بدوره أكثر أرقًا، يجلس أمام باب أم "حنان" مشغولًا أيضًا ببلاد البحر ومرحاض المدرسة وتعكُّر مزاج "زينب" بعد أن اختفى "مدرس العلوم" الذي ترك المدرسة فجأة، وظلت "زينب" حتى بعد رحيله تتخلف عن مسيرة البنات لأنها صارت تكرههن، وتتحاشى ركوب العربة نصف النقل التي يتكدسون فيها مساءً لأن الذكور يتصارعون للجلوس بجانبها، ثم يتحرشون بجسدها ويغرسون بطنها بأصابعهم المدببة، والفتيات يتكوَّرن بعيدًا عنها في محاولة لقطع أي صلة محتملة بينها وبينهن.

اختارت "زينب" السير والتسكُّع حول المقابر حتى يذهب الجميع، تنتظر أن يعبر الصمت على ساحة المدينة وتخلو المدرسة والشوارع المحيطة بها وتهبط الشمس خلف الجبَّانات، وبعد أن تطمئن لوحدتها، تسير وحدها في طريق العودة إلى البيت، لم تكن وحيدة تمامًا، كانت تعرف أن "أحمد الوكيل" يسير خلفها بخوفٍ وأرقٍ حارسٍ خائب.

لم تَطُل عذابات "زينب" بعد فَقْد مدرس العلوم المفاجئ ونقله إلى مدينة أخرى؛ إذ جاء مَن اقتلعها من جذورها وألقى بها هناك أسفل التلال وخلف المقابر، بعيدًا حيث ترحل القصص المنتهية، واقعة الاعتداء على أم "حنان" لم يشهدها كلاهما، لكنهما حين عادا من المدرسة متثاقلين من ألم المشي، شهدا فقط أم "حنان" تجلس في قاع البيت باكية، وقد صارت كل معالم وجهها تجمعات دموية قانية، تمزق غطاء رأسها وثوبها أيضًا وبرزت الصدرية الساتان بلونها الأحمر المبهج من تحت الملابس الممزقة، غطت رضوض جسدها مُتكوِّمة على الأرض وكان الفقيه يجلس على عتبة بابها ويقول: "ربَّنا لا تُحمِّلنا ما لا طاقة لنا به".

لم ينجح رش الماء بالسكر وتلاوة الآيات الكثيرة في تهدئة روع أم "حنان" التي كانت تبكي بحرقة وتقول: "استر عليَّا يا ستار الولايا"، ولم يفلح أحد في معرفة التفاصيل من فمها.

الذين كانوا يتلصصون قالوا إن بعض الشباب الفاسد الذين لم يتعرف إليهم أحد قد وجدوا باب أم "حنان" مواربًا فدخلوا منه، أو تسلقوا الجدار

الخلفي لدورة المياه التي كانت تقف فيها شبه عارية وأنهم تسللوا إلى بيتها بشكلٍ من الأشكال وفضحوا عِرْض المرأة، لم يرغب أحد أن تصير الأمور أكثر وضوحًا.. فاكتفوا بترديد تلك الآية: "إن جاءكُم فاسقٌ بنبأ فتبيَّنوا".

وروى آخرون أن النسوة في البيوت سمعن صراخها تلك الظهيرة وكان معظم الرجال في الحقول البعيدة، ركض الفقيه ومعه بعض العجائز اللواتي لمحن بعض الأشقياء يحاولون لمس جسدها الأبيضَ البَضَّ بعد أن شقوا ثوبها، تم سحل جسدها في باحة البيت فهربت إلى الشارع وهي تستنجد بالعابرين، ركض الأشقياء هربًا وسط الصراخ وأراد الجميع التستر على الفاعلين، فقالوا بإجماع: "إنهم لم يتعرفوا إليهم ولم يروا سوى ظهورهم وهي تركض، وإنهم على الأغلب ليسوا من هذه الناحية"... وكترضيةٍ للضمير اجتمعوا على عبارة واحدة: "إنهم ولا شك جاءوا من نُجوعٍ أخرى".

في الصباح صحبت أم "حنان" ابنتها وحملت عزالها في عربة نصف نقل وغاصت في الحقول البعيدة، وقف "أحمد الوكيل" على باب بيته الفارغ وأحس باليتم، وبكى كما لم يبكِ على أمه، وشعر بتلك الفضيحة التي تحاصره أينما ذهب، عاد الجرو الصغير الذي كان يلاحقه، ركض في أحلامه خلف النساء اللاتي أحبهن، ورأى كيف تسقط أجسادهن مسحولةً على طُرقات ترابية قاتمة.

كانت تلك الحادثة هي آخر ما علق في ذاكرته عن تلك القرى، فبعد

عدة أسابيع من تلك الحادثة أغلق باب بيته وغاب، قيل إنه سافر بحثًا عن الرزق، وقيل إنه يبحث عن أم "حنان" وابنتها في بلاد البحر البعيدة، ثم انتهى المطاف بـ"أحمد الوكيل" الذي تنقَّل بين البلاد البعيدة باحثًا عن لقمة العيش وعن بيتٍ تفوح منه رائحة الكاز والأُلْفَة إلى بيتٍ في أقصى بلاد الله، بيت "نِعَم الخباز" التي اعتقد أنها ربما تكون نهاية محتملة لشقائه.

فبعد أن سمعت "نعم" حكايته أدركت أن قلبها كان جاهزًا لاستقباله وكان عقلها أيضًا يفكر كثيرًا في فرص الإنجاب ومواسم التزاوج والتلاقح، وفي سبيل ذلك ظلت لعدة أسابيع تتعهده بالرعاية، تحمل إليه بعض الأطعمة والماء المثلج وعلب الدخان وتجلس إلى جواره طويلًا ثم تقول له بنبرتها المؤثرة:

- ارمي حمولك على الله.. اللي خلق الخلق مش ح يسيبك.

يهز رأسه بتسليم المتعبين، فتدرك أن تلك الجمل تهز وجدانه.

تكررها أكثر حماسة:

- أنت ح تفضل شايل همَّك فوق راسك وزاعق...؟ قوم خد حمَّام وصلي، الله يرضى عليك.

حين دخل بيتها للمرة الأولى كان قد استسلم تمامًا لقدَره، مثلما يستسلم الجُحْر لتقلُّص العقرب الصغيرة التي تختبئ في شقوقه.

في النهاية، غاص "أحمد الوكيل" في جسدها المشدود كحبال السفن

الغارقة واختبأ في سروالها المبتل بالرغوة والشبق، هكذا دخلت العقرب إلى شق روحه من دون أن ينتبه ولم تخرج رغم أنه لم يكن صعبًا أن يفتح الباب ويلقي نفسه خارجه، لكن العقارب لا تتركك، فقط حاول أن تفعل، ستجدها ملتصقةً بحذائك، بملابسك، بصناديقك القديمة، بجدار بيتك حيث تقف بالساعات في انتظارك كي تدلف خلف قدمك من ثقوب الباب، أينما ذهبت تعلق بك عارية متحدية مقتحمة عرينك، تلتصق بك وتتلصَّص عليك وتتابع خطواتك من غرفةٍ إلى أخرى، وحين تواجهك في النهاية بصمودها ترقص بذيلها المعقوف بالسم مهددة ومتوعدة ثم تهرب إلى الشقوق منسحبة منطوية في جحورها مترقبة لحظة الانقضاض القادم، لم يَدْرِ "أحمد الوكيل" أن العقرب قد تمكَّنت من شقوق روحه، وأنه عالق معها في بيت واحد، وأنه ليس لديه الجرأة أو القدرة لطردها من حياته.

استسلم "أحمد الوكيل" بعد أن أيقن أنه قد حرق كل أوراقه، ولم يعُد يملك في الحياة ما يمكن اقتناصه سوى ذكورته، استسلم لالتصاق "نعم" بجسده، وافتراسها بمهارة عقرب ما تبقَّى من أحلامه.

بعد ذلك بأسابيع أتم "أبوعبد القادر" طقوس الزواج قائلًا لـ"ابن الوكيل": "إن الزواج أفضل من العزوبة، وإن الغربة تحتاج إلى مؤنس، وإنه على أقل تقدير قد حاز سقفًا وبيتًا وزوجة".

قامت "نعم" بتنسيق وترتيب غرفة نومها، انشغلت لعدة أيام في تعليق بعض الستائر فاقعة الألوان، ونثرت بعض المفارش على الأثاث القليل

الذي تملكه، لم تُضفِ الألوان أي بهجة إلى البيت الذي كان متهالكًا كحافلة قديمة باركة في العراء.

دخل "أحمد الوكيل" بيت "نعم الخباز" بتلك الحقيبة المتسخة التي حملها على ظهره، وخرج بعد سنتين أكثر بؤسًا حاملًا الحقيبة نفسها بخوف وتردد وارتباك يمكن أن تراه في وجوه الغرباء والعمال غير الشرعيين الذين يتنقلون في الشوارع القريبة بحثًا عن أفق لهذه المغامرة، لم يكن "أحمد الوكيل" غريبًا فقط بل غريب الأطوار ومؤرقًا بالمخاوف.

كان قليل الكلام ويصلي كثيرًا ويفضل أن ينام على الأرض في حجرتها رافضًا أن ينام على فراشها.

كان بشكل عام يحرص على تفادي رؤيتها كلما أمكنه ذلك، ثم صار يقضي النهار كله في تلك الغرفة مع صديقه الوحيد "أبي عبد القادر"، متأهبًا لغسل الموتى المحتملين، أو يجلس حارسًا المسجد وغرفة غسيل الأموات ولا يعود إلا بعد أن يُنهي صلوات اليوم، ثم يدخل إلى فراشه مبتهجًا سعيدًا بأنه يتعرف إلى عالم المسلمين الصالحين الذين سيجدون له مخرَجًا من هذا الضيق، يفكر في ذلك ثم يندسُّ في اللحاف الغليظ ويتكوم في المساحة الخالية بين فراشها والحائط.

تحب "نعم الخباز" تلك الملابس الداخلية النسائية، ادخرت الكثير منها في جولاتها لاقتناص الملابس المستعملة، لكنها لم تستطع استعمالها بالشكل الذي حلمت به منذ وقت طويل، فمع محاولتها الأولى لإخفاء آثار الحريق

عن وجهها بالمساحيق التجميلية، والتنعُّم بتلك القطع الحريرية الملساء، أدار "أحمد الوكيل" ظهره لها وقال منزعجًا: "أنت عاملة إيه في نفسك..؟ أستغفر الله العظيم.. عاملة في نفسك كده ليه؟" لم يكن مظهرها مخزيًا أو قميئًا في الحقيقة، كان فقط لا يتسق مع حضورها الجسدي، ذلك الحضور الذي يستدعي في مخيلته فزعًا عميقًا بشكلٍ ما.

العلاقة بين "أحمد الوكيل" و"نعم الخباز" كانت تشبه تصادم جبلين من الجليد، يتقاربان فقط ليسحق بعضهما بعضًا، ثم ينسحبان بعد خسارة حتمية بفعل التنافر العميق بين روحيهما، فشلت "نعم الخباز" في جعله يسترسل في حديثه المقتضب أو يشاركها بعض أسراره التي توقفت عند سيرة طفولته في أحضان أم "حنان" وابنتها "زينب"، كل ما حدث بعد ذلك كان غائمًا وبعيدًا ولا يستحق عناء تذكُّره، لم تفلح أيضًا أن تجعله الرجل الذي أرادت، مقاولًا صغيرًا أو عاملًا نابهًا، لم تستطع أن تدفعه إلى عمل شيء في حياته بدلًا من التدخين والمواظبة على الصلوات والصمت، أفلحت فقط في اقتناص طفلين، أسمت الأول "جمال" لأنه البِكْر، بينما أسمت الولد الأخير "عمر" لأسباب لا تعرفها، ثم بدأت تشعر بأن زواجها كان قد حقق أغراضه، وإن وجود هذ الرجل غريب الأطوار في بيتها وضعٌ لا يمكنها احتماله.

بعد ثلاث سنوات اختفى "أحمد الوكيل" وترك بيتها بعد عدة انفجارات كلامية عبَّرت فيها "نعم الخباز" عن خيبتها في إصلاحه أو حثِّه على مشاركتها أحلامها، عبرت في تلك المشادات عن غضبها الذي صار متفجرًا ومتسلسلًا

مندفعًا بلا كابح، كان "الوكيل" يقابل ذلك الغضب في البداية بالصمت ثم بالهرب والسير في الشوارع حتى التعب، يعود بعدها لينام متوسدًا حقيبته ناعسًا في إحدى زوايا البيت أو أمام بيت "كريستال" المواجه لبيتها، يسير حاملًا تلك الحقيبة التي جاء بها على ظهره كمسافر قد أخفق في الوصول إلى محطته وظل عالقًا في شراك رحلته.

لم تتوقف في صبِّ لعناتها ورثائها لحالها وخيبة رجائها فيه، لم يكن صراخها وحالات غضبها التي تنفجر شيئًا جديدًا يستدعي اهتمام أحد في "الشمس المشرقة"، كان الغضب أيضًا جزءًا أصيلًا في هذا الجوار، وكثيرًا ما يندلع الغضب في البيوت القريبة ويتدخل البوليس أحيانًا ويتدخل الآخرون نادرًا ثم يحل الصمت؛ لذلك لا يكترث أحد للصراخ في البيوت المجاورة، ولم يكترث "أحمد الوكيل" أيضًا لعراكها المستمر ووجهها الذي صار أكثر غضبًا ومرارة، اعتاد في المساء أن يدخل إلى البيت متعبًا من البحث عن عمل، يلقي تحية مقتضبة ثم يدخل بهدوء إلى فراشه ويرقد مُسبِّحًا مكملًا أوراده، وفي المحادثات القليلة التي تدور بينهما والتي كانت غالبًا لتبادل النصح، تشرح له "نعم الخباز" نظريتها في التطور والتحايل على الرزق، والقدرة على طرق أبواب المقاولين الصغار الذين كبرت أعمالهم ونمت مثل زوج "كريستال"، وكان يحدثها عن الرضى وأهمية الصلاة وكيفية الوضوء وواجبِ كفِّ لسانها السليط عن إيذاء خلق الله، وتجرَّأ ذات يوم ونصحها بأن تغير طريقة ملابسها وكانت عيناه تتبعانها وهي ترتدي ذلك البنطلون الضيق الذي تعرف أنه يُبرز مفاتن مؤخَّرتها، تلك المؤخرة

كانت أهم موضع للفتنة في جسدها، الجزء الوحيد الذي لم يترهل بعد كل هذه السنوات من الكدِّ والتنظيف، نظر "أحمد الوكيل" إلى تلك المؤخرة ثم اقترب منها وقال هامسًا:

- ممكن اطلب منك طلب؟

ابتسمت نعم الخباز معتقدةً أن تلك النبرة الحانية مؤشرٌ جيدٌ لتقدم العلاقة، صمت "أحمد الوكيل" قليلًا ثم أكمل:

- أنا كأخ وقريب، أتمنى عليك طلبًا واحدًا... رجاءً لا تلبسي هذا الملابس الضيقة مرة ثانية.

قال ذلك بأدبٍ جمٍّ يناسب تديُّنه ووقاره، لكن "نعم" التي اصفرَّ وجهها فجأةً تلقفته بقدرتها البلاغية على احتقاره:

- يعني انت يا أخويا لم تجد في هذا البلد حد كاشف مؤخرته غيري؟.

ينسحب "أحمد الوكيل" بعد تلك المناقشات القصيرة المعبرة التي ينهزم فيها كل مرة أمام نظراتها المتحفزة، ثم يدخل إلى منامته التي صارت بعيدة قليلًا عن فراشها، بينما كانت "نعم" تفكر في كلمة واحدة رددها الوكيل بتَأنٍّ وإصرار (أنا كأخ وقريب) كان ذلك يعني أن وجود عقد القران الموثَّق بواسطة الإمام لا يمثل له أي قيمة أو دلالة عاطفية، وأنها تستضيف في بيتها هذا الرجل كأخ وقريب فقط وإلى ما لا نهاية؟، بعد تلك الجملة التي صار "الوكيل" يرددها بيقين: "أنا كأخ وقريب" تحولت علاقتهما تدريجيًّا إلى مزيجٍ من الاحتقار والكراهية المتبادلة.

تسبب "أحمد الوكيل" بشروده وصمته وعزوفه عن الاقتراب من فراشها بتدمير صورتها المتخيلة كعاشقة ومحبوبة، تلك الصورة التي تجسد طموحها الأصيل، الصورة التي سعت إليها طوال حياتها، الصورة التي قد ترمم بعض جروحها القديمة، اكتشفت أيضًا أن "أحمد الوكيل" لا يصلح للمعاشرة، وأنه ما زال ذلك الجرو الصغير الذي يركض في الحقول هربًا من كوابيسه، وأنها لا تشبه أيًّا من النساء اللاتي تكدَّسن في ذاكرته، لم تكن أُمًّا ولا حبيبةً ولا امرأةً عَطُوفًا ترتق مواجعه، وتأكد الوكيل أن "نعم" قادرة على التحول إلى عقرب شرسة بسرعة مذهلة، ترفع ذيلها السُّمِّي وتتحفز في مواجهته بانتظار معركة موشكة.

صارت "نعم" تدرك بالتدريج أن "أحمد الوكيل" مجرد رجل خائب في الحياة والفراش معًا، وصارت تتعمَّد إهانته وتشعر بالمتعة في ترديد جملتها المفضلة في تدليل طفليها: "يا خايب يا بْن الخايب"؛ انكمش "أحمد الوكيل" وتقلص وجوده إلى أقصى مساحات التقلص، صار يُفيق مبكرًا ويعود متأخرًا ويقضي وقته مفكرًا في الفرار، وظلت "نعم" ترتب للحظة الانقضاض عليه، وتستعد لتلك اللحظة التي ستدفع فيها باب الغرفة التي صار يتقاسمها مع طفليها، وتقف فيها فوق رأسه وهي توقظه، تقف بسروالها الضيق وتعطي مُؤخَّرتها لوجهه وهي تستعد للانقضاض على ما تبقى من كرامته قائلة: "أنت يا أخويا.. قوم شوف لك شغلة.. أنا مش فاتحة البيت سبيل.. طلقني، وفضت فضيناها".

عندما عادت في المساء كان اختفاء "أحمد الوكيل" يؤرِّقها قليلًا، أقنعت

نفسها بأنه سيتسكع كعادته مع مجاذيب الدفن الشرعي في مغسلة الموتى وبعدها سيعود، لكنه لم يعُد، ولم يطرق الباب، اختفى إلى الأبد.

قال "أبوعبد القادر" إن "أحمد الوكيل" صرح له في آخر لقاءاته بأن امرأته "نعم الخباز" طالق بالثلاثة وبعد ذلك لم يرَهَ في الجوار، سمع من البعض أنه كان يبحث عن القاطرة التي تقلُّ عمالًا مثله للبحث عن الذهب في الجبال، وأنه ربما ترك "الشمس المشرقة" إلى الأبد ؛ أثارت استجابته السريعة لترك الجمل بما حمل دهشة ونقمة "نعم" التي ظنت أنه أكثر عجزًا من اتخاذ ذلك القرار، فصارت تردد تلك العبارة التي ما زالت ترددها والتي تكشف عن حسرتها العميقة: "عامل نفسه أبو حنيفة وفاكر نفسه راجل.. ده خرقة مسحت بها جزمتي".

انشغلت "نعم الخباز" بعد ذلك باللِّهاث خلف بعض المساعدات الاجتماعية التي كانت تقدمها "وحدة إغاثة الأُسَر المنكوبة" للأمهات المُعِيلات، تركض في النهار في شقوق "الأرض المشرقة" وتجلس في الليل لتتحدث عن حملها الثقيل في إعالة الولدين اللذين ربما لن يتأثرا كثيرًا بفقده، فقد كان على أية حال خائبًا وقليل الحيلة.

حاولت أيضًا أن تكون أُمًّا نموذجية ومؤمنة بقضاء الله كما أراد لها "ابن الوكيل" قبل أن يرحل، فقد صارت تقضي بعض الأوقات جالسةً على الأرض، تضم ساقيها وتغطي شعرها ثم تدفع ولديها للجلوس حولها وهي تردد بعض السور القرآنية التي لا تزال تتذكَّرها "سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ

لَهَبٍ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ".. تحفظ "نعم" الفاتحة وعدة سور قصيرة أخرى وتحرص على تعليمها للشابين الصغيرين لتثبت لنفسها أنها قادرة على متطلبات الأمومة، كان "عمر" عادة هو أول المتقاعسين عن استكمال الجلسة، يدفعها بساقه مباغتًا ويقول:

- أنت مجنونة تمامًا وانا مش عايز احفظ ده؛ تجذبه من ملابسه وتدفعه للجلوس:

- اقعد يا بْن الكلب أمَّال ح تعرف تصلِّي ازاي؟.

- لا أريد أن أصلِّي، يجيب "عمر" ثم أكمل:

- أنا مش عايز أصلي.. يعني أنتِ بتصلي؟، تضربه على يده بخفة وتقول:

- أيوه يا بْن الكلب باصلي على الأقل باعرف.

يرفسها "عمر" بقدمه في كل أنحاء جسدها، يسدد ضرباته إلى وجهها بساقه النحيلة، وجسده يهتز بين يديها وهو يحاول أن يتحرر من أسرها، وحين ينجح في الإفلات من يدها، يركض إلى فراشه ويختبئ تحته في العتمة ويختفي طويلًا بينما يكون "جمال" قد تحرر من يدها بالفعل بعد أن نال حظه بلسعة مجانية من حذائها الخفيف، فتُنهي درسها الإجباري بقولها:

- قوموا يا ولاد الكلب إن شالله ما تعلمتوا.. ح تطلعوا لمين يا بْن الكلب منَّك له.. لأبوك الخايب ولَّا أمك المتعوسة؟.

بعد أن كبرا قليلًا، تحول كل نقاش تحاول فيه "نعم الخباز" ممارسة واجباتها

التربوية إلى معركة حقيقية تبدأ برفس الأقدام باتجاه جسدها، ثم تتطور إلى اشتباكات يتم فيها تبادل الألفاظ الحادة والصراخ والركلات المتبادلة، ثم تنتهي المعركة بتدخل الجارات مثل "كريستال" و"سوزانا" وغيرهن؛ لفَضِّ تلك المناوشات ثم مشاركة "نعم" في حسرتها على الأبناء الخائبين.

***

(3)

سُرَّة الأرض

إذا كنت من سكان "الشمس المشرقة" ووقفت على الخليج ثم رفعت رأسك باتجاه إلى الشمال سترى كيف توسعت "الجنة الأبديَّة" وتلألأت حولها عدة منتجعات سكنية جديدة نُحتت في الجبال الشاهقة، صار سكان السفح ينظرون إلى السماء أكثر لمراقبة الفروق المعمارية التي يمتاز بها كل منتجع جديد، يتأملون الحافة الشرقية التي تطل منها جنة عَدْن، وتلال الجنة، ثم يتحولون إلى الحافة الغربية حيث يطلُّ منتجع وادي الجنة الأبديَّة، وإلى جانبه نسمات الجنة.

توسعت "الشمس المشرقة" أيضًا في السفح باطِّراد من دون أن يلاحظ ذلك أحد، تكدست فيها البيوت الخشبية المتجاورة، ولكنها رغم ذلك التوسع استطاعت الاحتفاظ بطابَعها الطبوغرافي الفريد باعتبارها مجرد منخفض قارِّي يتوسط سلسلة من الهضاب والتلال الخفيضة والصخور

النارية، ربما كان هذا المنخفض في زمن ما امتدادًا جغرافيًّا للساحل الغربي للمحيط ثم جف، وأصبح مجرد تجمُّع سكني يتدرج على منحدر. تتوسع "الشمس المشرقة" في التلال لكن يظل قلبها النابض بالحياة متصلًا بذلك القاع المتكدس بالبشر. يطلق البعض على ذلك القاع "سُرَّة الأرض" والبعض يطلق عليه "خزَّان الخراء"، فالبيوت تنحدر من السفح المشرف من بعيدٍ على الخليج وتنزلق التربة تدريجيًّا لتصبح أكثر انخفاضًا وصولًا إلى هذا الحي العريق أو "سرة الأرض".

يكتسب الحي أهميته بوصفه مركزًا قديمًا لكل شيء، مركزًا للبيع والشراء والتفاوض والتلصُّص، والتخفِّي.

يتأسس الحي على بيوت خشبية قديمة تتحلق حول قاعٍ رطبٍ أو مستنقعٍ آسنٍ تتجمَّع فيه أمطار المواسم الصيفية الكثيفة لتشكل عددًا من المستنقعات الصغيرة، تلتحم تلك المستنقعات في نقطة أكثر عمقًا لتصبح تجمعًا للمياه الراكدة، يطلقون على تلك النقطة التي تتجمع فيها مياه المستنقعات الضحلة "بحيرة"، على حواف ماء البحيرة الآسن تفرخ أسراب العقارب والنمل الأبيض، ورغم روائح الماء الراكد فما زال سكان "الشمس المشرقة" يحتفلون بامتلاء هذه البحيرة ونضوبها باعتباره أحد طقوس التجدُّد وتغيُّر الفصول، ويعتقد البعض أن تلك البحيرات تلطف حَرَّ الصيف القائظ، وأن الطبيعة لم تحرمهم من بعض المناظر الطبيعية؛ فذلك الماء الراكد يشبه في النهاية بشكلٍ ما تلك البحيرات الصناعية التي تنتشر بين البيوت الجبلية فوق في "الجنة الأبديَّة".

توسعت "الشمس المشرقة" بطُرُقها العشوائيَّة حول "سُرَّة الأرض"، وأصبح لها عدة جيوب عرقية متباينة، وبعد أن كانت تلك المقاطعة مجرد بيوت متنقلة على المنخفض، أصبح هناك عدة أزقَّة تزدحم بالوافدين، وتكتسب مع الوقت مسميات شمسية متعددة، مثل عين الشمس، والجحيم الشمسي، ووادي الشمس الوردي وغيرها من المسميات التي كانت تحدد هُويَّة سكانها، الذين يتكاثرون ويتغيرون ويتمددون بين الشاحنات والبيوت المتنقلة والأكواخ الخشبية التي تلاصق بعضها البعض وتؤهل سكانها إلى الاندماج القسري.

ومع توسُّع المقاطعتين، "الشمس المشرقة" التي تحتل القاع و"الجنَّة الأبديَّة" التي تسكن قرب السماء كانت المفارقات الجغرافية تصنع أيضًا ظلالها على الوجود، فعلى الرغم من المسافة النوعية بين سكان التلال وسكان منخفض "الشمس المشرقة" فقد كانت الطبيعة عادلة في توزيع غضبها، فبينما عانى سكان الشمس المشرقة، الرطوبةَ والملوحةَ التي تتركها هبَّات الخليج والبحيرة معًا على بيوتهم، وتحدثوا حول مشكلة محطات المياه التي لا تعمل بكفاءة، وعن لون الماء الطيني الذي يصل إلى البيوت محملًا بالملوحة والرواسب، وتقدموا بالشكاوى التي لا يرد عليها أحد، وعن مواسم العواصف التي يزيد فيها منسوب الماء في الخليج ويفيض على بعض البنايات في وسط المدينة، وعن كلاب البحر النافقة والتي تظل على شاطئ الخليج حتى التحلُّل، ثم تقذف روائحها الثقيلة إلى البيوت، وتذمروا من تلك الغرامات التي تتقاضاها المدينة بسبب النُّفايات التي تتكدس كل يوم أمام الأزقة، ثم تشارَكوا المخاوف من الجثث التي تُكتشف

في الضواحي الجبلية لغرباء غالبًا ضلوا طريقهم في محاولات التسلل. كان سكان "الجنة الأبديَّة" أيضًا في الوقت ذاته يناقشون على المحطات التلفزيونية المحلية مشكلة بعض الانهيارات الجرفية في الجبال، واندلاع الحرائق الموسمية بسبب البرق، وتجديد مهابط الطائرات فوق المنتجع، ويتجادلون حول وضع الكاميرات في الطريق الجبلي، فبعد أن تم التصويت على إلغاء الكاميرات لدواعي الخصوصية، أعاد مجلس أمناء سكان "الجنة الأبديَّة" النظر في ذلك القرار مطالبين بتمويل جديد لتكثيف كاميرات المراقبة في الطريق الوحيد بين السفح والجبل لدواعٍ أمنية، تم ذلك الإجراء بعد عدة حوادث مؤسفة قام بها بعض المتسللين، من بينها حادثة الهالُوِين (عيد الرعب)، وهي حادثة اختطاف ظلت الصحف والمحطات المحلية تتحدث عنها لعدة أشهر.

كان ذلك منذ عدة سنوات أثناء الاحتفال بالخريف، تم تزيين البيوت في الجبل والسفح لأسباب مختلفة وبأساليب متنوعة، بينما استعدت "الجنة الأبديَّة" للهالوين، وتبارَى أهل الجبل في بناء بيوت الأشباح، وتزيين الأبواب بخيوط العنكبوت والجماجم، وانتشرت حبَّات اليقطين البرتقالي وتم تفريغها ونحتها لتضيء ليلًا بالشموع، وانشغل بعض الأثرياء بنصب متاهات الذرة ليلعب الأطفال فيما يشبه حقول الذرة لعبة الاختباء والاحتفال بموسم الحصاد.

لم يكن أهل السفح ولا الجبل يمارسون الزراعة أو يراقبون مواسم الحصاد لأسباب تتعلق بالطبيعة الجغرافية للأرض، لكن ذلك كان أيضًا انشغالًا فلسفيًّا بعملية الخلق والتجدُّد.

في ليلة الهالوين والتي تواكب أسبوع الاستعداد أيضًا لعيد الموتى والمخصص للاحتفال بالأرواح العائدة، كانت بيوت "الشمس المشرقة" في السفح مشغولة بجَدْل الأزهار، وتزيين المقابر وعمل الكعك المزين بالجماجم، وطبخ التومالي وبعض الأكلات الشعبية الأخرى استعدادًا لزيارة الأرواح السنوية والاحتفاء بحضورها، وكان الجبل مشغولًا بطرد الأرواح نفسها وإخافتها بتلك المشاهد المفزعة التي تصدُّ الأرواح وتعيدها إلى حيث جاءت.

ينتظر أطفال "الشمس المشرقة" ذلك اليوم أيضًا للتكدُّس في الشاحنات في جماعات كبيرة بملابسهم التنكرية والصعود إلى مداخل منتجعات "الجنة الأبديَّة"، حيث يمكنهم التباري في الاستيلاء على أنواع الحلوى التي ينتظرونها طوال العام.

قبل الحادثة كان سكان "الجنة الأبديَّة" يُبدون أشكالًا من الابتهاج والترحيب بمجموعات الأطفال لكنهم لا يفتحون مع ذلك أبواب البيوت، ويتجنبون ملاقاة الأطفال بتركِ جبالٍ من قطع الحلوى أمام البوابات تحت لافتة "خذ واحدة فقط من فضلك واترك للآخرين حظهم"، ذلك التنويه لم يكن ملزمًا لفرَق الانقضاض على الحلوى؛ لأن عمليات الوصول المبكر في الشاحنات للسطو على الحلوى كانت تتم بطريقة مدبرة ومُحكمة، يتسابق فيها أطفال "الشمس المشرقة" في السرعة والكفاءة في الاقتناص، ثم يعودون مثقلين بما استطاعوا حمله، يعودون بالغنائم حيث يتجمع الكثيرون حول مقابرهم.

تنقضي الاحتفالات بشكل عام بين تجمعين، حلقات النساء التي تشعل الشموع وتزين الأزهار على المقابر وحلقات يتجمع فيها الرجال أمام البيوت يتبادلون زجاجات الجِعَة والكُحُوليَّات، كان ذلك قبل أن تختفي "مورجان"، والتي كانت تمارس الركض ذلك المساء ثم اختفت على الممر الجبلي المعد للركض في ممرات هضبة "سنام الجمل"، لكنها لم تعُد، اختفت "مورجان"، والتقطت الصحافة المحلية صورة لوالديها وهما يقفان على الجسر الذي شوهدت آخر مرة عنده وهما يحملان صورتها، شقراء صغيرة دقيقة الملامح مرفهة، ترتدي شورتًا قصيرًا وحمالة صدر وتبتسم في وداعة مثل دُمْيَة جميلة.

طُبعت صورة "مورجان" بالألوان وَلُصِقَتْ على كل الجدران والأشجار من السفح إلى الجبل، نتائج التحقيق كشفت بعد عدة أشهر من العثور على رفاتها أنها اختُطِفت واغْتُصِبت وَدُفِنَت بقايا جسدها في أحد الممرات الجبلية؛ أصابت الصدمة الجميع، وكانت أصابع الاتهام تُوجَّه دائمًا إلى المتسللين، لكنهم لم يعثروا على دليل يشير إلى ذلك.

لم تكن تلك الحادثة العامل الوحيد الذي دفع مجلس أمناء "الجنة الأبديَّة" لتمويل تركيب الكاميرات على كل ممرات الطريق الطويل الذي يفصل السفح عن الجبل، بل كان أيضًا وراء إقامة تلك البوابات الضخمة التي انتصبت في ممرات الطريق، تلك البوابات التي لم تعُد تسمح بدخول عربات النظافة والصيانة إلا بعد التحقُّق من الهُويَّات، وإعطاء التصاريح المؤقتة للدخول إليها، سببت تلك الحادثة قلقًا عميقًا لسكان هضبة "سنام الجمل"

أيضًا التي كانت قريبة بشكل كبير من حدود "الشمس المشرقة"، لكنهم اكتفوا بنظام مراقبة جماعي بين الجيران، بينما قرر سكان "الشمس المشرقة" ردًّا على ذلك تجاهل الاحتفال بالهالوين وإلغاء رحلات الصعود الموسمي لجني الحلوى، والاكتفاء بالاحتفال بأيام الموتى الثلاثة وبحلوى السكر الرديئة والتومالي وعرائس الكاترينا والجماجم والشموع والأرواح الطيبة التي تزورهم، رغم كل شيء، وتترك خلفها تلك الذكريات القديمة.

***

تسكن "ميمي دونج" في قلب "الشمس المشرقة" في تلك المنطقة التي يطلقون عليها "سُرَّة الأرض"، بيتها يطلُّ على البحيرة الراكدة، تقف في شرفتها فيتطلع الرجال من النوافذ إلى صدرها المكشوف وسراويلها القصيرة التي لا تستر شيئًا، يحب شعب "الشمس المشرقة" تأمل جسدها من بعيد. الذين عرفوا "ميمي" كانوا يعتقدون أنها مؤهلة لاستثمار جسدها بطرق متعددة، وكانت تعتقد أيضًا أن ذلك الجسد هو ثروتها الوحيدة التي ورثتها من رحمِ امرأةٍ لا تجد ضرورة في تذكُّرها.

كانت "ميمي" دَكْنَاء اللون، أفريقية، جميلة، طويلة ونحيلة وتملك وجهًا يثير الرغبة والحنق في آنٍ، بشرة سمراء ناعمة مثل الحرير المرهف، وعينان لوزيَّتان وشفتان ممتلئتان محددتان مرسومتان بدقة.

لم يكن جمالها الأفريقي على أية حال جمالًا مريحًا، كان فقط يثير الحنق بخاصة نظراتها المتعالية المتحفزة كربَّةٍ ناقمةٍ سلبتها الآلهة مملكتها المفقودة.

تتحدث قليلًا وتستطيع أن تجعل عشاقها المحتملين أكثر امتنانًا؛ لأنها قبلت الحديث معهم، كما أنها ترفض أن تنام مع عشاقها المؤقتين بمقابل مادي، ولا تقبل أن تعري جسدها بمقابل أيضًا.

ويعرف الرسامون الجوَّالون على شاطئ الخليج أنها لن تخلع ملابسها، ولن تسمح لهم برسمها حتى لو ركضوا خلفها وهي تسير حافية على الرمال، وكرروا على مسامعها: "سأرسمك مجانًا أيتها الجميلة، أنت جميلة جدًّا أيتها الفتاة". تضحك "ميمي" وتهز رأسها كربَّةٍ تمنُّ على الوجود بحضورها، تهزُّ جدائلها الصغيرة حول وجهها وتتركهم يركضون خلفها.

كانت تعرف أنها أجمل إذا ارتدت ملابسها المرقطة ذات الدرجات البُنية التي تناسب بشرتها، وإذا وضعت عقود الفل الأبيض فوق صدرها ومشت بخفة على رمال الخليج، أو مددت ساقيها على الصخور العالية كربة من ربات الجُزر البعيدة، ربما يتوقف قليلًا حول حضورها العابرون الذين يروضون كلابهم على الشاطئ، لكن ومع هذا الحضور الأنثوي، لم تستطع أن تتجاوز استثماراتها الفعلية لجسدها حدود ذلك المشهد، اكتفت بتلك المغازلات وبعض العشاق المؤقتين الذين تختارهم بحمق من قطيع العمال غير الشرعيين والباعة المتجوِّلين المتسكعين على شاطئ الخليج.

لم تحظَ بعروض أفضل من ذلك على أية حال، ولم تكن تلك العلاقات العابرة استثمارًا ناجحًا يُمكِّنها من سداد فواتير وتكاليف معيشتها؛ بخاصة وأن عمرها قد تخطى السن المطلوبة للدعارة المربحة التي تبدأ بعد العاشرة بقليل في تلك الأنحاء.

قبل أن تعرف طريقها إلى "سرة الأرض" جاءت "ميمي" من بلادها كطفلة ناجية قادمة مع إحدى إرساليات الكنيسة، وعاشت طفولتها في بيت صغير ملحق بالكنيسة، خُصِّصَ لاستقبال عددٍ كبيرٍ من الأطفال الناجين من الحروب، أُطلق عليه بيت "أطفال القلوب الناجية".

كانت كنائس الجبل في ذلك الوقت تقوم بأعمال خيرية متعددة لإنقاذ تلك القلوب، وتواظب على إرسال البعثات والإرساليات التي استهدفت في وقتٍ من الأوقات قلب القارة الأم.

كان البحث عن القلب المقدس في الأدغال الأفريقية آنذاك يبدو هدفًا أسمَى من مساعدة المتسللين الذين ضلُّوا طريقهم في الصحراء القريبة، في واحدة من تلك الإرساليات التبشيرية استطاعت بعض الكنائس في الجبل القيام بحملة إنقاذ لعدد من أطفال الحرب بين شمال وجنوب السودان، ونجحوا في إنقاذ واستضافة سبعة عشر طفلًا من جنوب النهر، تلك المنطقة التي تعرضت إلى أعمال تطهير عرقي مدمر؛ أرسلت الكنيسة مبعوثيها الذين عادوا بهؤلاء الناجين، وبفضل تبادل العمل الخيري بين كنائس السفح والجبل أُرسِلَ هؤلاء الأطفال إلى إحدى كنائس "الشمس المشرقة" للاعتناء بهم.

أقامت الكنيسة وحدة سكنية ملحقة بمكاتبها ووضعت لافتة صغيرة لما أُطلق عليه وحدة غَوْث اللاجئين (القلوب الناجية)، ولإدارة توسعات العمل الخيري عُيِّنَتْ بعض المشرفات لرعاية الناجين، وبفضل تلك الرعاية فقد كبر الأطفال بين المطابخ وقاعات الكنيسة وطرقات "الشمس المشرقة"،

لكنهم لم يستطيعوا الحفاظ على قلوبهم المقدسة نقية تمامًا، فبعد بضع سنوات هرب معظمهم إلى الجبال، أو قارعة الطرق، والتحقوا بالقوافل التي تحمل العمال إلى مزارع الكروم الجبلية، أو مصانع تقطير النبيذ بجوار الميناء البري، وانخرطوا في تلك الأعمال التي تحتاج إلى أيدٍ عاملة رخيصة، واشترك بعضهم في التجارة الحدودية العابرة للقارات، ومَن تبقَّى من فتيات التحقن مبكرًا للعمل بالدعارة في البارات الصغيرة، وبقيت "ميمي دونج" ناجية وحيدة لم تُفلح في الهرب، كبرت وكان عليها أن تجد طريقها فسكنت في أحد البيوت الخشبية المطلة على البحيرة.

في الثامنة عشرة تركت "ميمي" غرفتها في وحدة غوث القلوب الناجية ونزلت إلى أرض "الشمس المشرقة"، حاملةً معها بقايا الشموع الذائبة، وصور العذراء وهي تحمل وليدها، وبعض المجسَّمات الجصيَّة للملائكة، وبدأت في البحث عن عمل قد يؤهلها للحياة.

بيت "ميمي" لا يفصله عن بيت "نعم الخباز" سوى بعض النتوءات والحُفَر والبيوت الخشبية المتنقلة حول البحيرة التي تتوسط "سرة الأرض"، لكن رغم ذلك التجاور فقد ظلت المسافة بينهما بعيدة؛ حرصت "ميمي" على أن تظل علاقتها بنعم محدودة وسطحية وعابرة رغم كثرة التقاطعات، ورغم أنهما ترافقتا عدة مرات في حملات التنظيف، فإن تلك الزمالة تمَّت بشكل عابر ومتقطع ولم ترقَ إلى مستوى الصداقة ولم تترك خلفها سوى النفور المتبادل.

كانت المفارقة هي الشيء الوحيد الذي يجمع بينهما، فبينما كانت "ميمي"

جميلة ومحبوبة ومرغوبة كانت "نعم الخباز" تعاني قلَّةَ حظها في الرجال الذين يخذلونها ثم يهربون منها ويختفون في الجبال ويقتلون أنفسهم في النهاية، وبينما كانت "ميمي" مُتعالية ومُترفِّعة وتملك من عزة النفس ما يثير الحنق عليها لأنها دائمًا قانعة بذاتها، لا تتودد لأحد، ولا تبدو منتبهة بالضرورة لوجود الآخرين، كانت "نعم الخباز" لَحُوحًا ومتطلعة وراغبة أبدًا في فتات تلك الحياة، تدربت منذ طفولتها على مواجهة العالم بتلك النظرات المتسولة وتفننت في استخدام مهاراتها لإثارة الشفقة بخاصة في الأسواق الخيرية، والكنائس، ومَحالِّ الطعام الرخيص، وأرصفة الباعة المتجوِّلين، تبدأ مشهد التسول بالبحث طويلًا في حقيبتها عن "كوبونات" الطعام، ثم تحاول عدَّ بعض العملات المعدنية بحرصٍ وتَأنٍّ لتوحي بما تود إظهاره من بؤس، تسأل كثيرًا وتنظر إلى البائع تلك النظرة المنكسرة التي تستعملها باحتراف، فيعطيها الكثيرون تعاطفهم المصحوب بمشروب مجاني أو تساهل في قبول "الكوبونات" التي عادةً ما تكون منتهية الصلاحية.

استنادًا إلى تلك المفارقات كرهت "نعم الخباز"، "ميمي" ولم تُخفِ ذلك، كانت تكرهها بالتأكيد لأنها جميلة وأنيقة ومشتهاة، فمنذ أن شبَّت وبلغت محطات الأنوثة المبكرة وهي مثار للحسد، ولا تكفُّ عن التحصُّن بالتمائم والصلوات لكي يحفظ الرب عليها قوامها الطويل الممشوق وجسدها الذي يثير الانتباه بتفاصيله الأنثوية، وابتسامتها التي تخطف القلوب.

كانت "ميمي" أيضًا أميرة، كما تقول، فاسمها الذي جاءت به كان "ميمي مليك دونج" وهي تحب أن تضع هذا الاسم الأوسط كلقب "مليك"، تقول

إن جدَّها كان سلطانًا وزعيم قبيلة كبيرة أسفل النهر، رغم أنهم لا يصدقون ما تحكيه عن ذلك الماضي البعيد، ويعتقدون أن تلك السلطنة الوهمية هي مقاطعة صغيرة في تلك البلاد كان لها ما يُطلق عليه "سلطان"، لكن مُلكه لا يتجاوز أكثر من خيمته التي يحكم منها على أبقار قبيلته.

الذين اقتربوا أكثر من "ميمي" قالوا إنها حقًّا أميرة؛ فهي تمتلك من عزة النفس ما يؤهلها إلى ذلك، صحيح أنها كانت طفلة في التاسعة حين جاءت مع عدد كبير من اللاجئين الذين بقوا في قيد الحياة بعد عدة مجازر، لكن "الأب فرانسيس" قال في إطار التعريف بها عندما دخلت كنيسة القلب المقدس كقطة خجلة، إن رجال قبيلتها كانوا يحكمون أرض الغابة الكامنة بين شمال وجنوب السودان، بل إن السلطان والدها كان مسيحيًّا مخلصًا وأن عهده كان هدنة وردية بين تلك القبائل، وأن المجزرة التي قُتل فيها كانت الشرارة الأولى لتلك اللعنة التي انفجرت بين الشمال والجنوب، لكن ذلك التاريخ غير المؤكَّد لم يعُد يمثل شيئًا لها، فحروف اسمها لم تعُد تمثل في النهاية سوى صورة عاملة نظافة تترك كروتًا صغيرة أينما حلَّت ليتذكر البعض خدماتها المنزلية.

***

بعد دفن "جمال" بعدة أيام خرجت "نعم" من بيتها وحيدة، شاهدها بعض الجيران وهي تسير باتجاه بيت "ميمي دونج"، عبرت على قدميها تلك الفراغات التي تلتهمها الشمس القاسية، وطرقت الباب حتى جرحت يدها التي كلَّت من روائح المنظفات وقسوة الأسطح الخشنة، ضمت يدها

وابتعدت بظهرها عدة خطوات لتقتل الانتظار، ولتسمح لجسد ميمي أن يكون في مواجهتها، وفي مواجهة الباحة الرملية التي تتشارك فيها تلك الأبواب المغلقة أيضًا،.. تحب نعم المشاهد المفتوحة، تحب الترقُّب الذي يصاحب معاركها.

توقف بعض العمال العابرين لمتابعة المشهد، وخرجت بعض صديقاتها المقربات مثل "سوزانا" و"فاطيما" و"كريستال" ووقفن على مقربة منها، اكتفى الآخرون بالتلصُّص من النوافذ على تفاصيل المواجهة المرتقبة، كانت "ميمي" أيضًا قد استعدت لتلك اللحظة بما ادخرت من قدرة على اللامبالاة، فحين سمعت تلك الطرقات رفعت رأس "سليم النجار" الذي كان ينام فوق صدرها، تركته على الفراش يدفن رأسه في الوسادة ويحاول نسيان الأمر برُمَّته، تركت أيضًا شعرها المشعث بلا محاولة لإصلاحه، وتركت شق ثوبها مفتوحًا يكشف مفرق صدرها حتى سُرَّتها، فتحت الباب وأمالت جسدها مستندةً على ذلك السياج الخشبي الذي يحيط بمدخل البيت.

كانت "نعم" قد ابتعدت قليلًا لكنها لا تزال تقف في مواجهتها تمامًا تحت تلك الشمس الحارقة، بتلك الملابس السوداء وتلك الندوب في شق وجهها التي أضفت على ملامحها مزيدًا من الكآبة، وقفت وحيدة ومكلومة وبائسة، تركل الحجارة بحذائها الضخم، وتلقي باتجاه "ميمي" مجموعة منتقاة من قاموس شتائمها، ثم علا صوتها بتلك الدعوات المخلصة: "الله يحرق قلبك.. كما حرقت قلبي على ابني".

كان قلب "ميمي دونج" قد احترق كثيرًا ولن يجد الرب فيه موضعًا

للكَيّ أو الشقاء، فلم تردّ، انحنت فقط على حافة السياج الخشبي فانفرط ثدياها من فتحة قميصها وهما ينزّان بما يشبه اللبن المتخثر، ثم انزلقت قطرات الحليب من حلمتيها وبلّلت السياج، ابتسمت ببؤس لتورُّطها في تلك المأساة التي لا تعتقد مطلقًا أنها كانت طرفًا فيها.

قالت "نعم الخباز" كلامًا كثيرًا تخللته عبارات جنسية انتقتها بعناية لتسدد بها ضربتها الهجومية الأولى، ثم أدركت بسرعة أن تفحُّشها البلاغي هذا قد لا يتناسب مع مظاهر حِدَادها، فتلفتت حولها لتستكشف حلقة المتفرجين، ولتتمكن من تبديل نبرة صوتها لتخلق جوًّا من التعاطف بالحديث عن خيبة أملها، وضناها، والعاهرة التي كسرت قلبه.

قبل أن تختم "نعم الخباز" مشهدها النهائي بدموعها التي انفجرت بضراوة، قالت لميمي بلوعة حقيقية خالية من كل مهارات التصنُّع: "يا قحبة أنت لم تكوني أُمًّا لتعرفي حرقة فَقْد الضنا"، قبل تلك الجملة كانت "ميمي" لم تزل محتفظة بوقفتها اللامبالية، تتحسس صدرها وعنقها وجفنيها بكفِّ يدها في محاولة للخلاص من هذا الكابوس، بعد تلك الجملة لم يكن من السهل التحكم في طرق الاستجابة لفيضان المشاعر المتناقضة التي تسللت للمتفرجين، ورغم أن "نعم" قد تفادت النظر إلى وجه غريمتها في تلك اللحظة، فإنها لاحظت كيف تحولت مقلتا "ميمي" السوداوان المحدقتان في الفراغ إلى جمرتين محتقنتين وقانيتين.

مرت لحظة صمت عابرة، ضمت "ميمي" فيها يديها حول صدرها بقوة، ثم قالت بنبرة حازمة ومتعالية أيضًا: "اذهبي إلى بيتك يا نعم..

أنت متعبة.. وأنا أيضًا". سكتت قليلًا ثم أكملت: "لقد كان شابًّا جميلًا وقد ارتاح من عذاباته"، وقبل أن تفتح "نعم" فمها لترد، أنهت "ميمي" المشهد بقولها بلهجة آمرة: ".. عودي إلى بيتك"، قالت ذلك ثم دخلت إلى بيتها وأغلقت الباب خلفها، لكن صوت "نعم الخباز" كان يعبُر إليها من شقوق الخشب وهي تنعتها بالعاهرة والزُّنجيَّة النجسة والكافرة التي تلحس قضيب الرائح والغادي.

تملك "نعم" في لحظات غضبها شهيَّةً للتفحُّش، وقدرة على مواجهة الألم بتلك الروح العدوانية التي تتحول إلى سُعار من الغضب، تحب "نعم الخباز" اللحظات التي تلي معاركها، تشعر أنها قد تحررت من كل ما يُثقلها من غضب.

بعد تلك المعركة قضت "نعم" أيام حدادها الطويلة جالسةً أمام باب بيتها بانتظار عبور واحدة من صديقاتها المقربات لتعيد رواية هذا المشهد لها، تعيد روايته كل مرة بعد إضافةِ قدرٍ من التشويق والعبارات المؤثرة التي يتخللها الدعاء الأثير بحرقة القلب؛ كان قلب "نعم" قد احترق تمامًا بدوره، وأصبح مثل البيوت التي مرت عليها الكثير من الفجائع، فاكتفت مرحليًّا بتلك المواجهة الوحيدة مع غريمتها لأن كلتيهما كانت عاجزة عن خوض أي مواجهات أخرى، لكن تلك الهدنة لم تمنعها من اجترار اسم "ميمي" في كل جلسة من جلساتها ملحوقًا باللعنات كلما أمكنها ذلك.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تقتحم فيها "نعم الخباز" بيت "ميمي دونج"، حدث ذلك عدة مرات عندما كان "جمال" أصغر، حينما اكتشفت

"نعم" تلك العلاقة التي لم تفهمها، خرج "جمال" حاملًا حقيبته غاضبًا كعادته بعد عدد من المُشادَّات، ثم غاب، قضت "نعم الخباز" الليل في انتظاره، بعدها طرقت كل البيوت المحتملة التي يهرب إليها، ثم عرفت طريقها إلى بيت "ميمي دونج"، وقفت طويلًا أمام البيت وهي تنادي عليه بلغتها المعهودة: "اطلع يا حفنة الخراء من بيت هذه المرأة"؛ انتفض "جمال" وقفز ليرتدي ملابسه التي كانت ملقاة على الأرض، ثم فتح الباب الذي دفعته "نعم" بغتة لتشاهد "ميمي" عاريةً في فراشها، لم تستطع "نعم" أن تغلق فمها كانت تضحك وهي تتجول متوقعة أن تجد آثار الجريمة، بقايا زجاجات الڤودكا، أو أعقاب السجائر أو بعض الواقيات الذكرية المستعملة الملقاة بجانب الفراش، لكنها لم تجد ذلك، بل وجدت فقط على وجه "جمال" بعض آثار مساحيق التجميل النسائية، وفي عينيه بقايا قلم الكحل الذي مسحه على عَجَل، لكن آثاره ما زالت عالقة بحاجبيه، لم تستطع "نعم" أن تفهم ما الذي كان يدور خلف الباب وربما أنكرت ذلك الخاطر، لم تكن تود أن تعرف ما يُفزعها عن ميول بِكْرها الجنسية أو طبيعة علاقته بالنساء، لكنها دفعت الباب قليلًا لتكون بمواجهة "ميمي"، ثم أكملت كأنها تحدث نفسها: "الولد عيِّل لم يعرف من الدنيا شيئًا بعد.. ماذا يمكن أن يعطيك يا ميمي؟، لوكنت تريدين رجلًا.. قفي على ناصية هذا البيت ونادي على أي عاطل من الذين يتسكعون حولك"، لم تردَّ "ميمي" التي كان وجهها محتقنًا كامرأة فرغت لتوِّها من نوبة بكاء، مسحت "ميمي" أنفها بطرف أصابعها وابتلعت بعض الدموع ثم أشارت بكفها إليها لتغلق فمها أو تخرج، فخرجت "نعم" بسرعة، لكنها لم تستطع أن تكبح جماح

فضولها وهي تتفحَّص ابنها وتلاحقه بالأسئلة التي لم يرد عليها؛ كان حتى ذلك الوقت يخاف بذاءة لسانها ويحاول تفاديها بالصمت، حاولت أن تطوقه بيدها وهي تسحبه ليسير بجانبها عائدًا، لكن "جمال" دفع يدها بعيدًا ومشى خلفها، في الطريق توقفت "نعم" ونظرت خلفها مرة واحدة لتقول له بحسرة:

- يا خائب.. ألم تجد في الدنيا إلا تلك الشرموطة؟، دي في عمر أمَّك.

لم تكن "ميمي دونج" في عمر أمه، كانت في التاسعة والعشرين آنذاك، لا تزال "ميمي" جميلة ومشتهاة وفي حدقتيها هذا الحزن الذي لا يستطيع أحد وصفه، وتلك العينان اللتان لا تحبهما "نعم الخباز"؛ لأنهما جميلتان ولأنها تستطيع بهما أن تكون عاشقة ومحبوبة، وبهما اقتنصت قلب "سليم النجار"؛ كرهت "نعم" تلك البنت التي تُسمَّى "ميمي" لأنها ناعمة وفاتنة ومثيرة للحسد.

لم يكن "جمال" وحده هو الذي يهرب إليها، ويجد على صدرها تلك الطمأنينة، كان "سليم النجار" أيضًا يفعل ذلك، لكن "نعم الخباز" اعتقدت لأسباب عجزت عن فهمها أن "ميمي" وحدها كانت وراء ميلة بختها في الحياة، وأنها تسببت بشكل غامض في تلك النهاية الفاجعة لبِكْرها "جمال"، كانت عاجزة عن فهم علاقة بكرها بميمي، عاجزة عن استيعاب تلك اللحظة التي أطلق فيها الصبي الذي لم يبلغ التاسعة عشرة النار على رأسه؛ لذلك حمَّلت الذنب لميمي واستراحت لتلك الفكرة.

***

خلق الله الكون وقسَّم الأرزاق بمعرفته.

كانت "نعم الخباز" منشغلة دائمًا بمراقبة التطور الذي يلحق بطفليها، فقد كان "جمال" منذ ولادته نسخة عميقة لكل ما كرهته في أبيه، وُلِد ساهمًا ومنزويًا وحَبَا متعلقًا في ثيابها، وقليلًا ما حاول الاعتماد على أحد سواها، عندما تعبر حافلة مدرسة على مدخل "الشمس المشرقة" لتقلّ الأطفال فقد كانت تجد صعوبة في أن تتخلص من يده القابضة على ملابسها، قبل أن ينزوي بعد ذلك في الحافلة متوترًا ومترددًا وناظرًا إليها بتوسل، على نقيض ذلك كان "عمر" طفلها الأصغر قليلًا يرفض بعناد يدها التي تقبض على يده، ويصر أن يقف بانتظار الحافلة المدرسية وحده، ويعرف طريقه إلى مقعده من دون النظر باتجاهها، وكانت تُشبِّهه بـ "جعفر الخباز" بشعره الكستنائي وأنفه وغروره الذي صقلته الأيام فتحول إلى صلافة واحتقار لكل ما ينتمي إليه.

حرصت "نعم" على المشاركة في كل المناسبات المدرسية، وحضور جميع الأنشطة كافة التي تُعقد للآباء، تكثف زياراتها إلى المدرسة لتبادل الآراء مع بعض المدرِّسات اللاتي لا يفهمن بالضبط دوافعها إلى الزيارة، فتحاول أن تشرح لبعضهن بشكل مؤثر كيف تضع كل آمالها على هذين الطفلين، وتعتقد أن تلك الطريقة الاستعطافية قد توفر لطفليها بعض الإعانات أو المساعدات العينية، وكان الاستجداء هو بالضبط ما كرهه كلا الولدين فيها وتعاملا مع تدخلاتها المدرسية بجحود.

يقول لها ابنها الأصغر "عمر" بعد كل زيارة مدرسية: "كُفِّي عن التسول..

هل تعتقدين أنك ذكية؟ أنت فقط متسولة لَحُوح"، تضحك ثم تقول عبارتها الشهيرة: "على جزمتي أنت وأبوك والمدرسة" ورغم تلك المناوشات فقد استمرت "نعم" على القيام بزياراتها التفقُّدية للإشراف التربوي على ولديها بانتظام، وواظبت على كل المناسبات الاجتماعية، وزجَّت بنفسها في تجمعات أولياء الأمور، وانخرطت في مناقشة طرق تحسين وجبات الطعام المدرسية، وجدوى الفرَق الرياضية التي يخصصون الكثير من ميزانية المدرسة لها، بل واقترحت أن يُستبدل بهذا الإنفاق مساعداتٌ عينية للطلاب وأُسَرهم الفقيرة.

كانت قدرة "نعم" على الفهم دائمًا مرتبطة باقتناص الفرص، ولم تنشغل قط بما يتصوره الآخرون عنها؛ لذلك كانت تهبط من دون تحفُّظ على المدرسة بستراتها العجائبية، وتقف في طابور الآباء الذين ينتظرون أبناءهم، وعلى وجهها تلك الابتسامة الواثقة.

كانت قد جاءت إلى المدرسة بتلك السترة التي طُبع عليها بحروف متشابكة (عاشر ني الآن)، لم تفهم آنذاك لماذا ابتعد عنها "عمر" بحذر وشفقة مختفيًا عن نظرها، متفاديًا بذلك احتمالية اقترابها منه، لكنها استطاعت بسرعة عقف يد "جمال" وجذبه إليها بقوة فخفض رأسه مضطرًّا أن يمشي بجوارها، وفي الطريق إلى البيت انفلت من يدها وسبقها بعدة خطوات وسمعته يوبخها بصوته الذي أصبح أكثر تمردًا وقسوة: "هل أنت غبية.. كيف تأتين إلى المدرسة بهذه السترة...؟"، نظرت "نعم الخباز" إلى صدرها ثم نظرت إليه لكنها لم تفهم ما الذي يثير الغضب في سترتها، فضحكت

معتقدة أن أيًّا ما كان مكتوبًا على صدرها فإنها في النهاية مجرد كلمة مطبوعة على سترة، لكن "جمال" أكمل وهو يركض مبتعدًا عنها: "هل تحسبين نفسك أنيقة؟ أنت جاهلة وغبية"، قال ذلك بنبرة مفعمة بالحدَّة والازدراء، نبرة ناقمة ستصبح بمرور الوقت طريقته في التواصل معها، ضحكت "نعم الخباز" أكثر وقالت عبارتها التي تواجه بها المواقف الصعبة: "على جزمتي أنت ومدرستك وأبوك في يوم واحد"، بينما قرر "عمر" منذ ذلك اليوم أن يتجاهل وجودها في حياته، أصبح يعود من المدرسة وحده، حريصًا على أن يسير على مسافة منها كأنها ليست أُمَّه، ورغم تلك الاحتياطات ظل الأطفال في المدرسة يسألونه: "هل هذه أمك؟ لماذا ترتدي تلك الملابس الغريبة؟"، وفي المشاحنات اليومية كانوا يلقبونه بابن غريبة الأطوار.

لم تكن "نعم الخباز" تكترث بهذا المظهر الذي يضعها في خانة الفقر وانعدام الذوق وأحيانًا تناقُض الهُويَّة الجندرية، كانت فقط تعتقد أنها متناسقة تمامًا مع ذاتها ومرتاحة إلى هيئتها، بل ومتحررة من هوس المهاجرين باستعراض أزيائهم المحلية الغرائبية، فهي في النهاية متحضرة ومنفتحة على عالمها الجديد بأقصى طاقة على التأقلم، ترتدي الجينز والبلوزات القطنية المطبوعة بكلمات لا تعرف كيف تقرؤها، تحب السترات القصيرة التي لا تغطي إلا جزءًا طفيفًا من مؤخَّرتها، وتسير برشاقة بحذائها الرياضي الأبيض وتعقص شعرها الخشن في ذيل حصان صغير وتسير بلا مساحيق غير مبالية بندبات وجهها، وتعتقد أنها حقيقية وحُرَّة.. مخلصة لصورتها الجديدة كمواطنة لقارة حضارية مكتشفة، بل نستطيع أن نقول إنها بهيئتها ابتكرت وأسست ذوقًا لطبقة اجتماعية بدأت تتنامى مع الوقت، أصبح

ذوقًا عامًّا للعاملات أو الوافدات الجديدات اللاتي امتهنَّ التنظيف ورعاية الأطفال وغيرها من المهن وشكَّلن طبقة جديدة غزت الوادي بتلك الهيئة التي تختصر أوضاعهن، فجميعهن في النهاية مجرد "عاملات نظافة"، وكلهن رغم اختلاف ملامحهن وألوان بشرتهن ينتمين إلى طينة واحدة شكَّلت هوية غالبية سكان "الشمس المشرقة"، تلك البلدة التي تعددت جيوبها العرقية وأصبحت مستعمرة كبيرة لعاملات النظافة والتدبير المنزلي من الأفريقيات والمكسيكيات والمُربِّيات الأسيويات، اللاتي عبَّرن عن اندماجهن بالتخلي عن صورهن القديمة، فاكتسبن تلك الهيئة بمرور الوقت.

حرصت أيضًا على تفقُّد واجبات ولديها المدرسية، وتحاول أن تضفي بتعليقاتها حرصًا على ما أسمته "المستقبل القريب"، كان هذا المستقبل يخصها وحدها، فهي التي تنتظر لحظات الفخر المرتقبة، تلك التي لا تبدو مأمولة في أرجاء الشمس المشرقة، فالكثير ممن حملتهم الحافلة لم يصمدوا في رحلتهم المدرسية إلى أبعد من الضروري، وانتهى بهم المطاف إلى الأرصفة القريبة مع غيرهم من العمال، خرجوا مبكرًا باحثين عن حافلات جني المحاصيل.

القليل منهم الذين استطاعوا مبكرًا الالتحاق أو التطوع في الجيش، وبعضهم احترف الأعمال اليدوية كإصلاح أو قيادة شاحنة، وربما الالتحاق بالعمل في الميناء، ولم تعرف "الشمس المشرقة" مَن استطاع أن يحظى بحياة أفضل من ذلك.

معظم أطفال تلك الحافلة المدرسية كانوا ينتظرون بلوغ السادسة عشرة

ليهربوا؛ بحثًا عن فرص عمل في المناجم والمزارع أو غيرها من الممكنات، لكن "نعم الخباز" اعتقدت أيضًا أن صبرها الطويل، ودأبها في تنظيف مراحيض البيوت العالية سيحُول دون تهاوي أحلامها الكبيرة.

لم يكن "جمال" مبشرًا بذلك على أية حال، انصرف مبكرًا عن الاهتمام بدروسه، وفشلت بدورها في دفعه إلى إنجاز واجباته، وكثيرًا ما وجدته منغمسًا في تشكيل وحدات من الطين الصَّلْصَال، يقضي الساعات مُنكبًّا على قطع الطين ليشكل منها كائنات خرافية غريبة الشكل، أو يصنع من الطين بيوتًا صغيرة، ثم يترك مجسَّماته فجأة ويفتح الباب ويخرج.

تحاول "نعم" ممارسة أمومتها طالبةً منه التركيز على واجباته المدرسية، فيهز رأسه ويكور جسده في الأغطية وينام، تحاول "نعم" احتواء تمرده بتلك الابتسامة المستجدية التي يكرهها، تقول له ضاحكة:

- فاكرني جاهلة يا بْن الكلب؟.

في الحقيقة كان كلاهما يهربان منها بشكلٍ أو آخر، ويتناوبان تلك الجملة بطريقة متكررة وعفوية: "ابعدي عني".

عندما استشارت "نعم" الآنسة "ليسا" مدرسة الفصل في شرود بِكْرها "جمال"، وعجزه عن التحصيل الدراسي، واحتياجه إلى رعاية خاصة باعتباره بليدًا، اقترحت "ليسا" إلحاقه بالفصول الليلية للمدرسة، تلك الفصول التي لا يقصدها سوى محدودي الذكاء، والتي كانت سببًا لضياعه النهائي، فقد استطاع "جمال" مبكرًا أن يتعرف في تلك الفصول إلى "أوسكار" و"چاستين" وبعض الأسماء الأخرى التي شكَّلت عالمه الأول في التسكع، تكونت من تلك

الصداقات عصابة شابة ومتحمسة، احترف أفرادها التسرب من الحصص المدرسية للتدخين، ثم تبادل الخبرات الغريزية الجنسية المبكرة، وبعدها التسكع في الطرقات المؤدية إلى الكوارتر لبيع وتوزيع بعض المخدرات على المتسكعين على الرصيف، فتركزت جهود "نعم الخباز" آنذاك على ملاحقة ابنها في بيوت الخائبين من أصدقائه، أو تشارك خيبة الأمل مع بعض الأمهات اللاتي صرن يتبادلن الاتهامات، وأحيانًا المعارك مع بعضهن البعض، كانت تقف أمام بيت أم "أوسكار" وتقول:

"ابعدي ابنك عن ابني.." وبعد تناوش محدود، ومحسوب تخشى فيه "نعم" من بذاءة أم "أوسكار" التي لا يستطيع أحد مجاراتها في تلك المعارك الكلامية، تلك المهارات التي يعرفها الجيران من خلال معاركها الكثيرة؛ لذلك كانت "نعم" تحاول أن تكون لطيفة معها على قدر المستطاع، وفي معظم المرات تدرك "نعم" حدودها فينتهي الحوار القصير بصوت أم "أوسكار" الذي يأتي عاليًا وحازمًا قائلة لها: "حلي مشاكلك مع ابنك بعيدًا عني يا نعم.. أنا عندي ما يكفيني"، وكما لاحظ المتفرجون تبدأ المشادَّات بينهما عاصفةً لكنها تنتهي بسرعة بعد أن تتجاور المرأتان أمام الباب، وتتشاركان السجائر، وتتبادلان عوامل المرارة والأسى من الأزواج الخائبين، والأبناء الأكثر خيبة، ثم تنتهي تلك الجلسات دائمًا بحكمة التسليم بأن الأمهات لا يملكن من أمر مستقبل أطفالهنَّ شيئًا؛ بخاصة في تلك "الشمس المشرقة"، وأن الحياة هي التي تقود هؤلاء الصغار إلى حتفهم مبكرًا.

ثم انتهت تلك اللقاءات العابرة بعد أن سقط "أوسكار" مقتولًا أمام

ماكينة الصَّرَافة، وظهر لـ"جمال" رفقاء آخرون، لم تستطع "نعم" أن تصل إلى بيوت أمهاتهم.

اكتفت "نعم" بعد ذلك بالانتظار، ومضغ القلق اليومي حتى يعود إليها ابنها آخر النهار، يعود "جمال" متعبًا وخائبًا، حاملًا حقيبته المدرسية بالهيئة ذاتها التي عرفت بها "أحمد الوكيل"، وصار لا يتردد في الرد على توبيخها مردِّدًا الجملة نفسها التي استعارها من أخيه: "ابعدي عني.. أنتِ عاهرة قذرة".

كانت "نعم الخباز" لا تعرف لماذا أطلق عليها أولادها ذلك اللفظ، لم تكن تصلح لأن تكون عاهرة بشكل من الأشكال، كانت فقط تود ذلك ولم تسلحها الحياة بما يؤهلها لهذا الدور؛ لذلك كانت تشعر بالغبن والظلم الذي يدفعها لتنقضَّ على بِكْرها وتلطمه على وجهه، كان ذلك قبل أن تكتشف أنه عبَر الثالثة عشرة من عمره وصار أطول قليلًا منها، وأنه لم يعُد يخاف من حذائها المتطاير في الهواء، وأنه صار قادرًا وراغبًا في دفعها بيديه، حتى يرتطم جسدها بالحائط، ذلك الحائط الذي شهد الكثير من الركلات المتبادلة، وحين وصلت العلاقة بينها وبينه إلى تلك المرحلة من الاشتباكات اليومية، اكتفت "نعم" بوَصْلة من الصراخ الذي تختمه بقولها: "يا خائب.. ح تطلع لمين.. لأبوك المجنون ولَّا أمك المتعوسة؟" ثم تنخرط بعد ذلك في البكاء، لم تكن تقترب بوصلاتها التوبيخية من "عمر" الذي عبَّر عن مقته لها بكل الطرق المتصوَّرة، فهو يحاول تجنبها بالانكباب على واجباته، رافضًا رعايتها له، مُدعيًّا أن رائحة المنظفات في ملابسها، تلك الرائحة التي تترك آثارها على كل ما تلمسه يدها، تثير تحسُّسه.

عاش "عمر" متجنبًا لحظات حنانها القليلة، متعاليا على دموعها التي يعتقد أنها مُتكلَّفة وسخيفة، معتقدًا بأنها مجنونة وغريبة الأطوار بشكلٍ ما؛ صار يراقبها وهي تحوم حوله فيستعد لمواجهاتها بتلك الابتسامة الهازئة، ثم لا يتردد في أن يجيبها متحديًا إذا حاولت الاقتراب منه أو تفقُّد واجباته: "أنا لا أحتاج مساعدتك، ابعدي عني"، في المقابل أحب "عمر" كل مدرسات الفصول وأحببنه، وكان كثيرًا ما يتلقى دعوات أعياد الميلاد والمشاركة في الأنشطة المدرسية من أصدقاء لم تعرف "نعم" أمهاتهم؛ لأنهن أرقى من أن تعرفهن، وكانت تعتقد أن "عمر" قد اكتسب منها قدرتها على جذب التعاطف، واتسم بطاقات غريزية في تسلق الفرصة وانتهازها، صارت تعتقد أنه الوحيد المؤهل لأن يرفع رأسها، لكنه لم يفعل لأنه كان مشغولًا برأسه، وكان يقدم نفسه لكل الأمهات البديلات باعتباره ذا خلفية أسرية قاسية وغير محتملة، وكانت تعرف أنه يملك من القسوة ما يُمكِّنه من تجاهل وجودها، لكن تلك المشاعر لا تنفي أنه صار وحده مَحطَّ أملها، بعد أن خاب ذلك الأمل في شقيقه.

طُرِد "جمال" من المدرسة بعد عدة معارك، كان آخرها معركة نشبت في إحدى دورات المياه المدرسية بينه وبين فتاة تصغُره قليلًا وتُدعى "كراميل"، يعرف جمال "كراميل" لأنها تسكن أيضًا في واحد من بيوت "الشمس المشرقة" المطلة على المستنقع، لم تكن صديقته، ولم يعرف أحد ماذا قالت له وهي تتخطاه عابرةً في طريقها إلى دورة المياه، لكن الجميع تتبعوا بقية المشهد، شاهدوا "جمال" وهو يدخل وراءها إلى غرفة الفتيات، حيث كانت "كراميل" في تلك اللحظة مشغولة بتجديد أصباغ شفتيها خلف المرآة،

ثم تلصَّصوا على المشهد حين جذبها من شعرها وخرج بها مسحولة وراءه، وفي الطُّرْقَة ذاتها شوهد وهو يحاول رطم رأسها بالحائط عدة مرات، بعد ذلك ركلها بقدمه عدة مرات أخرى، ثم تركها غارقة في صراخها وخرج بعد ذلك من المدرسة ولم يعُد، بعد ذلك المشهد أصبح البحث عن "جمال" هدفًا للشرطة التي سعت إلى إيقافه لأسباب متعددة، اتهامات لم يعرف قط مدى تورطه فيها، مثل المشاركة في سرقة بعض المشروبات الكحولية من بعض البارات القريبة، والتورط في سرقة عدد من علب السجائر من متجر آخر للدخان.

بعد توقيفه وحبسه عدة أيام في تحقيق لم يُفضِ إلى شيء، صار "جمال" يعود إلى "نعم الخباز" في بعض الأحيان مخمورًا، ولم تكن تعرف هل تطرده أم تغلق الباب دونه؟ أم تدَّعي النوم حين يدخل ويتكوَّم بالضبط في الركن الذي كان ينام فيه "أحمد الوكيل"؟ رغم محاولاتها التسليم بأن بعض الأبناء لا يستطيع تحقيق الآمال الكبيرة ولا الصغيرة، وأن عليها التسليم بالقدرات المحدودة لابنها البكر فقد ظلت تحاول أن تخلق له ما يُسمى مستقبلًا قريبًا، حاولت "نعم" توظيفه في بعض الأعمال التي تجعله نافعًا، مثل تهذيب ورعاية الحدائق أو جَزّ الحشائش، لكنه كان يتهرب منها، يغطي وجهه في الصباح، متلفعًا بالأغطية، ويقول معبرًا عن سخطه تلك الجملة التي صارت تسمعها عقب كل حوار: ".. ابعدي عني... أنت امرأة مجنونة فعلا". كان يقول ذلك فتتذكر طفولته التي قضاها في إرضائها، وقضتها في فطامه والقسوة عليه كي لا يخيب مثل والده، ذلك الرجل الذي تركها للأبد، ولم يَقُدْه الحنين لتفقُّد ولديه اللذين تركهما وراءه، صارت تكيل

له كل يوم تلك الشتائم التي تختمها بالخيبة والحسرة والندامة، ثم تصمت مدركةً أنه صار أكبر وأضخم من قدرتها على إخافته، صارت عاجزة عن حثّه على فعل أي شيء، ثم أصبح يهددها بأنه قد يقتل نفسه إذا لم تتركه لحاله، وكانت تعرف أنه حين تطرده من البيت فسيجلس كما كان يفعل أبوه أمام بيت "كريستال" المواجه لبيتها، وحيدًا باكيًا، حاضنًا حقيبته التي ألقى ما فيها من أوراق مدرسية واستبدل بها قِطَعًا من ملابسه، مُستعدًّا للهرب والاقتياد في سيارات الشرطة.

عرفت بعد ذلك أنه حين يختفي من أمام بيت "كريستال" لليلةٍ أو ليلتين فإنه غالبًا سيكون ناعسًا في بيت "ميمي دونج"، لم تخفِ "ميمي" بدورها تردده عليها، كانت تقول لـ"نعم" إذا سألتها عنه: "اتركيه في حاله، لماذا تبحثين عنه؟"، فصارت "نعم الخباز" تقول لها مشيرةً إلى علاقته بها: "خلّيه عندك... أيش يأخذ الخرا من الكنيف"، وأصبحت تتناقش كل يوم مع "كريستال" و"سوزانا" و"فاطيما" كيف سحرته تلك الـ"ميمي"؟.. مؤمنةً بأن كل النساء اللاتي تنحدر جذورهن إلى تلك البلاد، يستطعن أن يعقفن الرجال بأعمالهن السحرية.

صارت تطلق على "ميمي" على سبيل التندُّر: "أم كَدَش" وعلى مُؤخَّرتها الصغيرة "أُمّ صُرْم"، تضحك صويحباتها على تلك المشاعر التي لا تستطيع "نعم" إخفاءها تجاه "ميمي"، أو تلك الغيرة التي كانت أسبابها أعمق من قدرتهن على فهمها.

يختفي الناس في "الشمس المشرقة" بسبب الضجر، يرحلون عدة أيام

في الجبال القريبة وقد يعودون أو لا يعودون، غاب "جمال" بدوره لعدة أسابيع، ولم يكن في بيت "ميمي دونج"، وحين جاء قال لها إنه كان يبحث عن أبيه في الجبال، ظنت "نعم" طويلًا أنها استطاعت التخلص من شبح "أحمد الوكيل" إلى الأبد، لكن أشباحه صارت تعود إلى بيتها في الصورة التي أسست حسرتها، يعود إلى بيتها كذكرى قديس غائب، يتشارك ولداها الحديث عنه والقلق في سر اختفائه ويتكهنان بأسباب غيابه، معتقدين بأنها لا شك كانت وراء ذلك، وأن لسانها الحاد وطباعها العنيفة التي لا يُطيقها بَشَر كانت وراء نكرانه لوجودهما.

عاد "جمال" بعد رحلة البحث عن والده متعبًا، وشاحبًا ولا يشبه إلا أباه بأرقه ونظراته الساهمة، وغبار قدميه اللتين تشقَّقتا في الأحذية البالية، بعد عودته، زرع "جمال" عدة نباتات مُخدِّرة في الباحة الخلفية للدار جلبها معه من الجبال، وانشغل برعاية نباتاته التي أسماها "ثمرة الخلود" ولم يفعل شيئًا سوى مراقبة الصمت والمشي لعدة أميال في الشوارع المحيطة بلا هدف، انشغل أيضًا عن "ميمي دونج" وصار قليلًا ما يتوقف عندها، كان يدخن فقط، فتركته "نعم" يختلس من دولابها ما يجد ليواصل بصمت وحدته وتدخينه، بعد عدة مُشادَّات كسر فيها "جمال" بعض مقتنيات "نعم الخباز" الجصِّيَّة والتماثيل الخزفيَّة التي اقتنصتها من حملات التنظيف وأعدتها للمقايضة والبيع، ثم اشتبك عدة مرات مع أخيه الأصغر "عمر"، وأدت تلك الاشتباكات إلى بعض الخدوش العميقة في وجهيهما، صرح "عمر" بعد تلك المناوشات لأخيه بأنه لا يُطيق النظر في وجهه، وأن عليه أن يرحل، ثم تدخل بعض الجيران في تهدئة الخلافات التي صارت

لا تنفضُّ ولا تنتهي، تلك المناوشات التي تلقي فيها "نعم الخباز" حذاءها في محاولة لفض الصراع بأكثر الطرق حكمة، صارت تنهي فاصل العراك بدعائها على ولدها البكر "جمال" أن يأخذه الربُّ ويريحها، لم يكن ذلك الدعاء يطول "عمر" لأن ثمة آمالًا ما زالت تُعقد عليه، وكانت تتصور أن دعواتها بأن يريحها الرب ستكون على طريقة فَقْد "أحمد الوكيل"، سيختفي "جمال" من الوجود مؤقتًا؛ كي يخفف بعض الحمل عن كتفيها، لكن "جمال" الذي كانت دعواتها الحارقة تحيط به، اختار طرقًا لم تحسب حسابها.

في ذلك اليوم الذي حدثت فيه تلك المأساة، كان الجو هادئًا نسبيًّا، فقد مر وقت طويل لم يكن بين الأخوين ما يتبادلانه من مشاعر، باستثناء بعض العبارات التوبيخية التي يلقيها "عمر" عَرَضًا وبلا سبب أو بسبب رائحة الأعشاب المخدرة في ثيابه، أو هيئته التي تجعله يهيم في البيت كمتسوِّل مُخدَّر فقد جهاته الأربع، والتي تبدأ بقوله لأخيه: "أنت مقرف ومقزز" وتنتهي بتجاهل "جمال" في الغالب.

كان "عمر" يعتقد أن صورة أخيه تجرح ما تبقَّى في كبريائه، تجرح الصورة التي يتخيلها لذاته، والتي تبدو محطمة تمامًا بوجود تلك الأم وهذا الأخ في حياته، كان ناقمًا على اضطراره للعيش معهما، وقد بدت له الحياة المثالية أبعد من ذلك البيت، أبعد من "الشمس المشرقة"، الحياة التي يشتهيها هناك، فوق، أعلى الجبال، تلك الحياة التي يمارسها ساكنو التلال السماوية، والتي تبدو له أكثر آدميةً ولطفًا، حياة تليق به كطالب مثالي وممتلئ بزهو تفوقه المدرسي الذي صار يحظى بالاعتناء.

بدأ العراك ذلك اليوم بتلك الجملة: "أنت قذر ومقزز، ألا تخجل من نفسك؟"، لكن "جمال" لم يتجاهل، ولم يتوقف تلك المرة في ردة فعله عند إلقاء بعض التماثيل الجصيَّة، أو تكسير بعض الأثاث، أو حتى قذف أخيه بما في يده، تلك المرة سحب أخاهُ من عنقه، وخبط رأسه في الجدار عدة مرات، وكان يردد فقط: "أنت لست أفضل مني، أنت مجرد حشرة، حشرة مثلها" ثم ركله، وركل أمه معه خارج البيت، وبعدها أغلق عليه باب البيت، ولم يستطع أحد فتحه إلا حينما جاءت الشرطة، ووجدت جثته ملقاة، ودمه ما زال ينساب ببطءٍ ولزوجةٍ على الأرض.

لم يسأل أحد كيف حصل "جمال" على السلاح الذي قتل به نفسه؛ لأن الأسلحة كانت متوافرة في كل أرجاء "الشمس المشرقة"، يخبئها البعض في أدراج شاحناتهم، وكان الجميع يعرفون أن "جمال" كان متمرسًا في سرقة تلك الشاحنات.

انشغلت "نعم الخباز" بعد ذلك بأوجاع ظهرها الذي تدَّعي أن النوائب كسرته، وانشغلت بتعبئة الاستمارات لوحدة إغاثة الأُسَر المنكوبة؛ بخاصة بعد توقف "عمر" تمامًا عن الحديث معها، وصار بدوره يتغيب عن البيت مُستعدًّا للهرب، معتقدًا بأن ثمة لعنة في هذا البيت تلاحقه.

وجد "عمر" في تلك المصيبة طرقًا عديدة لنجاته؛ بخاصةً بعد أن تجسدت صورة أسرته المأساوية كخلفية مناسبة لجني التعاطف.

كانت "ليسا" مدرِّسة الفصل هي الأم التي تمناها، وكانت بدورها مستعدة كغيرها للتعاطف معه، وأصبح قلبها أكثر دفئًا بنجاة هذا الشاب من نكبته الأسرية، كان في البداية يعرِّج على بيتها في تلك الآحاد الخالية فتستضيفه،

تساعده على أداء واجباته المدرسية، ويعلمه زوجها قيادة الدراجات أو الركض وتسلق الجبل والتأمل، تلك الأشياء التي لا تعرفها "نعم" ولا تستطيع توفيرها له، وبعد أن وصل "عمر" إلى الثمانية عشر عامًا كان قد اختفى كليًّا ولم يعُد يتردد ولو من سبيل المجاملة على بيت أمه، انتظرت "نعم الخباز" عبوره المحتمل، اعتقدت أيضًا أنه ربما ذهب بدوره ليتفقَّد أباهُ في الجبال كما فعل شقيقه، لكنه لم يكن يكترث في الحقيقة بأمه أو أبيه أو راغبًا في البحث عن أحد.

بعد عدة أسابيع من غيابه، وقفت "نعم الخباز" أمام بيت "ليسا" بأدبٍ وقالت لها بتردد إنها تبحث عن ابنها، ابتسمت "ليسا" الصغيرة اللطيفة الجميلة وقالت لها بحماسة وغبطة: "لقد فعلها.. استطاع أن يخرج من هذا المستنقع، لا بد أن تكوني فَخُورًا به"؛ بكت "نعم الخباز" بحُرْقة فقالت لها "ليسا": ".. لماذا أنت غاضبة يا نعم.. ألستِ أُمّه؟ أليس كل ما تطمحين إليه هو مصلحته؟، أنا أقدِّر مشاعرك لكن يجب أن تفهمي أن كل ما فعلته هو مساعدته في العثور على أسرة بديلة تستضيفه، أسرة تستطيع أن تساعده وتحقق له طموحه، أنا متأكدة أنهم سوف يعتنون به ويساعدونه، ويوفرون له القبول في إحدى الجامعات الصغيرة في الشمال، لقد وعدوني بذلك"، قالت إن: "عمر ولد ذكي وجميل، ربما لم يُرِد إخبارك ولا يريد في الوقت الحالي رؤيتك لكنه سيفعل، أنا متأكدة أنه سيفعل حين يشعر بالحاجة إلى ذلك، حاولي قبول الأمر، ذلك الطفل الذي تعرفينه قد كبر، صار على أعتاب الرجولة، وهو يعتقد أنه يستحق حياة أفضل وهذا حقه، يريد أن يُقدم على تلك الحياة الجديدة متعافيًا من تلك الذكريات السيئة.. هل تفهمينني؟"..

خرجت "نعم" من بيت "ليسا" وهي تشعر بلهيب تلك الآلام التي تصيب ظهرها قد اندلعت، ظلت عدة أيام تستلقي على هذا الظهر الذي اعتقدت أنه انكسر تمامًا، ثم خرجت بعد ذلك، وقفت أمام بيت "ميمي دونج" وبصقت باتجاهه عدة مرات وتحررت بذلك من ذلك الغضب الذي لم تستطع صبَّه على "ليسا"، ثم مشت في تلك الأزقة وعبرت على بيوت صديقاتها، وضحكت كأن شيئًا لم يكن، كأنها لم تتزوج "أحمد الوكيل" ولم تنجب منه طفلين، قتل أحدهما نفسه، وقرر الثاني محوها من الوجود. استسلمت "نعم الخباز" إلى تلك النهاية المتوقعة، والشائعة، والكثيرة الحدوث في "الشمس المشرقة"، فقد عرفت بخبرتها الطويلة أن تلك الأيام الحالكة تمر بها وبغيرها، تعبر النكبات على الجميع في تلك الأرض، يكبر الأبناء على كراهية تلك الحياة الشاقة، ويهربون حين يتسنى لهم ذلك، ويعودون إذا أخفقوا في العثور على ما طمحوا إليه، ويطلقون الرصاص إذا رغبوا في نهايات سريعة ودامية تختصر أوجاعهم.

***

telegram @
yasmeenbook

(4)

تَلَّة سَنَام الجمَل

تَلَّة "سنام الجمل" هضبة جبلية صغيرة تبسط حدودها فوق "الشمس المشرقة"، تقع في الطريق الجبلي الذي يصل "الشمس المشرقة" جنوبًا بالجنة الأبديَّة في أقصى نقطة ارتفاع، في الممر الجبلي بين السفح والتلال تقع الهضبة أقصى اليمين مجرد هضبة ترابية حمراء تناثرت فيها البيوت الصغيرة الأنيقة بين التلال، بيوت صارت تؤلف تجمعًا سكنيًّا عاش سكانه على بعد عدة كيلومترات ارتفاعًا عن "الشمس المشرقة"، لكن ذلك التجمع السكاني رغم ارتفاعه النسبي ظل أيضًا مجرد هضبة وسطى تنام تحت أقدام "الجنة الأبديَّة"، يفصلها عن المنتجعات الشمالية مسافة رأسية لا يمكن تجاهلها. حُكم على تلَّة "سنام الجمل" أن تتوسط كلا العالمين لكنها مع ذلك ظلت لا تنتمي إلى أيٍّ منهما، ينبسط المجمع السكني كقوس من البيوت الصغيرة المتجاورة، يحيط بها ممشى مُسوَّر بسياج متدرج من الصخور البازلتية،

إذا وقف العابرون على هذا السياج الصخري سيرون تحتهم ومن مسافة بعيدة بيوت "الشمس المشرقة" المتلاصقة، وجزءًا جانبيًّا من الخليج والكوارتر، وإذا نظروا نحو السماء سيرون أضواء المنتجعات السامقة فوق الجبال.

يسكن تلةَ "سنام الجمل" مجموعةٌ من البشر الذين لا يجمع بينهم سوى الغرابة وإن تعددت أعراقهم، يتجاور في تلك المنطقة السكنية بعضُ المدرسين مثل "ليسا"، والممرضات مثل "إيمي"، والموظفين مثل "نجوى"، والعجائز المتقاعدين، والفنانين الذين يحلمون بتلك الفرص التي قد تطرق أبوابهم.

كان ذلك الحي وما زال عامرًا بنقاط جذب لهؤلاء الذين يمكن اعتبارهم متوسطي الحال، مجرد مثقفين رومانسيين اعتقدوا أن تلك المساحة تصلح نموذجًا مثاليًّا لخلق مدينتهم الفاضلة كما يتخيلونها.

سكان هذا الحي كانوا حتى وقت قريب أكثر انفتاحًا وبشاشةً مع جيرانهم من سكان "الشمس المشرقة"، تقلصت تلك البشاشة بعد الفاجعة التي ترافقت بالاحتفال بأرواح الأسلاف في يوم "عيد الموتى"، كان سكان "سنام الجمل" قبل تلك الفاجعة أكثر لطفًا، يرحبون عادة بالغرباء، ويبتسمون للعابرين بلا سبب، وبعضهم قد يفاجئك بالسلام إذا كنت على مسافة تسمح بالتحية، وأحيانًا الترحيب ببعض الجمل القصيرة، مثل: "كيف حالُك؟ هل أنت بخير؟ هل تحتاج إلى مساعدة؟"، يتواصلون بلا توجس ثم يواصلون الركض باتجاه الممشى الجبلي، يعتقد معظمهم بقوى الطبيعة والطاقات الإيجابية للصخور والقوى الروحية للنباتات ويمارس

معظمهم بشكل أو آخر تمارين التأمل، وأشكالًا مختلفة من اليوجا، وكان من الطبيعي أن يخرج سكان تلك المدينة في الصباح لتسلُّق الجبال، وفي المساء للركض، وفي نهاية الأسبوع للجلوس أمام البيوت وإشعال الشموع وشرب بعض الكؤوس، وتبادل الابتسامات، أمام تلك البيوت الصغيرة البسيطة تجلس أيضًا بعض العجائز ليتشاركن الألعاب المحفزة للذاكرة كالكلمات المتقاطعة وبنك الحظ ويتبارين في صنع الكروشيه وغزل الصوف، خلف بيوت تلك المدينة الفاضلة تقف سلسلة من الجبال الصخرية التي تتخذ في الليل أشكالًا مخيفة، أشباح كونية لسلسلة من النتوءات التي لم يكتشفها بَشَر، تهبط منها ليلًا بعض الحيوانات البرية كالثعالب والأفاعي وقطط الجبل وزواحفه، يغلق السكان أبواب البيوت الخلفية ليلًا، لكنهم في النهار سيتحدثون عن لطف الراكون وسرعة القيوطي، والثعلب الذي احتل الباحة الخلفية للمنزل.

يعتقد سكان "هضبة سنام الجمل" أنهم في تلك العزلة أقرب إلى الطبيعة وأكثر اتساقًا مع طاقات الوجود، الأجيال الأصغر سنًّا يمارسون الركض في الممشى الجبلي الذي ينتهي بمسيل مائي بين الصخور، ويعتقد بعضهم أن عيون الماء المتفجرة في الجبل هي ينابيع للطاقة الكونية.

لا يحتاج سكان "سنام الجمل" إلى العمالة لأن معظمهم يمارس تلك الأعمال الصغيرة بأيديهم، يمارسون النجارة وجَزَّ الحشائش ويتفاخرون بتربية بعض الدجاج والأرانب والزراعات العضوية خلف البيوت.

يتردد سكان "الشمس المشرقة" كثيرًا على "هضبة سنام الجمل" لأسباب مختلفة، بعضهم يقصد أعلى الربوة ليصل إلى كنيسة "القلب المقدس"، حيث تقف فاتحةً أبوابها، مستعدةً لاستقبال التائبين، وإعداد الوجبات الساخنة للمتسولين، وتقديم بعض الخدمات الخيرية، كمساعدة المتعطلين، وتسجيل راغبي العمل وما أكثرهم.

توفر الكنيسة أيضًا لائحة من أسماء العمال وطبيعة مهاراتهم للراغبين من السكان في الاستعانة بتلك الأيدي العاملة غير الشرعية الرخيصة.

وبعضهم يتوقف عند متجر "جيش الخلاص"، ذلك المتجر الذي يقف شامخًا بجوار الكنيسة، يتردد عليه سكان "الشمس المشرقة" بصفة دورية للتبضُّع، وأحيانًا فقط للتفقُّد.

في "جيش الخلاص" يتم تدوير الملابس المستعملة والتي تجيء معبَّأة في حاويات بلاستيكية من الشمال، ثم يتم تنظيفها وفرزها وإعادة بيعها بأسعار رمزية.

يتكدس شعب "الشمس المشرقة" في ممرات "جيش الخلاص" في نهاية الأسبوع وأيام التنزيلات والخصومات والتي ترافق الأعياد، يتسابقون في العثور على بعض المقتنيات واحتياجات البيت من أوانٍ وأوعية وملابس وبعض قطع الأثاث واللُّعَب المستعملة.

صار المتجر أهم مناطق الجذب إلى جانب المجمع الخيري ومكتب خدمة إغاثة الأُسَر المنكوبة، فمعظمهم يتردد على الحي ليتوقف عند وحدة إغاثة الأُسَر المنكوبة (القلب المقدس لرعاية الأُسَر المنكوبة)، تلك القبلة

التي يحوم حولها المتعطلون والفقراء وما أكثرهم، يقوم المركز بمساعدة الأُسَر الفقيرة في النكبات، الحوادث، الحرائق، دفن الموتى غير القادرين على تكلفة الجنازات.

يتردد على هذا المجمع الخيري معظم شعب الشمس المشرقة، مثل "نعم الخباز" و"سليم النجار"، و"أحمد الوكيل" و"ميمي دونج" وغيرهم.

في المبنى ذاته، أُلحِقتْ وحدة للرعاية الصحية أو عيادة مجانية صغيرة تعمل فيها "إيمي" ممرضة متدربة تقوم بالإسعافات الأوَّلية، وتوزيع بعض أدوية الأمراض المزمنة على غير المشمولين بالرعاية الصحية، وهم غالبية شعب الشمس المشرقة التي لا يملك معظم سكانها أوراقًا شرعية للإقامة أو الرعاية؛ تقوم أيضًا بإجراء فحوص الحمل، ومتابعة الحوامل، ومعالجة بعض الأمراض الجنسية المُعْدِية، وتوزيع الواقيات الذَّكَرية وحبوب الإجهاض مجانًا على المترددين؛ تقوم العيادة الصحية أيضًا بتشجيع بعض النشاطات الخيرية مثل التبرع بالدم والبلازما والتبرع بالبويضات، وتقدم لراغبي التبرع مبلغًا عينيًّا يكفي لاستدراج الكثير من المحتاجين الذين يقفون صفًّا طويلًا للتبرع وقبض بعض القطع النقدية.

تتردد "نعم الخباز" على هذا المبنى الخيري الملحق بالكنيسة لأسباب غير مفهومة، تتوقف عند "وحدة إغاثة الأُسَر المنكوبة" لتلقي التحية وتبادل بعض الابتسامات مع "نجوى"، ثم تأخذ دورها اليومي في صفوف المرضى في الوحدة الصحية كل يوم تقريبًا.

تصيب "نعم" الأمراضُ بمجرد السماع بها، فهي دائمًا ما تشكو من

نوبات الصداع، وآلام الظهر والمفاصل، وضربات القلب السريعة والأرق ودوالي الساقين وتخشُّب فقرات الظهر والتحسُّس لأشياء غامضة فضلًا عن آلام القُولُون وعُسْر الهضم، وعلى الرغم من أن أيًّا من المراكز الصحية المجانية الملحقة بالكنائس والجمعيات الخيرية وغيرها من عيادات التأمين الصحي التي تتكفل ببعض المساعدات الصحية الضئيلة، تدرجها ضمن قوائم الأصحاء، فإنها رغم ذلك كانت تقضي أيامها في التردد على المركز الصحي، وتحاول إثباتَ أوجاعٍ تداهمها فجأة، وتختفي فجأة لتترك أوجاعًا بديلة.

تجد "نعم" في تلك الرعاية المؤقتة سببًا لاستمرارها في الحياة، تجد متعة في تبادل الأحاديث الجانبية مع المترددات، تلك الأحاديث الطبية التي يتم فيها تبادل خبرات الألم والتي تكتسب فيها بعض الصداقات العارضة، تتخلل تلك الجلسات رواية بعض القصص المؤلمة التي تصيب غيرها وتجعلها تشعر بالرضى لأن ثمة مَن يعانون من كوارث صحية تستحق التعاطف، وإنها ليست الوحيدة التي يختارها الرب لقضائه وقدَره، تعتقد أن رائحة المستشفيات والأدوية والمُخلَّفات الطبية مجرد حافلة تعبر بها حاجزًا طبقيًّا طالما أرَّقها، تنقلها من قائمة عاملات التنظيف إلى طبقة المُعتنَى بهم وهم من الأغنياء عادة.

بعد سلسلة من الكوارث كان واضحًا أن "نعم الخباز" تركت أحزانها جانبًا وكرَّست معظم وقتها لتلاحق سُبل الرعاية الصحية والركض خلف طلبات الإعانات والمساعدات، واستطاعت "نعم" في أشهر قليلة أن تصبح جزءًا من رواد المركز الصحي؛ اكتسبت صداقة "إيمي" ببساطة، وصارت

تعرف كل العاملات في العيادة الطبية ويعرفنها، تعبر كل يوم فيعبر صوت ضحكاتهن مختلطًا بضجتها وضحكاتها وتعبيراتها الغريبة التي يعتبرنها ساخرة ومثيرة للبهجة.

تستطيع "نعم" التواصل رغم رداءة طرقها في التعبير، تعرف كيف تمزج الألفاظ الجنسية التي سمعتها في كل اللغات لتخلق خلطتها السرية من أفظع التعبيرات المضحكة، تستطيع ببساطة أن تُشعرك أنها ليست ضيفة عابرة بل إنها تنتمي إلى ذلك المكان أكثر من الآخرين، فهي تعرف تاريخ "الشمس المشرقة" وتستطيع أن تتندر على سكانها وتعرف أخبارهم وفي جَعْبتها دائمًا ما تقوله وتثير به الانتباه، تستطيع أن تثيرَ الضحك وتستدرَّ العطف، وتقديم الخدمات الصغيرة مثل جلب القهوة، وتنظيف الطرقات، ومساعدة العاملات اللاتي اعتقدن أنها سيدة لطيفة ومنكوبة وتستحق العطف، وأنها في المجمل تخفف عنهن بؤس اليوم الطويل كمهرج قادر على استدعاء الضحك والدموع في مشهدٍ واحد.

تبدأ "نعم" كل يوم جولتها في العيادة الطبية وبعد أن تتعهَّدها "إيمي" بقياس الضغط وضبط السكر ومراقبة التحسُّس الذي تُسبِّبه لها مساحيق التنظيف، تتجه بعد ذلك إلى "وحدة إغاثة الأُسَر المنكوبة"، حيث تعمل "نجوى" إخصائية اجتماعية، تتوقف عادة لتسألها عن تطور سير الطلب الذي تقدمت به لاقتناء شاحنة لمساعدتها بوصفها امرأة منكوبة، لم يلقَ هذا الطلب أي استجابة لخروجه عن دائرة اختصاص المركز وهو "النكبات" لا المساعدات، لكن "نعم" ظلت تعتقد رغم رفض الطلب أن صديقتها

الموظفة لا شك مع الوقت ستجد لها حلًّا لاقتناء هذه الشاحنة، تعيد تقديم الطلب مرةً بعد أخرى شارحةً كيف كسرت كل تلك النكبات ظهرها، وتنتظر من صديقتها التصرف ومساعدتها في استكمال التظلم، ولتعميق أواصر تلك الصداقة بدأت في تكثيف جهودها لاقتحام حياة تلك المرأة التي كانت تسميها صديقة، ولم يكن لدى "نجوى" في الحقيقة ثمة حياة فتركتها تدخل وتخرج إلى مكتبها من دون موعد، تهبط كل صباح حاملة كوبًا من القهوة، طَبقًا من الفلافل، ثم تقف في نهاية اليوم بانتظارها لترافقها في العودة إلى بيتها، تسير بجانبها في الطريق وتحدثها عن طفولتها و"الريِّسة" والسيدة ذات الأوجاع و"أحمد الوكيل"، ثم تختم ذلك بذكر "ميمي دونج" وكيف كانت تلك المرأة بشكل غامض سببًا في انتحار بِكْرها "جمال"، تبكي "نعم الخباز" كل مرة ثم تستعيد بسرعة قدرتها على السخرية والتنذُّر على الحياة، بعدها تودع صديقتها وتمضي.

لفترةٍ طويلةٍ كرَّست "نعم" كل جهودها لملاحقة "نجوى" وتتبُّع سير طلب المساعدة الذي لم يُنظر إليه قط، لأسباب يصعب حصرها، مثل ضعف التمويل، وعدم الاختصاص، وكثرة طالبي المساعدات، واصلت إلحاحها حتى تم رفض الطلب بشكل صريح، بعدها حملت "نعم الخباز" أوراقها ولم تُظهر أي إشارة لما تحمله من غضب تجاه "وحدة إغاثة الأُسَر المنكوبة"، خرجت ساهمةً بعدما جمعت تلك المستندات في ذلك الظرف الضخم ورددت عبارتها الشهيرة التي تواجه بها تلك اللحظات، تجاهلت وجود هذا المبنى من الأساس وتجنبت المرور به كلما أمكنها ذلك، لكنها قررت أن تواصل السعي للحفاظ على تلك الصداقات بالتوقف عند بيت

صديقتيها بعد أن صارت تعرف كل الطرق إليه، تعبر كل عدة أيام، وتكرر زياراتها بلا سبب، تمر فقط لتداعب "لوسي" وتضحك مع "مارك"، وتغدق رعايتها على "نجوى"، تظهر وتختفي كفردٍ أصيلٍ من أفراد هذا البيت.

***

تسكن "نجوى" مع "إيمي" وصديقها "مارك" في بيت صغير على أطراف تلّة "سنام الجمل"، يتشارك الثلاثة البيت المكون من ثلاث غرف منذ عدة سنوات، يتوسط تلك الغرف صالة المعيشة والمطبخ الذي يلتقون فيه عادة، يتبادلون فيه الكلمات ذاتها، يتبادلون تلك الابتسامات التي أصبحت مع الوقت متكررة وبلا معنى "كيف حالك اليوم؟"، "الجو حار جدًّا"، "أتمنى لك يومًا طيبًا"، "شكرًا على سؤالك".

يتشاركون أيضًا العناية بتلك القطة البيضاء التي أسموها "لوسي"، تخرج "لوسي" وتعود تنعس على الأريكة التي تجاور المطبخ، تعرف "لوسي" طريقها إلى طعامها وتدور بين الغرف وحيدة وبائسة وهادئة مثل كل شيء حولها.

يخرج "مارك" كل صباح من غرفته ويعبر من باب البيت راكضًا، طويلًا نحيفًا صامتًا، مكللًا بشعره الأشقر، محافظًا على الهيئة نفسها التي كان عليها منذ سنوات، تلك السنوات التي تركت بوقاحة علاماتها على جسد "إيمي" و"نجوى" لكنها لم تمرَّ عليه، يركض "مارك" ويعود بعد ساعة متعبًا، يتساقط العرق من كل مسامِّه، تخرج "إيمي" قبله أو بعده للركض، بعد ذلك يخرج الجميع في وقت متقارب، تسير "نجوى" على

قدميها في الطريق المنحدر باتجاه المكتب الذي يتلقى بلاغات الكوارث الأسرية في تلك المنطقة، وتقود "إيمي" درَّاجتها بالاتجاه نفسه لتصل إلى المستوصف الطبي الذي يحتل جزءًا من المبنى ذاته، ويخرج "مارك" حينما يقرر الخروج، يركب دراجته النارية ثم يعود حينما يقرر ذلك أيضًا، يقضي الوقت مشغولًا بالاعتناء بجسده الذي يبدو ممشوقًا وفتيًّا، تارةً بالركض وتارة أخرى بإعداد بعض المشروبات الصحية، كعصير الفواكه والحبوب المجففة مع جرعة من الڤيتامينات والإضافات العشبية، ثم يكرس ما تبقى من أوقات فراغه للعناية بدراجته النارية، يغيب "مارك" أيضًا في رحلات غامضة ويعود أكثر ابتهاجًا متحدثًا عن الجبال والقمَم القريبة التي يعيد اكتشافها.

لا تبدو "إيمي" مهتمة بذلك الغياب، فهي تستقبله بالابتسامة المحايدة التي تودعه بها، في أيام العطلات تجمع بينهما غرفة الغسيل الملحقة بالطابق الأرضي، تمر "إيمي" حاملةً ملابسها ومساحيق التنظيف التي تحرص على لصق اسمها على عبواتها، بعد أن تضع ملابسها تجلس أمام الباب أو على الأُرجوحة التي تجاوره، تنشغل أحيانًا بصَفِّ وتطبيق قطع الملابس المجففة بأناةٍ ومهارةٍ تُحسد عليها، يعبر "مارك" بعدها مُلقيًا ملابسه في المغسلة، بعد ذلك قد يتجاوران معًا في الجلوس على التلة العشبية ليتأملا كيف ينحدر العشب الأخضر أمام البيت ويحيط بالمنازل الصغيرة التي تحتل تلك الربوة، ثم ينظران إلى الأفق المفتوح ويغرقان في الصمت، صار هذا الصمت وهو أحد أشكال الممارسات الروحية التي انتشرت فجأة في "هضبة سنام الجمل".

ما زالا يتشاركان رغم الصمت الذي يظلل علاقتهما الكثير من التفاصيل، يتشاركان رحلة التسوُّق وركوب الدراجات، والركض، والجلوس لساعاتٍ فوق الربوة نفسها لتأمل الفراشات التي تحطُّ في طريق هجرتها على أشجار المنحدر، يتشاركان التنصُّت على أصوات قبائل الغربان في الأرض المنخفضة، وحين ترقص الأمطار الصيفية وتكسر حدَّة الشمس يتشاركان بهجة المشي عاريَي الأقدام فوق الأرض المبتلة، ويؤمنان بتلك الطاقات التي تبثها النجوم والمطر والنباتات الصحراوية التي تحتمي بالصخور الحجرية في ذلك الوادي، يؤمنان بطاقة الصمت التي تغلف تلك العلاقة التي تنحصر في مشاركة الاهتمامات الصغيرة، تلك التي لا ينتبه إليها أحد.

رغم كل نوازع التلصُّص لم تستطع "نجوى" التكهُّن بطبيعة تلك العلاقة، هل يتقاسمان أيضًا تلك اللحظات الحميمة التي يُفترض أن يختلسها أي زوجين أو رفيقين؟ أم يكتفيان في نهاية النهار بتلك الابتسامة المهذبة التي تتبعها بعض الأمنيات بِلَيلةٍ طيبة؟ كانا على أية حال يقتسمان أشياء أخرى أكثر حميمية، مثل فواتير الكهرباء، إيجار البيت، وغرفة النوم.

في نهاية الأسبوع يخرج "مارك" في رحلاته التي تمتد لليلة أو أكثر ليتسلق الجبال، لا تجد "إيمي" ما يبدد رتابة اليوم سوى الجلوس بجانب "نجوى" التي لا تغادر تلك الأُرجوحة التي تتوسط الحديقة الصغيرة التي زرعها "مارك" بالصبَّار والنباتات الشوكية، تجلس إلى جوارها مكتفية أحيانًا بتبادل الابتسامات أو الحوارات التافهة والمكررة والتي تدور عادة حول قطتها "لوسي"، تقول:

- أظن أن لوسي تشعر بالوحدة، ألا تظنين ذلك؟

وحين تتعثر "نجوى" كعادتها في الإجابة عن تساؤلها، تركل "إيمي" الأرض بقدمها بضجر فتهتز الأُرجوحة ويهتز جسد "نجوى" التي تعرب عن تفهُّمها وتعاطفها مع "لوسي"، قائلة:

- ربما.. من حينٍ إلى آخر تبدو "لوسي" شاردة.

- لقد قمنا بتعقيمها منذ فترة طويلة.. هل تعتقدين أنها ما زالت تفكر في الرفقة؟

تهز "نجوى" رأسها أكثر هذه المرة بسرعة لتثبت لها اهتمامها الجَمَّ بلوسي، وتؤكد لها أن "لوسي" في أحضان الجميع تستطيع اختيار الرفقة المناسبة بالنبش تحت الأبواب المغلقة معظم الليالي، تدخل وتخرج من غرفة إلى أخرى باحثة عن يدٍ أحَنّ وألطف.

تهز "إيمي" الأُرجوحة أكثر فتكمل "نجوى":

- تحتاج ربما أن تخرج من عزلتها قليلًا.

تقتنع "إيمي" باقتراحها لأنه هو بالضبط ما تريد سماعه.. تكمل كمن عثرت على ضالَّتها:

- سأشتري لها رباطًا سريًّا أو طوقًا (collar).. هل رأيت تلك الأحزمة التي تضعها الأمهات لأطفالهن كي يتعلموا السير برفقتهن؟.

تبتسم "نجوى" وهي تتخيل عنق لوسي في طوق أنيق تسير به راكضةً بين تلك الفضاءات الخشنة التي تحفُّ بالمنحدر.

تعود "إيمي" لتسأل:

- هل تعتقدين أن تلك الأطواق موجعة...؟

تهز "إيمي" الأُرجوحة بقلق معبرةً عن خيبة رجائها في محاولة اقتسام آلامها مع رفيقة السكن، تلك المحاولات التي غالبًا ما تنتهي بهز الرأس، بعدها تدخل "إيمي" إلى غرفتها مستسلمة لقلة نفع "نجوى" في المسامرة.

في المساء تعبُر "نعم الخباز" فتخرج "إيمي" لملاقاتها، تبتهج كأنها عثرت على ما يبدد سأمها، تستطيع "نِعَم" أن تجلب لـ "إيمي" دائمًا ما يثير اهتمامها، ألعابًا وبعض قطع الحلوى التي تغدقها على قطتها "لوسي"، بعد ذلك تحدثها عن حواجبها وقَصَّة شَعْرها وتهديها بعض مستحضرات العناية بالبشرة التي استولت عليها خلال حملات التنظيف، بعضها لم يُستعمل وبعضها تم جلبه من شرق تايوان أو غرب زنجبار، زيت الأرجان، زيت حبة الشاي الأخضر، دهانات الزنجبيل والكركم لاكتساب اللون البُرُنْزي، طمي البحر الميت لشد وطمس التجاعيد والنمش، تلك المنتجات الطبيعية الغامضة التي لا يركض وراءها إلا شعب "الجنة الأبديَّة".

تعرف "نعم الخباز" كيف تلتقط تلك الأشياء التي لا يلتفت إليها طاقم التنظيف، تعرف كيف تسترضي أذواق البشر وتثبت أنها تهتم وتفهم تلك الاحتياجات العميقة، كانت أيضًا تمطر "نجوى" بمنتجات التخسيس وتقوية الشعر، وبعض الفوط الصحية والمناشف، تضع ما أحضرته في حِجْرها ثم تقرر الثمن الذي تطلبه، بعد إنجاز مهمتها في إقناعها بضرورة تلك المستحضرات تصبح أكثر لطفًا وتوددًا، بعدها تصحب صديقتها "نجوى"

للتنزُّه وسط تلك البيوت المتناثرة على "تلة سنام الجمل"، تبتسم للعابرين وتتبادل الأحاديث اللطيفة والساخرة مع بعض العجائز أمام البيوت، تنتهي المحاورات القصيرة بالابتسام بعد تقديم بعض العروض، ثم التعثر في إتمام تلك الصفقات الصغيرة الجاهزة دائمًا للبيع أو الشراء، تسحب "نعم" بعد ذلك صديقتها بعيدًا باتجاه الممشى الجبلي وممرات الركض، تتسارع خطواتها وهي تحثُّها على الركض مثل خلق الله، تزداد حماستها، وتقرر تكريس طاقتها لتعديل حياة صديقتها الخائبة، تبدأ بالحديث عن مستقبلها، تقول لنجوى إنَّ عليها حتمًا إعادة النظر في حياتها، وتُذكِّرها بأنها ما زالت صغيرة وجميلة مثلها وأن الحياة ما زالت أمامها طويلة وحافلة بالممكنات، تضحك "نعم" التي تعتقد في الحقيقة أن قبح "نجوى" مثل جمالها أمر مُسلَّم به، لكنها لا تعتبر القبح السبب الوحيد لتعثر بخت تلك المرأة، تقول لها بصراحة إنها قصيرة جدًّا وشبه قزمة وأن ردفاها تشبهان أرداف الفيلة الصغيرة وهي تتعلم المشي، وأن صدرها لا يتناسب مع حجم ردفيها بشكلٍ لافت، وأنها أول امرأة تراها بهذا الصدر المسطح الذي لا يسفر عن أي بوادر للأنوثة، ثم تتعجب من أن كل الأنظمة الغذائية التي مارستها قد فشلت في إحداث أي تغيير في قياساتها، وتضيف إلى ذلك اعتقادها بأن وجهها ليس جذابًا بالقدر الذي يرغب البشر في النظر إليه.

كانت "نعم الخباز" سليطة اللسان وتستطيع التصريح بتلك الحقائق الموجعة بكلمات تبدو عفوية وساخرة. تبدأ هذا الحوار بقولها: "أنتِ أختي"، وتنهيه بجملة: "بنصحك وبخاف على مصلحتك".

تختصر "نعم" كل إمكانات صديقتها في تلك البشرة الخمرية والصوت الخفيض الناعم والرأس المعبَّأ بالكتب القديمة، وتقول ساخرة إن الله لو كان رحيمًا بها ووهبها تلك الإمكانات التي توافرت لـ"نجوى"، لو أخذ منها ذلك الوجه المتجهم وترك لها هذا الجسد الممشوق، والمؤخَّرة المثالية، لتغيَّر ماضيها ومستقبلها المعقد، لكن "الله يوزع الأرزاق على هواه".

تتوقف "نعم" أمام بيت "نجوى" بلا موعد، تنادي عليها كل مرة لأسباب يصعب فهمها، صارت تُعرِّج عليها أحيانًا فقط لتقول لها: "شغل إيه اللي أنت فانية نفسك فيه؟ بكره يقفلوا المكتب،.. بلا أسر منكوبة بلا يحزنون، ده شغل زي قِلّته لا بيقدم ولا بيأخر".

رَفعت "نعم الخباز" الكلفة التي كانت ترافقها تجاه صديقتها، ولم تعُد ترى أن وظيفتها مثار للتقدير الذي كانت تغدقه عليها في وقت سابق، كانت قد حسمت أمرها في موضوع تقصير "نجوى" في حقها وفشلها في مساعدتها، وخيبة أملها في صداقتها، لكنها لم تقرر بعد حذف "نجوى" من قوائم الأصدقاء، تتوقف أحيانًا لتلقي في وجهها بما انتقته لها من الملابس الرياضية المستعملة وهي تقول لها آمرة: "قومي.. اجري شوية... الناس كلها بتجري حواليكي وانت ح تفضلي قاعدة بأردافك الثقيلة دي؟".

تحب "نعم الخباز" اصطحاب "نجوى" أيضًا في جولاتها في متجر "جيش الخلاص"، تقضي "نعم" عدة ساعات في تقليب البضاعة لكنها لا تشتري، تتفقَّد أسعار كل شيء بتمهُّل؛ تدرك "نجوى" أن صديقتها مثل كل مرة جاءت في مهمة محددة تشغل رأسها، مهمة تتصل بجهودها في تدوير

النفايات التي تفوز بها من حملات التنظيف، ومحاولاتها المستميتة لمعرفة الأسعار المناسبة لبيعها أو لتستكشف أسعار بعض المنتجات المماثلة، عادةً ما تقوم بتلك الجولات بعد خلاف نشب مع زبائنها على تسعير بضاعة ما، مكنسة كهربائية مستعملة، أو حذاء رياضي تم استهلاكه، تقلب في قطع الملابس أو الأدوات المنزلية المستعملة لتتيقن مما جاءت لتسعيره، لكنها كل مرة تدَّعي أنها جاءت لتساعد "نجوى" في انتقاء بعض الملابس المناسبة لقوامها، لكنها تنسحب بعد تحقيق أهدافها غير المعلنة بسرعة، وذلك بعد أن يصيبها الدُّوَار فجأة، فتقرر الانسحاب قائلةً لـ"نجوى" إنها تعبت وأنه بات من الصعب تدبُّر أمر قياساتها وهي بهذا الحجم، بعدها تسير بجانبها إلى باب البيت، تغدق ابتساماتها على "إيمي" ثم تهبط كما جاءت باتجاه "الشمس المشرقة"، بمرور الوقت صارت "نجوى" تعرف أهداف "نعم" كلها، تعرف لماذا تظهر وكيف تختفي، تشعر ببوادر لطفها الذي تغدقه لتسهيل بعض الصفقات، تلك الصفقات التي بدت لنجوى صغيرة وحقيرة جدًّا، فصارت تقبلها بطواعية، ومن دون نقاش، مصفف شعر، مكواة، ماكينة إزالة الشعر الزائد، شعر مستعار، كريم لإزالة الترهلات، تتكدس البضاعة التي تشتريها مرغمة من "نعم" في حاجياتها ولا تجرؤ على التخلص منها؛ لأن صديقتها تطمئن كل فترة على مستوى أداء بضاعتها، وتعرض دائمًا عليها استرداد ثمنها إذا كانت لا تروق لها، ولم تكن تلك الأشياء تروق لنجوى في الحقيقة، ولكنها لم تكن تجرؤ على التصريح بذلك، تعودت فقط أن تكدس تلك الفضلات المستعملة في الصناديق وتدَّعي امتنانها لجهود صديقتها في رعايتها.

كانت "نجوى" في الحقيقة تحتاج إلى تلك الصداقة الغريبة، فمنذ جاءت إلى تلك الأرض وهي تشعر بأنها عاجزة عن التواصل والتأقلم وخلق صداقات، عملت في هذا المركز لسنوات وعاشت مع "إيمي" في البيت نفسه لسنوات ولم تستطع أن تحقق هذا القدر من الأُلفة التي تستطيع "نعم" خلقها ببساطة.

تبتسم "نجوى" لمن حولها ببرود ويبتسمون لها في المقابل ببرود، ثم لا تجد ما يمكن تبادله مع زملائها من كلمات، لم تستطع في النهاية إيجادَ أصدقاء أو أعداء أو رفقاء وكانت كل الأيام تمر عليها بصورة بائسة وكئيبة.

ثم دخلت "نعم الخباز" حياتها، فصار يومها يرتبط بعبور صديقتها المصحوب بسلسلة من المخططات والمهمات العاجلة، تملك "نعم الخباز" عالمًا فسيحًا من العابرين، عالمًا تلاحق فيه المشاغل والمعارف التي تدخل وتخرج من حياتها ببساطة، وكان عالم "نجوي" بائسًا لا يحتله إلا الفراغ الذي ينتظر من يلتهمه، فراغ يرافق روحها رغم ساعات العمل الطويلة، فراغ لم يملأه أحد فظل ينمو ويقتات على وحدتها، فراغ يدفعها إلى الاستنجاد بصديقتها الوحيدة كلما اختفت، تسألها: "أين أنت يا نعم؟"

تقول كعادتها:

"أنا مع سليم النجار. حرِّكي ردفيك الثقيلين وتعالي على البحر، سنأكل فلافل".

تحرك "نجوى" ردفيها الثقيلين وتسير بالاتجاه الذي تقرره "نعم" دائمًا، صارت "نعم" بمرور الوقت هي الكائن الوحيد الذي يستطيع أن

يسحبها من وحدتها، ربما لأنها الوحيدة في تلك الأرض من يملك تلك الرائحة، رائحة الشقاء، والمنظفات وأكواب الشاي والقلق، كان في صوتها وحركات يديها وإيماءات جسدها رغم كل تنافرها ما يُذكِّرها بما تركته "نجوى" خلفها، يذكرها بأُمِّها وجدَّتها والعمَّة هانم وكل الأشباح التي دفنتها وراءها، تسير "نجوى" باتجاه الخليج ببطءٍ وتسمح لأشباح ماضيها أن تخرج من الذاكرة.

***

المسالك والممالك

كانت أُمُّ "نجوى" دائمًا مشغولة بغيرها، كان هناك دائمًا ما يشغل بالها وتود أن تشارك ابنتها فيه، تجلس بجانب ابنتها وتعدد فيما يؤرقها قائلة:

"أبوكي صحته في النازل"،.. "أخوكي الكبير راح فين.. قلبي شاغلني عليه..؟"، "البيت ما فيهوش مليم أحمر.. أروح فين وأجي منين يا رب؟"..، "أخوكي الصغير تائه في الدنيا ربنا يرده ويهديه.. الولد ده مش عارفة طالع لمين؟"،.. "لا الكبير ولا الصغير نافعين في علام ولا شغلة ولا مشغلة.. أعمل إيه في النصيب والبخت يا رب؟"، ثم تنهي الأُم تلك الجلسة فجأة لتقول لها في النهاية:

- قومي شوفي جدتك عايزه حاجة؟.

كانت "نجوى" بطبيعة الحال تحاول آنذاك أن تثبت لها كفاءتها في حمل همومها التي تتفاقم بمرور الوقت، وتحاول التشعلق بحبال النبوغ كي تُشبع حاجة الأم لأطفال نابهين، تمارس أحيانًا الأمومة نيابةً عنها فتقتسم

معها السهر، والتفقُّد الأمومي لفراش الجدة، وتحضير الوجبات اليومية، وانتظار غيبة الغائبين، ثم التحسر على الحال.

تقضي الأم أمسياتها عادة غافية وقد هدها التعب واستسلمت إلى آلام الدَّوالي المستعصية بعد نصف القرن من الوقوف كمدرِّسة للتاريخ والعلوم الاجتماعية، تنام مبكرًا تاركةً لابنتها عبء التفكير في المستقبل الغامض، وعبء الاجتهاد في تحقيق أمنياتها لها بالتفوق، بينما يقضي الأب أمسياته محاولًا إيقاظ الأم من غفوتها، يروح ويجيء متحدثًا إليها...

- أنتِ نمتِ يا ست الكل.. أمَّال مين ح يعشيني...؟.

التفوق الذي أحرزته "نجوى" في الدراسة كان أكثر مما تمنته أمها، فرغم فشلها في الالتحاق بإحدى كليات القمة، لكنها استطاعت التخرُّج بتقدير امتياز في العلوم الاجتماعية ومن ثَمَّ عُيِّنت بالجامعة في قسم الدراسات العليا، عبَّرت الأم عن فرحتها بذلك للجدة قائلةً:

- البنت شاطرة والولدين خايبين.. ربك بيقسم الأرزاق على هواه.

كان ذلك يعني عدم رضاها بألم عن تلك القسمة التي لا تراها عادلة.. وتراها الجدَّة طبيعية تؤكد ذلك قائلة: "الولاد طالعين لأبوهم؟". لا تنشرح الأم بتلك الإيماءات التي تختصر فيها الجدة صفات الأب كلها في لفظ "خائب"، لكنها لا تردعها، تصمت فقط متظاهرةً بعدم سماعها تلك الجملة.

تدَّعي الجدة التي يعيشون معها أنها تنتمي إلى كائنات أرستقراطية مهاجرة، وأنها تنحدر من شجرة عريقة كل فروعها وأغصانها وثمارها

تفرقت في بلاد الله التي لا تعرفها، فقط تسمع عنها.

تدعي الجدة أنها ورثت تلك العينين اللوزيتين الفاتحتين والقوام الرشيق الذي انحنى كثيرًا تحت مطرقة الزمن من جدتها لأمها الفرنسية، التي جلبها معه الجد الأكبر الدكتور الذي كان من طلاب البعثة الطبية في فرنسا، الجد الذي تزوج سيدة فرنسية وأنجب منها أولادًا وأحفادًا لم يَرَهُم أحد؛ لأنهم لسبب من الأسباب أيضًا يعيشون منذ نصف القرن في بلاد الله البعيدة، تعتقد الجدة أنها سليلة تلاقح عائلتين من أكبر عائلات مصر: عائلة "هنداوي" و"نبراوي"، وتؤكد أنها وُلدت في سرايا العائلة الكبيرة التي كان يُطلق عليها "ڤيلَّا الهانم" والتي أصبحت مدرسة الثريا بشارع بستان الطاهرة، وأن بيت "الهانم" كان مترعًا بالحشم والخدم والمربيات، وأنها تعلمت الفرنسية منذ نعومة أظفارها، لكنها لا تتذكر منها غير بعض العبارات؛ لأنها لم تمكث في تلك السرايا طويلًا بسبب تنقل والدها الذي كان مديرًا للري في عدد من المناطق القروية، وعاشت الأسرة متنقلة بين تلك المدن الصغيرة مثل طنطا وكفر الزيات والمنصورة؛ تعتقد أيضًا أن ثمة عزبة مترامية الأطراف في ربوع تلك الدلتا كانت تُسمَّى "عزبة الهانم" هي عزبة جدتها، كان لتلك الهانم مزارع مانجو وبرتقال، وأحمال قطن وكَتَّان في المخازن، وفلاحون وبيوت طينية وأملاك، كان يصعب على الجهات المعنية حصرها ومصادرتها؛ تدَّعي الجدة أن "عزبة الهانم" كما كان يُطلق عليها كانت بالضرورة ستؤول في النهاية إليها وإلى إخوتها، لكن للأسف تمت مصادرتها، مشيرة بذلك إلى حركة التأميم التي قضت على الإقطاعيات الصغيرة والكبيرة في مصر آنذاك.

لم تكن أسرة الأم هي العائلة الوحيدة التي صودرت أملاكها، لكنها ربما كانت الأسرة الوحيدة التي بقيت تجترُّ تلك اللحظة، لم يبقَ من ذلك الميراث سوى تلك الوحدة السكنية التي كانت وظلت مسكنًا خاصًّا بالأسرة، ذلك البيت الذي يقع في تقاطع شارع قصر العيني مع شارع بستان الفاضل، وهو البيت الذي يتقاسمون وحداته مع بعض الجيران القدامى الذين اختفوا، ورَّث هؤلاء الجيران الشقق السكنية لأحفادهم، ثم صاروا يؤجرونها لمن لا يعرفون، في النهاية لم يبقَ في البيت من سكانه الأصليين سواهم، صار البيت بغرفه وأفاريزه وشرفاته العالية صالحًا فقط كوثيقة دالَّة على تبدل الأحوال.

تقول الجدة إن هذا البيت كان يشرف على قصر المنيل وأنها كانت تستطيع رؤية القصر من نوافذه العالية، كما كان البيت يشرف على النهر، وكانت ترى القوارب إذا فقط عبرت شارع القصر واخترقت البساتين المحيطة.

ليس هناك جغرافيًّا ما يوافق رؤيتها التي ظلت تحاكي عالمًا يخص تصوُّراتها للوجود، تعتقد الجدة أشياء كثيرة عن أصولها العرقية المتعددة، لكنها لم تملك دليلًا على ذلك سوى عينيها اللوزيتين وجسدها الصغير الأبيض وأنفها الأرستقراطي الذي أورثته للأم، وشقة واسعة في بيت قديم، تآكلت سلالمه وسقط طلاؤه وبنت العنكبوت بيوته في شرفاته التي لا تفتحها غالبًا بسبب الضوضاء والغبار ورائحة المُخلَّفات الصحية المتكدسة حوله، بيت مكدس بالصور والألبومات، تهالك طلاؤه لكنه ما زال واسعًا بما يكفي بأسقفه العالية لأن يحتمل الحياة معها والتي كانت تنطوي على مفارقة

كونية، فما زالت الجدة رغم سنوات عمرها الطويلة حادة البصر والسمع وخفيفة كريشة، تتحرك مستندةً على عكازها برشاقة طفلة نَزِقَة، تجلس في مقعدها المفضل في مواجهة الأب وهي تقبض على صفحة الوَفَيَات، لتجد علاقة بين فقيد "آل عانوس" و"عائلة الخازندار" وبين أخوالها وأعمامها الذين يحملون ألقابًا سَنِيَّة، وتبدو لها خريطة مصر ما هي إلا شجرة أنساب لأسر تتقاطع في قرابتها عابرة للجغرافيا.

تهرب الأم إلى غرفتها تفاديًا لأي مواجهة محتملة بين الجدة وبين الأب، وتتظاهر بالانشغال لأنها لم تكن تهتم كثيرًا إلا بالتواريخ التي تخصها وهي تواريخ دفع الفواتير والمستحقات بعد حصر راتبها وراتب زوجها، مراجعة حسابات الإنفاق، مواعيد قسط الثلاجة والغسالة، مصاريف البيت الشهرية.

تقضي أم "نجوى" وقتها مهمومةً بتاريخ تخزين الأرز، وموسم تجميد الثوم، وأوان شراء البصل، ومواسم شراء الزبد، وتجفيف الخضراوات، وتسبيك الطماطم، كانت منشغلة بقدرتها على تأمين القدر الكافي من الحياة المستورة التي تلائم تصوُّراتها.

ولم تكن تتدخل كثيرًا فيما تدعيه الجدة، على عكس الأب الذي يجلس بجوار النافذة الوحيدة المطلة على ضجة الشارع، النافذة التي يواريها تحاشيًا للغبار وضجة العابرين، تاركًا نصف جسده مستندًا على سياجها الخشبي، مدخنًا سيجارته التي يلقي بقاياها عادةً من السياج، مبدلًا أكواب الشاي التي يعدُّها بنفسه معطيًا ظهره للجدة، منتظرًا ضجرها من لامبالاته ومن

ثَمَّ دخولها حجرتها واكتفاءَها بمؤانسة الراديو الصغير الذي لا يفارق وسادتها، كان ينتظر تلك الهدنة ليسمح لنفسه باحتلال مجلسها مسترسلًا في نقض كل ادعاءاتها، ويختصر رواياتها في أنها تخاريف عجائز، مصححًا الأبعاد الجغرافية التي يتقاطع فيها شارع قصر العيني بالمنيل أو جاردن سيتي بالمنيرة.

يقول الأب إن أخوال الأم المزعومين لم يكونوا أكثر من فلاحين مستأجرين في أرض قريبة من قريته وأن عائلتها كانوا تجار بطيخ في الغالب، وأنه لم يعاصر أحمال البطيخ التي تسير بها الجِمال من "نبروه" إلى أسواق مصر القديمة، ويصر على أن النسل الشريف الذي تتحدث عنه الجدة لم يكونوا إلا "شركس" وهم أحط خلق الله على الأرض، فقد كانوا عبيدًا لم يعرف لهم دينًا ولا ذمة، يؤكد الأب في جلساته أن الشركس لا أصل لهم ولا فصل، وكانوا في الحقيقة قطاع طرق وسُرَّاق مواشٍ وجنودًا مأجورين، ويؤكد أيضًا أن تأميم تلك الأراضي والأبعاديات التي ورثها الترك والشركس، كان أهم ما حققته الثورة التي كان أهم إنجازاتها طرد كل تلك الجاليات التي اقتاتت على خيرات الفلاحين.

بعد أن تستسلم الجدة للنوم، يُجلسني الأب بجوار ابنته "نجوى" ليؤكد لها أن فروع شجرة العائلة المثمرة أعمامًا وأخوالًا التي تتحدث عنها الجدة لا تنتمي إلى الحقيقة بِصلَة، فهو لم يَرَ من تلك الشجرة سوى تلك الجدة، التي تتمحور علاقتها بالعالم بين غرف المنزل الذي يعيشون فيه وعدة صور على الجدار للجد - الله يرحمه - والأخوال اللي ربنا ييسر طريقهم في الغربة.

لم تبدُ الجدَّة يومًا متأذية من هذا الانقطاع الجغرافي بينها وبين أبنائها وأحفادها، بل ظلت ترى في ذلك وضعًا تُحسد عليه، فالصور التي كانت تُرسل إليها من بلاد بعيدة، علب الحلوى، الجوارب الصوفية والشيلان التي كُتب عليها صوف إنجليزي خالص، أو صنع في فرنسا كانت تظل كما هي مصفوفة بعناية فوق رفوف دواليبها، تعيد تقليبها مرةً بعد أخرى، متصفحة بعض الصور القديمة، تخرج أحيانًا من صناديقها وهي تقول لنجوى: "شوفتي خالك عبد الإله بعت لي إيه من ألمانيا؟"، "شوفتي صورة نادية بنت خالك فتحي على الثلج؟"، الصور القديمة هي برهانها الوحيد على هذا التاريخ الأرستقراطي المنقرض، تلك الصور التي واصلت الأم الحفاظ عليها بعد رحيل الجدة ذات مساء.

يقول الأب إنه رأى زوجته للمرة الأولى وهي تزور بعض أخوالها في قرية "ميت موسى"، كان بعض أقاربها يجاورون أرض أعمامه، كانت أول حضرية يراها أهل القرية وهي تتمخطر في ذلك الصيف القائظ بين حقول القطن، قال إن شعرها المائل للشقرة جعل كل الفلاحين يلقبونها بالخوجاية، لم تكن خوجاية، كانت امرأة صغيرة متخرجة حديثًا في مدرسة المعلمات العليا، وتعمل في مدرسة السعيدية بالمنيرة، وتعيش مع أمها بعد أن هاجر أخواها إلى بلاد لم تعرفها، وانقطعت الصلة بهما تقريبًا، كان قطار الزواج قد تركها خلفه بسبب تمسك الجدة المضني بخريطة الأنساب، وأنه رأى في عينيها ذلك القلق، قلق امرأة صغيرة تخاف الوحدة وأنه لذلك أصر على الزواج منها؛ ولذلك خاض عدة محاولات لإقناع الجدة الحَرُون بعراقة أصله، وفي النهاية انتصر وتزوجها وصار ربًّا للبيت الذي تفرق رجاله في المسالك والممالك، قال إنَّه قابل أحد إخوتها المتفرقين في بلاد الله مرة

أو مرات قليلة وبعيدة خلال حياته معها، لكنهم جميعًا كانوا فقط يعبرون عن مشاعرهم الفيَّاضة في الأفراح والأتراح عبر مكالمات تلفونية مختصرة وبعض الخطابات والصور.

يعترف الأب، حين يكون أكثر تسامحًا، أن أُمّ "نجوى" جميلة، وبنت ناس محترمين، وأن عيلة "نبراوي" و"هنداوي" عائلات عريقة، لكنها انقرضت، ويرى أن مشكلة الأم تنحصر في الأسى الذي يملأ عينيها، وأنها لو رضيت قليلًا، ودفنت تلك التطلعات الطبقية لكانت أكثر سعادة، قال إنَّها أصبحت صارمة وصامتة وقليلًا ما تتكلم، وإن صمتها تفاقم بعد فَقْدها عدة أجنة، لكنها في النهاية تعلق في أهداب رحمها ثلاثة أطفال، يقول إنَّ مشكلة أم نجوى الوحيدة تنحصر في اعتقادها أن كل شيء حولها يتدهور وأن عليها إيقافه، كانت تراقب كل يوم تدهور دهان الجدران، وتآكل حوافِّ التنجيد، واهتراء السجاجيد القديمة بأسى، وأن ذلك الأسى ظل يتفاقم ويدفع بها إلى جنون التنظيف المستمر وإلى هوس البحث عن السفن التي تعبر إلى حيث يمكنها أن تتحرر من هوسها بتبدل الأحوال، يقول إنَّه عانى كثيرًا من هذا النَّزَق، واضطر أن يجري وراءها في بلاد الله وأن يشعر بالمهانة وأن يعود كل مرة خائبًا ليجلس إلى جوارها..

تخفض الجدة صوتها وهي تسرُّ لـ"نجوى" بأن أسرة أبيها أسرة متواضعة، فعيناه بالغتا السواد، وعظام فكِّه وتضاريس وجهه البارزة وتلك السمرة التي تميز ملامحه والتي أورثها لابنته تؤكد نظريتها في علم الأجناس، لا بُدَّ أنه جاء سلْيلًا وحفيدًا لجارية زنْجيَّة، ثم تؤكد أن أبناء الحرائر لا يولدون بتلك الخشونة، وتشير في مراحل سخطها إلى أنه خائب، وينحدر من

سلالة خائبة، خالية من الألقاب، فهو مجرد موظف في المركز القومي لبحوث النباتات والحشرات، وابن موظف كان يعمل بدوره محاسبًا في أحد السجلات، صحيح أن جده الأكبر كما يقولون كان من كبار المُلَّاك، لكنه عاقَر الأفيون وانتهى به الأمر سفيهًا مفلسًا لم يترك لأحفاده غير بعض الفدادين التي تُعد على أصابع اليد، وأن ما ورثه الأب من تلك الأطيان كان حديقة مانجو صغيرة وبيتًا ريفيًّا، تحتله أخته "هانم" التي تجيء مثل "زعابيب أمشير".

***

العمة "هانم" قصيرة ورَبْعة وخمرية ولها عينان سوداوان مكحولتان واسعتان مثل عينيْ أخيها، تجيء دائمًا في مواسم الحصاد حاملةً معها خزائن المِشّ والجبنة القَرِيش وأقفاص العنب والمانجو، تتصدر المجلس فتعتصم الجدة خلال تلك الزيارات في حجرتها وتتوارى الأم بدورها عن الأنظار تاركةً الجمل بما حمل للعمة التي تتصرف بعفوية كأن البيت بيتها، تضع رأس أخيها على حجرها وتتذكر كيف ربته كأخ صغير وكبر وصار لا يعرف أُمًّا غيرها، تملك العمة "هانم" ذاكرة تفصيلية وطاقة على الحكي واجترار الماضي الذي راح إلى حاله، يبتهج الأب ويشعر لوهلة أن هذا البيت بيته، فيخفف من تحفُّظه قليلًا ويحاول باستماتة استعراض ما يعتقدان أنه يمثل مجدهم الأسري، يقول الأب محرضًا أخته على سرد تلك الأمجاد: "فاكرة يا نومة جنينة المانجة اللي كانت في بيت جدك؟" تهز العمة رأسها المتلفع بالطرحة التلِّي السوداء مُؤمِّنة على ذكرياته: "فاكرة فرسة المرحوم ابوك،

كان اسمها موزونة، كانت ترمح في السبق زي الرهوان"، تؤكد العمة "هانم" رواياتِه قائلة: "الله يرحم الغاليين.. كان بيت جدي الله يرحمه ترمح فيه الخيل".

العمة "هانم" تتحرك في بيت أخيها بأريحية قروية تؤرِّق أم "نجوى"، التي لا تتوانى أثناء تلك الزيارات في الانعزال والتخفي في غرفتها وترك الرجل لأخته التي تحب أن تطعمه فتة العيش الفلاحي بالقشطة واللبن أو برام الكشك بالفراخ، وسدرة البطة بالكسكسي وشُرْبة البصل.

تجيء العمة مجهزة بوجباتها التي تسميها "برة الحبايب".

يبلغ الأب ذروة تألقه في وجودها، تستطيع أن تجلب معها البهجة والضجة بحركاتها المتوترة في أرجاء البيت، وحين تحزم العمة "هانم" حوائجها استعدادًا للرحيل كان ثمة صمت قاسٍ يغلف البيت لعدة أيام يعود فيها الأب إلى اجترار الحنين إلى قريته.

ورثت "نجوى" عنه وعن العمة هانم تلك الهيئة القروية التي حددت ملامحها، فتاة قصيرة مثل العمة "هانم" وحين يصيبها الامتلاء قليلًا فسيكون لها تلك المُؤخِّرة الضخمة التي تجعل مشيتها ثقيلة لا تنمُّ عن رشاقة أو جمال، قالت الأم ذات يوم بأسف إن البنت ورثت هذه السمرة والاستدارة الزائدة على الحاجة من عمتها؛ صارت "نجوى" تخضع لهذا الوصف باعتباره تحصيل حاصل، ويعبر باختصار عن جملة الأم الفريدة بأن "الله يقسم الأرزاق على مزاجه..، والبنت عاملة زي البطة والولاد سبحان الله فارعين".

علاقة أم "نجوى" بالعمة "هانم" ظلت باهتة وحيادية، فقد كانت تعتقد أنه من المفيد أن يكون للإنسان أخت يعتمد عليها وهي لا تعرف أين تناثر إخوتها في الوجود، لم تكن العمة تهدد نفوذها إلا في تلك الزيارات التي لا تتجاوز أربعة أو خمسة أيام كل عدة أشهر، كان ذلك الشعور بالأريحية واللامبالاة تجاه العمة هو الشعور السائد قبل أن تتغير الأم تمامًا وتصيبها لوثة السفر، في تلك النوبات من الشقاق الأسري كانت المرأتان تتنازعان الأب مثل كتلتين متساويتين في المقدار متضادتين في الاتجاه، كل منهما تمارس صراعها الوجودي على جثة الجميع، تقول أم "نجوى" وقد التهبت وجنتاها من الانفعال: "الناس كلها بتسافر واحنا ح نفضل كده؟" كانت "كده" تعني إشارات عديدة لتساقط الطلاء وتعثر محاولاتها الشهرية في تغطية النفقات واعتراضها على علب السجائر التي تختطف نصف راتب زوجها، يرد الأب على نوبات الانفعال بالابتسام، معتقدًا أنهم يعيشون بحمد الله مستورين.

كان الأب في الحقيقة أكثر انسجامًا مع حياته، يملؤها بتفاصيله اليومية التي يبدؤها بسماع النشرات الإخبارية وارتشاف القهوة في الشرفة، ثم حلاقة ذقنه بتأنٍ وتقبيل جبهة أُمّ "نجوى" أو شفتيها بسرعة لأنها دائمًا ما تكون متعجلة، ثم السير باتجاه عمله المكتبي الذي لا يفصله عن البيت إلا عدة شوارع اعتاد أن يمشيها على قدميه.

لم يكن الأب بطبيعته النفسية مؤهلًا لطموحات أُمّ "نجوى" التي كرَّست وقتها لملاحقة الإعارات وفرص السفر، ومحاولات النزوح، كان

يبدو راضيًا وغير منزعج من ضيق الرزق أو تبدل الأحوال، يحاول معظم الوقت أن يخفف من انزعاجها الذي تُبديه من اهتراء المراتب مثلًا بحملة لشراء عدة أغطية وبياضات ومستلزمات أخرى للبيت ليخفف بذلك من حدَّة أساها، لكن تلك المشتريات عادة لا تتناسب مع طموحها أو ذوقها، وعادة ما تلومه على تسرعه في شرائها، وكان عادة ما ينسحب، يدخن أكثر، يتحايل على صمته بفرك أصابعه، وتجنب الرد على عباراتها التي يحاول عدم الانتباه إليها.

صارت أُمّ "نجوى" تحكي باستفاضة عن المدرسين والمدرسات الذين وجدوا طريقهم إلى أبواب الإعارات في الدول النِّفْطية الكثيرة، وكان الأب يغلق تلك المناقشة بجملته المختصرة:

- الله ييسر لعبيده، ربنا يزيدهم، كل حي بياخد نصيبه.

وكانت تلك العبارة بالذات هي ما تصيبها أكثر بالتوتر والأسى، تشارك الجدة من تحت لحافها بدورها في تلك النقاشات قائلة: "سيبِك منُّه، ده كَسُول وبيعطل المراكب السايرة.."، بعد عدة توترات يشهد فيها البيت تلك المشاحنات التي تبدأ بأن يلقي فيها كل منهما بأقسى كلمات الانتقاد والتراشق بالأصول والأنساب المفخخة بالألغام، بعدها تتسلح أُمّ "نجوى" بدموعها، ويتسلح الأب بصمته، ثم ينتهي الشجار في صباح يوم أكثر بهجة، حين تخرج الأم من غرفته متوردة وتشرع في تجهيز الشاي الذي نادرًا ما تقوم بإعداده له، ثم يخرج الأب بعدها مبتهجًا يلامس كتفيها بيديه ويضع قبلاته على خدها متجاهلًا قواعد الاحتشام المفترضة،

مبدلًا موقفه المبدئي من السفر منصاعًا وراء خطط زوجته المستقبلية، في المرة الأولى كانت السفرة إلى ليبيا برًّا، حيث عبر بسيارته مئات الأميال ودخل إلى بنغازي لا يحمل سوى مؤهلاته التي كانت بدورها لا تؤهله إلا لوظيفة مرافق زوجة تعمل بالتدريس الأوَّلي.

قضى الأب عدة أشهر بحثًا عن عمل بينما كانت أُمّ "نجوى" تدرِّس فصول جغرافية وتاريخ الوطن العربي في إحدى المدارس الأولية للفتيات.. لم تُتوَّج أحلام الأم بأكثر من فردتَيْ أساور ثعابين من الذهب، ما إن وضعتهما في يديها حتى اندلعت الحرب الكلامية التي قادت إلى تلك المواجهة العسكرية بين مصر وليبيا وتم إلغاء مادة الوطن العربي من مقررات المدارس، وأصبح من الضروري أن يمتثلوا لقرار طرد العمالة المصرية فخرجا معًا مثلما جاءا بعربة بيجو محملة بما استطاعوا حمله من مقتنيات بيتهم الذي تركوه خلفهم.

لم تعطِ أُمّ "نجوى" عند عودتها تفاصيل أكثر مما تم تداوله رسميًّا، نزاع سياسي أدى إلى طرد آلاف الموظفين المصريين واضطرارهم كغيرهم ترك كل شيء وراءهم، وكان كل ما استطاعا العودة به عدة بطاطين، وكومة من الشراشف والمفارش القطنية، وبعض اللوحات الباروكية المطبوعة على الجوبلان، جلبتها الأم من سوق طرابلس بوصفها منتجات إيطالية ذات قيمة، نامت بعد تلك العودة في فراشها عدة أيام، ثم دارت في الغرف عدة دورات لتُبدي استياءها مما وصلت إليه حال البيت، ثم قررت قلب البيت رأسًا على عقب لتنظيفه، ثم بدَّلتْ قطع الأثاث في محاولة للتجديد، بعد ذلك كست كل طاولات البيت بتلك الأغطية والشراشف التي أخرجتها من الحقائب، وضعت لوحاتها الباروكية على الجدران، ثم نظرت حولها

وشعرت بذلك الأسف لأن كل ما بذلته لم يستطع مداراة تجاعيد البيت القديم المتهالك.

واصلت أُمّ "نجوى" التعبير عن أساها وخيبتها بطريقة فريدة، انخرطت في إظهار التديُّن والمواظبة على الصلوات، وإخفاء شَعْرها الذي كثيرًا ما تفاخرت بطوله ولونه، ثم أطالت كثيرًا في ثيابها التي بدت رغم عنايتها بها رثة ومثيرة للشفقة، رافق تلك التطورات الكثير من إجراءات التقشف والتدهور والضجر، حاول فيها الأب مراضاة مزاجها المتقلب بمفاجآته التي لم تكن ترضيها في الغالب، يعود من عمله حاملًا معه ما يعتقد أنه يعدل مزاجها الذي صار متقلبًا أكثر، آيس كريم مستكة من جروبي، أو روب ساتان مخملي من شارع الشواربي، وأحيانًا زجاجة لاڤندر من الشبراويشي، لكن الأشياء التي كانت تسعدها، لم تعُد تشكل لديها أي بهجة، صارت تعتبرها إنذارًا بفقدانه عقله وتبديدًا لراتبه الذي صار لا يكفي، وإمعانًا في تعبيرها عن سوء إدارته، وعقابًا له على سوء تقديره للموقف كانت تتعمد النوم مبكرًا لتفادي تلك الجلسات المسائية التي اعتادت فيها مشاركته السجائر المختلسة على حافة الشرفة، أو اقتسام زجاجة البيرة التي كان يخبئها دائمًا للحظات الصفاء المرتقبة.

وزاد من تعقيد الموقف تدخل العمة "هانم"، التي عبرت عن فجيعتها برغبة الأم في شحططة أخيها في بلاد الله، والسفر والخيبة التي تجري وراءها، يعقب ذلك اشتعال الحرب المستترة وتبادل العبارات الحادة بين العمة والأم، تقول العمة بأسف: "يا عيني يا خويا محملينك أكثر من طاقتك.. مالك ومال الغربة والروحة والجيَّة.. اللي زيَّك يرتاح ويمدد

رجليه، ده انت سيد الناس ورزق عيالك واسع، بكره يكبروا ويتخرجوا وتخف حمولك"، وتختم مرثيَّتها بأمثالها التي تتضمن قدرًا من التشفِّي في طموح أمي المضني "اللي مش عاجبه حاله يجيب ويهز غرباله" كانت تقول ذلك لاعنةً الغربة التي بدَّدت أولادها الخمسة في بلاد الله.

يؤكد الأب موافقته على وجهة نظر أخته التي صارت هانم بقدرة قادر وتغيرت أحوالها؛ لأنها "مسكينة.. والله عوضها عوض الصابرين"، لكن تلك التغيرات التي طرأت على بعض الناس وارتبطت بظهور النفط وخروج أمة لا إله إلا الله للبحث عن رزقها في بلاد العرب، أصابت أُمّ نجوى أكثر بلوثة الأسى والتطلع، ولم تهدأ حتى اقتادت زوجها مرة أخرى ليجرِّبا حظهما في أحد جبال اليمن، كان ذلك هو المكان الوحيد الذي أهَّلته لها إعارتها الحكومية بعد أن تسابق زملاؤها الأكثر خبرةً على بلاد أكثر غنى، كانت تلك المحافظات الجبلية البعيدة هي المكان الوحيد الذي استقطب الكثير من المدرسين المصريين، في محاولة لتأمين الحياة بأقل قدر من الحفاظ على المظاهر، وتفرغت الجدة آنذاك لرعاية أحفادها أو بشكل أصح تفرغوا هم لرعايتها.

تمصمص الجدَّة شفتيها قلقًا على ابنتها الشقيانة في بلاد الله، تضم ساقيها المتورمتين من تحت لحافها وتعلن لـ"نجوى" نبوءتها: "أبوك زي القرش الممسوح مطرح ما ترميه يرد لك.." كانت تقول ذلك من باب التكهن بأن الرحلة لن تستغرق طويلًا، لكنهما صمدا لعامٍ دراسي، وجاءا في الصيف محملين بالبُن الأخضر وأكياس الشاي الهندي والبخور الجاوي

والعسل الجبلي واتفقا في النهاية أنهما لا يصلحان لتلك المغامرات، وأنهما كبرا على البهدلة، وكان كل ما يتذكرانه من تلك الرحلة هو اضطرار أُمّ "نجوى" لتغطية وجهها على عادة تلك البلاد، وارتياد الأب مجالس القات وسهراته الطويلة التي ظل يسترجعها بمحبة، كانا يضحكان كثيرًا كلما تذكَّرا ملابسهما التقليدية التي اعتاداها في تلك البلاد.

تركت تلك السَّفْرة آثارها على الأم التي ظلت ترى بأسى أنها انزلقت إلى المستوى الذي لم تكن تتمناه، وأنها فقدت نصف أحلامها، واستكانت إلى حقيقة أن وضعها المادي الذي ينحدر تحت مطرقة الغلاء لن يسمح لها بالتشعلق حتى في أهداب الطبقة المتوسطة، كما أصابها اليأس التام من قدرات زوجها على انتشالها أو فهمها، صارت تراقب تساقط طلاء السقف بتألم وتنظر إلى النوافذ الخشبية العالية التي يتكوم عليها ذلك الرماد وعوادم السيارات بحزن، وتفكر في المستقبل الذي لا شك أنه لا يجلب لها إلا المزيد من الأسى، تفاقم الأسى بموت الجدة التي انتهى بها المُقام في مقبرة صغيرة في أرياف قرية الأب التي طالما تعالت عليها، بعد أن فشلت جهود أُمّ "نجوى" في الوصول إلى مقبرة أسرتها العريقة، دُفنت الجدة في مقبرة القرية وتلقت الأم عزاءها في بيت العمة "هانم".

بيت العمة "هانم" لم يكن بيتًا، كان في السابق مجرد "حكرة" صغيرة في غيط الوسيَّة، فبعد فقدانها المبكر لزوجها الذي كان مجرد عامل محارة وبلاط يطلقون عليه مقاولًا على سبيل الافتراض والمجاملة، لم يترك زوج العمة "هانم" لأولاده الخمسة سوى بعض الديون التي سددها أخوها وعدد

من السقالات وأدوات المحارة والبياض وأدوات السباكة والنجارة، تقول الأم إنها حضرت ذلك المأتم، كانت العمة "هانم" آنذاك في عز شبابها، حمل الأب جسد نسيبه إلى تلك المقابر التي وجدتها الأم مجدبة ومخيفة وليس بها حتى عود صبار، مجرد جرف جبلي تتناثر فيه أكوام من الحجارة التي لا يعرف فيها قبر ولي ولا غفير.

بعد إجراءات الدفن التي شاركت فيها الكثير من النسوة بالصراخ وتقطيع الجيوب وتداول صواني العشاء بين البيوت، وبعد أيام العزاء، جلست العمة "هانم" آنذاك متوسطةً أولادها الخمسة ووضعت يديها على رأسها وانخرطت في البكاء، وكان ذلك إيذانًا بأن يترك أولادها المدارس ويحملوا أدوات والدهم ويمارسوا رجولتهم في البيت الذي خلا من كبيره، بعد ذلك كانوا يسيرون خلف العمة في زيارتها إلى أخيها يحملون أقفاص الزيارة التي تجلبها العمة كما اعتادت، تدخل العمة ويقف أولادها على باب الخال ولا يدخلون، يُقبِّلون يد الأب بسرعة وهم يقولون: "كل سنة وأنت طيب يا خال، مع السلامة يا خال"، كان ثمة عرف قد استقر بشكل غير معلن ينظم زيارة أولاد العمة "هانم"، فدخولهم بهيئتهم القروية ولكنتهم الثقيلة، وأرجلهم المعجونة في طين الطرق الترابية يجب أن يكون بحساب، وهو بشكل عام أمر غير مُرحَّب به، تؤكد أُمّ "نجوى" ذلك العرف بترحيبها الحذر الذي لم يشجعهم قطّ للمكوث غير دقائق محددة، يعلل الأب جفوتها مع أولاد أخته بالقول بأنهم صاروا رجالًا وأن بيته فيه بنات مشيرًا إلى وجود "نجوى".

كان أولاد العمة "هانم" مجرد أشباح لأقارب ينتمون إلى كل ما كرهته الأم في زوجها، لكنته القروية، تباسطه، سذاجته، حنينه إلى ذلك العالم الذي يجد فيه نفسه كما يحب، قرويًّا وكسولًا وأكولًا، يرتدي كما يرتدون مجرد جلابيب مجعدة ومتسخة أحيانًا، وتظهر فيها بعض الخياطات البارزة، ورغم حرص أبناء العمة "هانم" آنذاك على خلع نعالهم أمام الباب، فقد كانت تلك النعال المتجاورة تبدو مهترئة من طول الاستعمال وتثير حنق الأم أكثر من شفقتها.

كان الأب يتحدث إلى أبناء أخته باعتبارهم رجالًا كبروا، ليس مهمًّا إن تعثرت درجات تعليمهم في المحطات الأولى، فلم يكونوا نجباء في الحقيقة، وكان الحصول على الدبلوم التجاري أو الصناعي والالتحاق بالعمل هو الذي يخلق تلك الرجولة المبكرة، يخلق عاملًا نصف متعلم ونصف جاهل، لكنه رجل، وكانت العمة "هانم" بدورها ترى أن الأفندية بشكل عام مثل أخيها "جيوبهم خالية وطرابيشهم عالية"؛ أي لا يملكون من متاع الدنيا إلا الحذلقة وخواء الجيوب، تأكد ذلك الخاطر للعمة بعدم جدوى المدارس وحذلقة المتعلمين بعد أن انفلت أبناؤها واحدًا بعد الآخر إلى بلاد الله، ثم استقروا معًا للعمل في تلك البلاد البعيدة التي تطلق عليها العمة "ملانو"، بدأ ذلك حينما نجح في التسلل إلى تلك البلاد ابنها الأكبر الذي يُدعى "فارس" والذي ظلت سنوات تدعو له باسمه في كل مناسبة: "إلهي يا فارس يا بني يعطيك ويفتح لك في كل ضيقة طريق".

كان فارس قد خرج في مواسم قطف العنب في ميلانو، عابرًا في رحلته ليبيا ومالطا واصلًا إلى تلك المدينة التي بدأ حياته فيها بالعمل في حقول

العنب، ثم ترك تلك المهنة ليعود إلى مهنة أبيه التي هي المحارة والبلاط والدهانات، كان "فارس" أول من خرق شروط إقامته، واستدعى بعد ذلك إخوته لمساعدته في أعماله التي توسعت فانفرطوا واحدًا بعد آخر ثم لحق بهم فلول من أقرانهم إلى تلك المدينة، منذ ذلك التاريخ، صارت أُمّ "نجوى" أكثر انفتاحًا في الكلام مع العمة "هانم" عن أولادها، وأحيانًا ما تتجاوز تحفظها لتقول: "كيف حال فارس وأخواته.. إن شالله بخير"، تهز العمة ذقنها وتصلي على سيدنا محمد عدة مرات لتواجه مخاوف الحسد وتقول باختصار: "شقيانين الله يستر طريقهم"، كانت العمة قد بدأت رحلتها في تعبئة الشرائط التسجيلية، التي تبدؤها بالبكاء وتختمها بالبكاء، وتدعو أخاها أحيانًا ليشاركها تسجيل بعض الوصايا ويسأل عن الرجال الصغار الذين ما زالوا يُلقبونه بلقب خال..

صارت العمة "هانم" أقل في ظهورها المفاجئ وأكثر ثقلًا في الزيارات التي انتهت بالانقطاع، وحل محلها المحادثات التليفونية التي تستفسر بها عن صحة أخيها من حينٍ إلى آخر، وأصبح من الطبيعي أن تتنازل الأم أحيانًا وتصحب الأب في زيارات تفقُّدية إلى بيت العمة وإمبراطوريتها الناشئة؛ كانت العمة قد بدأت مرحلة ظهور النعمة التي تلازم حركة الهدم والبناء، ثم قادت حركة تحول معمار عزبة "ميت موسى" إلى "ميلانو الصغرى" صارت تتحدث باستفاضة عن أسعار السيراميك والحديد وألوان الطلاء، وأشكال أسْقُف الجبس المعلقة وديكورات المنازل وأنواع المراوح وأجهزة التليفزيون، وكان ذلك يصيب أُمّ "نجوى" دائمًا بالاختناق والحسرة وهي تفكر في تكلفة إعادة طلاء جدران المطبخ وكسائها بالسيراميك وهي الخطة

التي تتناقش فيها مع الأب منذ عدة سنوات.

كانت العمة بدورها تدرك أن كل ذي نعمة محسود، وزادت هواجسها العميقة بالعين التي فلقت الحجر، فوضعت آية الكرسي في إطاراتها المُذهَّبة في كل المساحات الخالية على مدخل البيت وبين كل طابق من طوابق البيت الخمسة، وصارت تستقبل زيارات العائلة بموجات من البَخُور المحروق وهي تردد بصوت مسموع في المعوذات.

وفي سياق تلك التغيرات أقلعت العمة عن ذكر ولدها البِكْر "فارس" وتناست أحلامها السابقة في تزويجه بابنة أخيها الوحيدة، كانت العمة قد تمنت في وقت من الأوقات تلك الزيجة، في تلك الأوقات البعيدة التي كانت تجلس إلى جوار أخيها ناظرةً إلى جسد "نجوى" الذي طفرت عليه علامات الأنوثة فتهمس في أذن أخيها قائلة: "ربنا يجعلك من قسمتي ونصيبي يا نجوى يا بنت أخويا" فيهز الأب رأسه ضاحكًا ويقول: "نجوى لسَّه صغيرة على الكلام ده"..

كانت الأم آنذاك تتعمد مناداة ابنتها بلقب "الدكتورة" على اعتبار ما سيكون عاجلًا أم آجلًا، تنطق هذا اللقب وتنظر إلى العمة باستعلاء؛ لتؤكد الفروق الكونية بين "نجوى" وبين طموحات العمة وأولادها الخمسة. تبدلت الأحوال وصارت العمة "هانم" تحاول بإشاراتها المقتضبة تأكيد الفروق الكونية الجديدة والتلميح بأن ذلك النَّسَب لم يعُد واردًا، تقول بلا مناسبة عند عبور "نجوى" أمامها: "ربنا يعدِّلها لكم ويستر بنتك يا أخويا".. كانت تقول ذلك لترفع الحرج عن أمنياتها السابقة والتي صارت

محلًّا لإعادة النظر، متكئة على خلافها التاريخي مع الأم حول أهمية الحسب والنسب والتكافؤ التعليمي، ثم تؤكد الحِكَم والأمثال التي مفادُها أن "كل واحد بياخد من توبه".

صارت العمة تفكر فقط في عودة قبيلتها سالمة غانمة من بلاد الله وهي حية، متحصنة في هذا الانتظار الطويل بتلك الأغاني التي صارت تطربها في أوقات فراغها، مثل "حبيبي يا متغرب" و"قولوا لعين الشمس ما تحماشي"، وصارت تختم صلواتها بالترنُّم وتمسح دمعتها بالدعوات وتعتقد أن ثمة شيئًا ما سيصيبها، فلا يُعقل أن يمنَّ الله عليها بكل هذه التحولات ولا يمتحن إيمانها في عزيز أو يأخذ منها شيئًا في المقابل، تحاول التغلب على هواجسها بالذبائح والأضحيات وسكب الدماء على عتبات البيت بطوابقه الخمسة، الذي ظل إلى وقت طويل جاهزًا وخاليا ومستعدًّا للذين لم يقرروا العودة إليه.

شهد بيت العمة بعد ذلك عدة جنازات، مثل جنازة الأب الذي دخل غرفته ونام متعبًا ثم لم تفلح محاولات الأم في إيقاظه وقيل إنه مات إثر ذبحة صدرية مباغتة، وظلت العمة "هانم" تنوح على شقاء أخيها متهمةً زوجته أُمّ "نجوى" بتحميله أكثر من طاقته، لكن تلك الاتهامات توارت بعد أن رحلت العمة "هانم" مثله فجأة وبالطريقة نفسها لضعف عضلة قلبها التي لم تحتمل مواجع الفراق وغربة أبنائها الخمسة، لم يحضر أيٌّ من أبنائها بالطبع جنازتها، توارى جسد العمة بجوار أخيها في المقابر ذاتها.

مدت أُمّ "نجوى" زيارتها إلى بيت العمة أربعة أيام بعد انتهاء مراسم

الدفن، كانت مشغولة بتأمين مخارج البيت الذي اعتبرته أخيرًا بيت الأسرة، إخلاء المخازن وبِنِّيات الحمام والأرانب، بعد ذلك اتجهت إلى مقابر الأسرة، وجدَّدتْها وغلَّفتها بالحجر الهاشمي وأعدت فسقية جديدة لها وزرعت عدة صبارات ثم حملت معها مفاتيح مملكة العمة "هانم" وعادت إلى غرفتها، قائلة لابنتها: "مفاتيح بيت عمتك في علبة الدواء.."، ثم نامت وكان كل ما تفكر به مصير تلك المفاتيح ومصير أبنائها الذين لم يكونوا مكافحين في الحياة بالمقدار الذي تمنته، فالكبير متعطِّل والصغير خائب والبنت لم يأتِها عَدلُها بعد وقد تجاورت الثلاثين.

الرَّوْضُ العَاطِرُ

"يوسف الأزهري" ليس أستاذًا فحسب، هو أيضًا رئيس قسم التاريخ والاجتماع والدراسات الإسلامية، الذي تعرفه الجامعة كأحد أقطاب الأكاديمية العريقة في الدراسات الإنسانية، وهو أيضًا المشرف الرئيس على كل الأطروحات العلمية في ذلك القسم، وهو الذي يعين الأساتذة ويوقفهم عن العمل، ويزجُّ ببعضهم في عقوبات وتحقيقات إدارية مجحفة، ويرشح بعضهم للصعود السياسي أو تقلُّد بعض الوظائف الحساسة في الهيئات الاستشارية للدولة؛ لذلك يسير الجميع خلفه، بل يحمل بعض الأساتذة أوراقه حتى باب سيارته ويطلقون على محاولات استرضائه "تبجيل الأستاذ"، بينما كانوا يعتقدون بنسب مختلفة أنه "نصاب ومُدَّعٍ وسارق أطروحات"، يتحدث الجميع خلف ظهره عن فساده، عن علاقاته المشبوهة بالأمن والجهات العليا، وتقاريره السرية التي تحدد القبول الأمني للتعيين بالجامعة؛ لذلك لم يستطع أحد أن يفتح فمه معارضًا حين أصدر أحد قراراته بإلغاء جميع أشكال المطبوعات والمحاضرات الورقية

غير الرسمية كافة، تلك المطبوعات التي يتكسَّب بعض الأساتذة من بيعها للطلبة، مُقْصِرًا المنهج الدراسي على كتبه فقط، أو محاضراته التي يطبعها بنفسه والتي توزع بواسطة المدرسين المساعدين الذين اقتصرت مهامهم على خدمته، ومتابعة الشئون المكتبية لأستاذهم، مثل إحصاء عدد الطلاب ومقارنتها بعدد النسخ المَبِيعة للتأكد من صحة عمليات البيع والشراء التي تعود أرباحها إلى جيوبه وحده.

القسم الذي يرأسه كان غرفتين متصلتين بباب واحد، يجلس أربعة من أعضاء هيئة التدريس المنشغلين كما يفترض بإعداد رسائل البحث ويتحدثون عن الحرام والحلال بثقة وتدبُّر، كان معظمهم قرويين ومحافظين وملابسهم الهيئة نفسها، التي تختلط فيها رداءة الذوق والتقشف.

اتسعت مساحة الغرفة بصعوبة لمكتب جديد وضعوا عليه اسم "نجوى سالم" عضو هيئة تدريس بكلية الدراسات الإنسانية، قسم البلاغة والنقد وعلم الاجتماع.

تفضي المكاتب إلى بابٍ مغلقٍ دائمًا وُضِع عليه اسم "يوسف الأزهري" كرئيس للقسم، يدخل ويخرج عابرًا إلى مكتبه عبر غرفة الأساتذة، فيتحدد مناخ اليوم حسب حالاته المزاجية التي عادة ما تكون رائقة، يدخل "يوسف الأزهري" إلى مكتبه طويلًا وعريضًا ومهندمًا في بدلاته الرسمية التي تضفي تلك الرهبة على حضوره، متعجلًا لأن وراءه الكثير، معبرًا عن غبطته بانضمام أنثى إلى أعضاء هيئة التدريس، يعبر عن هذا قائلًا: "أخيرًا ح نصطبح بحاجة طرية بدل هؤلاء الأوباش"، يضحك الأساتذة الصغار الذين

يقفون بحكم العرف لدخوله، ويتبارون في حمل أوراقه وتبادل الملاحظات الدقيقة عن عظمته، وتحاول "نجوى" جذب الشال من فوق كتفيها لتقوم بتغطية صدرها الذي - كما فهمت ضمنيًّا - كان المشار إليه بلفظ طري، لكن وجود "نجوى" الطارئ في حاشيته كطالبة دراسات عليا لم يمنعه من التلفُّظ ببعض العبارات الجنسية الفجَّة التي يسكبها على سبيل النبسُّط أو المازحة، يقوم بذلك غالبًا بعد توديع إحدى الطالبات، فبعد كل جلسة مغلقة مع إحداهن، يقف بعدها على باب غرفته متبادلًا الإبتسامات مع الجالسين إلى المكاتب، موزعًا جمله البلاغية التي لا تخطئ دلالتها الجنسية بتبذُّل "بالوظة سايحة"، ثم يكمل: "البنت دي يا أساتذة البلاغة هي ما يطلق امرؤ القيس عليها (مهفهفة بيضاء دُريَّة القُبَل) وفي روايةٍ أخرى (حجازية العينين نجدية الحَشَا عراقية الأطراف رومية الكفل)"، يضحك فتهتز شحوم جسده ويشرع في شرح المفردات، ناظرًا إلى الجالسين إلى مكاتبهم وهم يتابعون الواصف والموصوف، مُشيدِين بفصاحة أستاذهم الذي يعشق مقاطع امرئ القيس الغَزَليَّة، غارقين في الثناء على تلك الصور البلاغية التي تدرُّها قريحته.

خلق "يوسف الأزهري" أسطورته كأستاذ ومثقف وعاشق ومفكر من جملة من المتناقضات التي أجاد توظيفها واستغلالها بأشكال متفردة؛ هيئته الكلاسيكية، وملامحه القروية ومزاجه الليبرالي الذي يتغنَّى طوال الوقت بالتنوير وعهود الإصلاح، أضف إلى ذلك براعته في المناورة وذكاءَه في التنقُّل في مواقفه الفكرية بين أقصى اليمين وأقصى اليسار.

كان "يوسف الأزهري" وسيمًا وموهوبًا أيضًا في غَزْل الكلمات وماهرًا في الاستشهاد بأبيات الشعر الغزلي التي يطوعها حسب مزاجه في التأويل، وكانت تلك المهارات البلاغية الاستعراضية كافية لإقناع الجميع بأنه مثقف عميق وجاد ويستحق كل هذا التقدير.

انحصرت مهام "نجوى" الأكاديمية منذ تم تعيينها في السير خلف "يوسف الأزهري" وهو في طريقه إلى محاضراته كما يقتضي العرف، تحرص على الجلوس في الصفوف الأولى تدوِّن محاضراته وتسجلها كما كان يطلب منها، ثم تقوم بعد ذلك بتفريغ تلك المحاضرات وجمعها ثم طباعتها لتصير بعد ذلك كتب الأستاذ.

لعدة سنوات لم يَرَ "يوسف الأزهري" في الحقيقة ذلك الشبح الذي يسير خلفه، ولم يلتفت إلى وجودها ولم يتذكر اسمها إلا بعد ظهور "زهرة" في حياته، بعد أن رآها تقصد مكتبها وتتحدث معها صار يلاحق "نجوى" بالسؤال عن تلك الطالبة، ويُبدي فضوله لمعرفة ما دار بينهما، بدأ تلك المحاورات سائلًا:

- نجوى.. البنت دي كانت في مكتبك بتقول لك إيه؟ لم تفهم "نجوى" في البداية أي بنت يقصد فتجاسرت بسؤاله:

- أي بنت؟ تقصد.. زهرة...؟ دي بنت غلبانة يا دكتور.

يضحك ثم يقول:

- والله أنت اللي غلبانة وعلى نيَّاتك يا نجوى.

لا يشعر "يوسف الأزهري" بالحرج عندما يُمعن في قص مغامراته العاطفية بالتفصيل في وجود بعض تلامذته أو زملائه، كان فخورًا بفحولته، ويبدو غير مكترث بتلك الأحكام الأخلاقية المتداولة حول سُمعته، يعبر عن ذلك بالاستخفاف وإضفاء مظاهر الليبرالية على ما يستهجنون من تصرفاته، وكانت معظم تلك المغامرات المتداولة من بطولة طالباته.

لم يكن يشعر بأن في ذلك ما يعيبه، فقد كان أول من أطلق على بعض الطالبات لفظ "عاهرات"، وصار يبرهن على نظرياته في تدهور التعليم الجامعي متكهنًا بنسبة الزيجات العرفية بين طلاب الجامعة والتي يراها ظاهرة تسترعي الانتباه، لم يخجل من تلك المغامرات العاطفية في المطلق، لكنه صار يستفيض في الإفضاء لـ"نجوى" بتفاصيل علاقته بـ"زهرة"، تلك العلاقة التي صارت تؤرِّقه، يبدأ كل مرة حكايته منذ ذلك اليوم الذي طرقت فيه "زهرة" باب محرابه، وكان هذا المحراب هو إحدى الشقق المطلة على البحر والمخصصة لأعضاء هيئة التدريس المحظوظين من أمثاله، والتي اتخذها محرابًا علميًّا يقيم فيها لقاءاته المعرفية التي يتردد عليها أعضاء القسم وطلابه بحبور، قال إنَّها جاءت هكذا بلا موعد وكانت تعرف أنه يقضي وقته في هذا المحراب بمفرده أو برفقة من يصطفيه، قال إنَّها جاءت بمحض إرادتها ولم يحرضها بأي طريقة على أن تدخل حياته، بل هي التي أصرت وجازفت وكانت تتصرف بعناد ودلال أنثى لها خبرات طويلة مع عشاقها.

لم تكن "زهرة" صغيرة ليغويَها، ولم تكن بريئة كما يتصورون، لم تكن

عذراء على الأرجح، ولم تحاول أن تفسر له من سبقه إلى فخذيها وكيف تم ذلك؟ صحيح أنها كانت مترددة وقلقة وجلست في البداية على المقعد لتحدثه باقتضاب عن أفكارها الأدبية التي ترغب في العمل عليها، ورغبتها في العثور على فرصة للتدريب بواحدة من المجلات الثقافية، فتأملها برَوِيَّة كعادته مع العاهرات الصغيرات اللاتي يقتحمن خلوته بلا موعد؛ ليتحدثن عن طموحاتهن العلمية، تلك اللحظات التي يبرهنّ فيها على تفانيه في الإنصات إليهن، وتشجيعه التام لطموحهن والتي تنتهي بالاكتفاء بهزِّ رأسه ليترك ذلك انطباعًا بالتفهُّم والرحابة وربما العظمة أيضًا.

كانت مجرد طالبة مثل غيرها طرقت الباب بثقةٍ في صباحٍ خريفيٍّ ورددت اسمها مرتين.. "زهرة".. "زهرة"، أملًا في أن يتذكرها ثم أكملت كأنها لا تكترث بذاكرته المعطوبة.. "أنا تلميذتك... صف الفلسفة الإسلامية"، أفسح لها الطريق لتدخل عبر ردهة الاستقبال التي غلف جدرانها برفوف الكتب التي طالما أضفت على المحراب تلك الرصانة العلمية، عبرت هذا المدخل إلى فضاء غرفة الاستقبال التي تتوسطها طاولة وفي مواجهته طقم الصالون الفرنسي المطرز بالإبيسون، الذي انتثرت حوله قطع الأثاث الكلاسيكي القديم الموزعة بأناقة مفرطة في ساحة البيت، ولولا بعض الفوضى المحببة التي خلَّفتها عدة جرائد وبعض الرسائل العلمية ملقاة على حواف الطاولات، وبعض اللوحات التي كانت في معظمها بالغة الحداثة والتجريد لظنت أنها عبرت إلى بيت أسرة أرستقراطية عريقة.

حملت "زهرة" بين يديها بعض الأوراق المطوية، ومُغلَّفًا ورقيًّا يفوح برائحة البُنِّ المحمَّص الصابح، ظلت قابضة عليه بيدها وهي تجلس أمامه،

متحدثة إليه بثقة، لم تقُل كل الكلمات التي تعوَّد سماعها مثل "أستاذي وفضلك وعلمك... إلخ".. تلك الكلمات التي يتوقعها، والتي تكون عادة مقدمة متملقة له تفضي إلى أهداف محددة يمكنه التكهن بها، لم تقل له أيًّا من تلك التعبيرات، قالت باقتضاب:

- جئت للتعرف إليك... قلت إن باب محرابك مفتوح.. هناك أسئلة كثيرة تركتها محاضراتك في نفسي.. أسئلة لم يسعفني الوقت أن أسألها.

أدارت رأسها في أرجاء الغرفة وحطت عيناها على تلك اللوحات المنتقاة بعناية والتي تفيض بمشاهد أيروتيكية لأجساد نسائية من كل لون وحجم، رمقت ذلك ثم أكملت ضاحكة: "كنت أعرف عشقك للتراث الغزلي لكنني لم أكن أعرف أن ذوقك متنوع إلى هذا الحد؟"، قالت ذلك ومن دون أن تنتظر تعليقه، جلس إلى طاولته ليتأملها بتروٍّ.. يستطيع أن يتكهن بالسيناريوهات التي تتكرر، بعض البكاء، بعض الحيرة، بعض الدراما.. بعض الطلبات الصغيرة مثل التقديرات النهائية، النجاح، التخرُّج، العثور على وظيفة..

بدأت في التجول في أرجاء المكان وتفحُّص ولعه بالعُرْي عبر تلك الأجساد النسائية التي تحفل بها اللوحات الزيتية، لاحظ أنها لم ترتبك أو تدَّعي الخجل الذي كانت معظمهن يتفنَّن في إظهاره، ولم تَبدُ "زهرة" منفعلة أو مكترثة بتلك الشهوة الباذخة حولها؛ وبالتالي فقد فوَّتت عليه الفرصة التي ينتظرها عادةً للانتقال من مشاهد العري إلى جسدها الصغير الرشيق وفمها وانثناءات نحرها وأنوثتها الفياضة؛ وبالتالي ينقل الحديث

معها إلى مراحل أكثر تطورًا.

تركته ملامحها اللامبالية مترنحًا في مقعده واكتفى بمشاهدتها تتحرك بلا استئذان في أركان محرابه، سمع وقع تلك الحركة قادمة من المطبخ، فكر أن يتبعها وأن يحيطها بذراعيه فجاءة ليحتوي جسدها من الخلف، وربما يتطور المشهد بلا مقدمات، لكنه تردد في تنفيذ مشتهياته واعتقد أن بعض التريُّث لن يضير بل ربما كان أنفع، اكتفى بأن تتبَّع وقع حذائها وهو يلامس رخام القاعة بخفة، ثم التقطت أذنه صوت انسكاب الماء وحركة الفناجين الصغيرة وأطباقها، وانسكاب القهوة ثم خروجها حيث يجلس، راقبها وهي تضع الفنجان أمامه، تعمَّدت لمس يده وهي تضع الفنجان، تأملت وجهه عن قرب كأنها زوجته أو جاريته التي انتهى منذ دقائق من وصالها، تابعها وهي في طريقها إلى الجلوس أمامه.

وقفت أمام النافذة المطلة على بنايات عالية تحجب البحر كليًّا، ويقف في شرفاتها المتطفلون، أحسَّ بأن صوت الموج يأتي مواربًا خفيضًا منسابًا من زجاج النافذة، خلعت حذاءها أولًا، ثم مسَّت رقة الخشب بأصابع قدميها، وبينما كان يرتشف قهوته المعطرة بالهيل ببطء، ويتأمل كيف تتحرك في المحراب بتلك الأُلْفة، قال إنَّها تجرأت بإخلاء الأريكة من فوضاها العارمة، أزاحت الكتب المتبعثرة بلا اهتمام، التقطت بعضها ثم تلفتت يمينًا ويسارًا باحثة لها عن رَفٍّ في زوايا الحجرة، ورغم أنه يكره تمامًا أن تقوم العاهرات الصغيرات باستعراض أشكال التدبير المنزلي وهن يحاولن إضفاء لمساتهن على فوضاه، ويرى أن تدخلهن الرخيص ورغبتهن في إبراز مواهبهن في الترتيب والنظافة، قد يكلفه شهورًا لاستعادة استلهام تلك

الفوضى.

وعلى الرغم من حرصه على توضيح تلك الحقيقة بعبارة مختصرة "الرجاء أنا أفضل ترتيب هذا بنفسي"، فقد كانت "زهرة" هي الوحيدة التي أشفق عليها من هذا التصريح المقتضب، كان في تلك اللحظة أكثر انشغالًا بتمايلات جسدها واسترخائه وهي تتثنَّى بطربٍ وهدوءٍ في محاولتها لإخلاء الأريكة، وبعد أن انتهت عملية الإخلاء بعدد من حركات التمايل الإيقاعي المثير، حدث ما لم تجرؤ أي فتاة أخرى على فعله، خلعت العاهرة الصغيرة ملابسها بسرعة مذهلة، واستلقت مثل حورية بحرية بشعر مجعد، وجسد بديع نحيل، وبردفين مستديرين، وبثديين صغيرين قليلًا لكن حَلَمتيْها المتسعتين المنتصبتين الفاجرتين لم تتركا له فرصة لمقارنتها بأحجام مثيلاتها من العاهرات اللاتي صرن يدلفن بأجسادهن إلى المحراب بلا استئذان، رَفعت الحورية ساقيها قليلًا على الحائط بينما تدلى شعرها من فوق الأريكة وانسدل بسلام، ملامسًا الأرض، بينما ظلت ساقاها مرفوعتين على الحائط، فاحت رائحة جسدها في الغرفة.

كان الأستاذ ما زال مأخوذًا بذلك المشهد، يواصل التأمل بلصق الفنجان بشفتيه، وارتشاف القهوة المعطرة، ويتنهد وقد انتابته حالة من الانتشاء والانتعاظ، توقفت كل أجهزته الحيوية لبرهة، وبدا مكتفيًا بمراقبة الضوء القادم من باب الشرفة ينسكب على جسدها في لوحة فاجرة ونادرة وأليفة، بعد عدة دقائق دفع الزجاج بيديه ليغلق النافذة تمامًا، ثم يهوي على الجسد المستلقي الحالم بالقُبَل.

لا يعرف لماذا لم يتطور الأمر لأكثر من القُبَل ساعتها، ولا يعرف أيضًا

كيف انتهى كل ذلك، ومتى لبست ثيابها أو غادرت أو ربما ظلت لفترة، حتى إنه اعتقد في لحظة من اللحظات أن كل ما جرى كان أحد متخيلاته الشبقية وأنها لم تدخل هذا المحراب قط، لولا أن البُنَّ الذي جلبته معها كان ما زال على طاولة المطبخ لاعتقد أن الأمر برُمَّته غير ممكن ولا يمكن حدوثه بتلك الصورة، على الرغم من يقينه بأن العاهرات الصغيرات يجرؤن على أكثر من ذلك، لكنه يدرك أيضًا أنهن في الغالب يحتجن دائمًا إلى طقوس طويلة من الاستدراج، ويأخذن وقتًا أطول في مسائل الحب، ويلعبن ألعابًا طالما وجدها مسلية، مثل الكشف التدريجي لأجزاء من أجسادهن، أو دس الرسائل الغرامية في مغلفاته المكتبية، أو الرغبة في إبداء بعض الرقصات الاستعراضية لإثارة الأجواء، لكن لا شك أن تلك الزهرة الفاتنة كانت أكثر خبرةً من الجميع، وقد ترك اقتحامها المفاجئ وغيابها الطويل وجرامات البن التي تركتها خلفها، شبقًا له رائحة الهيل ومرارته.

صارت تلك اللوحة لجسدها الخليع المستلقي على الأريكة، مُحتلًّا الفراغ المواجه لزاوية جلوسه، تشتت بحضورها الافتراضي كل قدراته على استكمال أي شيء، وكانت الأوراق التي تتراكم أمامه تزداد غرابةً فلا يعرف عن أي شيء تلك الأوراق التي عليه أن يكتبها تتحدث؟ صار غريبًا تمامًا على تلك الجلسة المكتبية، وأصبح وجوده على هذا المقعد هو الزاوية الوحيدة التي يستعيد منها استحضار جسد العاهرة الصغيرة المُتخيَّل في محرابه، يراه مستلقيًا في مواجهته مهيمنًا على وجوده.

حرص "يوسف الأزهري" على تلك الذكرى المبهجة حتى إنه لم يعُد

يسمح لأحد بعدها أن يلمس فضاء الأريكة الخالية، أو يمسَّ هذا الفراغ الذي انحفر في أحشاء الوسائد، منذ أن غادر جسدها تلك البقعة، لم يسمح لشيء أن يتلف تلك الذكرى، خيال ذلك الجسد الساحر الذي تقوَّس أمامه في يوم من الأيام، وعلى الرغم من أن المحراب كان مفتوحًا دائمًا لغيرها، لكنه مؤخرًا صار يحب أن يرتب لتلك اللقاءات في أماكن مختلفة، صار حريصًا على أن يظل المحراب طهرانيًّا وموحيًا بالرصانة الأكاديمية حتى تركت العاهرة الصغيرة روائح جسدها الآثم على مخمل الكنبة، وصارت رائحة القهوة بحبَّات الهيل الفوَّاحة من الفناجين تكفي لتهيجه وإثارة كل جزء في جسده.

تجاهلت "زهرة" أستاذها تمامًا بعد تلك الزيارة إلى خلوته، تصرفت كأنها لم تعرفه ولم يعرفها، لم تقف على بابه طالبة العون في واجباتها الأكاديمية كما تفعل الفتيات الأخريات، كانت تدخل إلى القسم متحدثة مع هذا المدرس أو ذاك من دون أن تنظر باتجاه غرفته، تقف أمام مكتب "نجوى" وتتبادل معها حديثًا قصيرًا حول كل شيء وتتعمد أن تضحك تلك الضحكة التي تُخرج الأستاذ من عرينه، فيهبَّ فاتحًا باب مكتبه، لكن قبل أن يفتح فمه سوف تعطيه ظهرها ببرود وتنصرف، ثم تلاشت "زهرة".

قال "يوسف الأزهري" إنها اختفت من محاضراته، وأنه يعرف أنها ستعود، لكنها لم تعُد.

ظل "يوسف الأزهري" خلال تلك المدة يقابل "نجوى" بذلك السؤال: "ألم تظهر بعد؟"، فتهز رأسها نافية، يترك مكتبه مؤرقًا، يفتش بِحَيْرة في

وجوه الفتيات في كل أروقة الجامعة لكنها لم تكن في أي مكان يعرفه، قال إنَّه يبحث عنها في وجوه العاهرات الصغيرات اللاتي يترددن عليه بشكل مخجل، صار يطلب من بعض العاهرات الصغيرات اللاتي يعرفن طريق بيته أن يفعلن الشيء نفسه أن يخلعن ملابسهن هناك، وأن يدلفن إلى الأريكة ويستلقين لكن ذلك لم يكن مفيدًا، فقد كان معظمهن يضحكن بخلاعة أو يرقصن في طريقهن إلى الاستلقاء، كن باختصار يخدشن المشهد الذي اختزنه في رأسه عن الجمال، ويدمرن بحركاتهن المبتذلة تلك اللحظة التي يود استرجاعها.

شعر "يوسف الأزهري" للمرة الأولى في حياته بأن ثمَّة اختلافًا، وأن ثمة امرأةً ما قد تملك أكثر مما تملك الأخريات، وأدرك أنه رغم تاريخه الطويل في التنوع والتذوق أنه يفتقدها هي، "زهرة" من دون سواها، كانت تلك الحالة التي وصل إليها تجعله يبدو كعاشق مبتدئ في حاجة دائمة إلى وجود "نجوى" الحتمي بجانبه ليكرر سرد تلك اللحظات التي كانت بينه وبين زهرته، مؤكدًا بين الحين والآخر نظرته التي لا تخيب في النساء قائلًا: "مش قلت لك دي بنت مش سهلة.. عايزة تنصب لي الفخ".

يضحك "يوسف الأزهري" الذي صار ينادي على "نجوى" لتجلس أمامه في مكتبه، بعد أن يدعوها بشكل يومي لمناقشة أطروحتها العلمية التي لم يطَّلع على موضوعها أو يوافق على عنوانها بعد؛ لأنه في كل مرة يقرر فجأة بعد عدة جُمل أن يؤجل كل المناقشات الرصينة حول الأطروحات ويبدأ في الحديث عن أشجان تغيُّب "زهرة".

عادت "زهرة" إلى حياة أستاذها بالغرابة ذاتها التي مارست بها اختفاءها المتكرر، جاءت إلى مكتبه في صباحٍ ما، واقفة مثل غيرها من الطالبات حوله، بانتظار أن يسمح وقته بمقابلة بعضهن، وهو عادةً ما يسمح لهن، فيعبرن بعد ذلك إلى غرفته فُرادى أو جماعات، ليسألنه عن أشياء تافهة في الحقيقة لكنها كافية لإرضاء غروره.

تقف "زهرة" في ذلك الصف.. مبتسمة وساخرة وأليفة كأنه يعرفها منذ قرون، يخرج الأستاذ إلى باب مكتبه ثم يشير إليها لتدخل وحدها: "مرحبًا.. أهلًا يا قطة"، ابتسمت "زهرة" واعتبرت ذلك نوعًا من المعاكسة والرغبة في التودُّد التي يُبديها الذكور دائمًا تجاهها، جلست أمامه ثم قالت: "أما زلت تتذكرني؟" ثم ضحكت، وكان يمكن أن يتعرف المرء إلى إيقاع ضحكتها المليئة بهذا الشبق من خلف الباب المغلق.

كان ظهورها هذا اليوم هو البرهان الوحيد الذي تأكد لـ"يوسف الأزهري" عبره أن زهرته بشكلٍ من الأشكال تشبه كل النساء اللاتي عبرن حياته من حيث الشكل، وتتطابق مع كل ما تكهن به، ابتداءً من هيئتها التي هي خليط من المكر والخلاعة الريفية وليونة بلاد البحر، والعناد الذي يتخفَّى تحت قناع من الرقة المصطنعة، وانتهاءً بتلك الوقاحة الأخَّاذة التي تتجلى في قدرتها على تجاوز الحدود والمقامات بنظراتها التي تفلق حبَّة قلبه.

حين خرج من مكتبه وفي طريقه إلى المحاضرة كانت "زهرة" تسير إلى جانبه، فقال لها بعتاب غير منتبه أو مكترث لوجود من حوله: "أين اختفيتِ يا قطة؟"، ضحكت تلك الضحكة التي تطربه وقالت: ".. أنا

اسمي. أزهار.. أزهار.. لكن أنا بحب أن اسمِّي نفسي زهرة، لكن أمي كما يبدو كانت تتفاءل بالبوكيه".

قال بعد ذلك إنها لا شك قد اختارت ذلك الاسم المفرد لأنه ألطف؛ ولأنها تود أن تنتمي إلى طبقة يمكن لها أن تتقاطع مع زيزي أو زهرة أكثر من أزهار، لكنَّ شيئًا ما في حضورها كان ريفيًّا وفجًّا وجميلًا يشبه كل الذي أحبه والذي كرهه "يوسف الأزهري" في كل مَحْظيَّاته، تشبه البنات اللاتي ينضجن وسط الحقول الواسعة كثمار بالغة النضج والفجاجة.

أصبح "يوسف الأزهري" بعد هذا اللقاء مشغولًا بمتابعة دخول وخروج "زهرة" من محاضراته، يراقب تَنُّورتها السوداء التي لا تتغير وبلوزتها الحمراء، غطاء الرأس الأسود، والحذاء المدبب، والوجه الأبيض المستدير صارخ الأنوثة، يترقب صوت حذائها المدبب الذي يقطع هدوء المحاضرة، يصبح دخولها إلى القاعة حدثًا استثنائيًّا ومثيرًا للفضول؛ لأنها تأتي متأخرة دومًا، وتدخل وحدها، وتحرص على أن يراها الأستاذ وهي تسير بين الصفوف لتصل إلى آخر القاعة و، يلمح ابتسامتها في البداية ثم يتابع جسدها المغوي، وحركة ردفيها وبياض طرف ساقها الذي يتبدَّى من الفتحة الطويلة الجانبية في تنورتها.

تعرف "زهرة" أن الأستاذ يترقب دخولها، ويتعمد النظر إليها بتلك النظرة المتواطئة وهو يأذن لها بالدخول قائلًا: "اتفضلي يا بنتي، ولا تتأخري مرة ثانية"، وكانت بدورها تتعمد الابتسام بشَبَق؛ لأنها تعرف أنه يراقب جسدها وخطواتها الباحثة عن مقعد بين الصفوف.

تحرص "زهرة" أيضًا على الخروج بالطريقة نفسها قبل نهاية المحاضرة تخرج وتقف على الباب القاعة بانتظاره، تسير خلفه وتتبعه حيثما ذهب، تلحق به في الطرقات بين القاعات، وتتسلل خلفه إلى مكتبه وتدخل.

لم يعُد "يوسف الأزهري" قادرًا على غلق بابه في وجه تلك الزهرة، بل صار ينتظر قدومها، ويحب أسئلتها التي لا معنى لها ولا هدف سوى تبادل تلك النظرات المشبعة بالشبق والرغبات المتبادلة، تلك النظرات التي جعلت "يوسف الأزهري" فجأة يشعر بالخطر، يشعر بذلك الإحساس المريع الذي حاول تجنبه طوال حياته، يشعر أن تلك الزهرة تمتلك كل مفاتيح مُتخيَّلاته الشَّبَقيَّة وتحتل جزءًا أكبر مما توقع في حياته، يشعر أحيانًا أخرى أنها ابنته التي يحبها بالتبنِّي، المستعد لأن يحميها لكنها لا ترغب بحمايته، ترغب فقط في اكتشاف تأثير أنوثتها على ذاته المتضخمة، كانت تلك المشاعر المتناقضة تُربكه وتهدد تلك الصور الفحولية التي رسمها لنفسه.

بعد عدة أسابيع تابعت "نجوى" بفضول فصلًا جديدًا من تلك العلاقة، شاهدت كيف خرجت "زهرة" من باب مكتبه راكضة وكانت تبكي بحرقة دفعت "نجوى" للركض خلفها في تلك الطرقة الطويلة، وبعد عدة محاولات لاستدراجها للبوح قالت بحرقة: "ابن المرَة الوسخة بيقول لي انتي جاية تتمرقعي في مكتبي.. أنا ما بحبش حركات الطبقات الواطية.. لو عندك أسئلة ابقي اسأليها في المحاضرة".

لم تستوعب "نجوى" كيف يمكن أن يتبدل مزاج أستاذها بتلك السرعة، وكيف يتجهَّم وجهه بغلظة ناطقًا بتلك العبارات المبتذلة أمام الجميع، وهو الذي عادةً ما يكون منشرحًا ولطيفًا في حضور كل الفراشات.

بعد عدة أيام قال الأستاذ لـ"نجوى" مفسرًا تغيراته المزاجية:

- إن لذة المحبة يا نجوى تكمن في الألم وأن على العاشق التروِّي في جرح المحبوب.. واختيار اللحظة المناسبة لافتعال هذه الطعنة، قال ذلك وهو يضع يده على كتفها بأبوَّة وهي تسير بجانبه كتلميذة نجيبة ومتفهمة ومتجاوزة، تركض خلفه حاملةً أوراقه وأسراره بامتنان.

هزت "نجوى" رأسها في محاولة لتفهُّم الأمر قائلة:

- يا دكتور يبدو لي أن البنت تفاجأت بصدّك، كانت تحاول اختيار أرق الألفاظ تهذيبًا وتعاطف، لكنه قال لها بحسم:

- سيبِك من الحب والمحبين.. أنا أتحدث عن التغزُّل والتعشُّق... العلاقة العاطفية قائمة على الجرح والفتق.. الجرح هو أول العلاقة.. ليلة الدخلة يعني.

ضحك بعد تلك العبارة واستطرد قائلًا:

- أنا يا بنتي كما قال الشاعر: قَتِيلٌ بِوَادِي الحُبِّ مِن غيرِ قَاتِلِ.

لم تنجح "نجوى" قطّ في تفسير قدرة الأستاذ على تبديل أقنعته الوجودية، والتحوُّل من دور العاشق ليتقمص تلك الملامح الأبوية أو الرسمية الحادة بتلك البراعة، ولا كيف يعدل مواقفه الفكرية المتناقضة بتلك الفصاحة والازدواج، صارت تفكر طوال الوقت كيف يكون طرد "زهرة" بتلك الطريقة الجارحة مرحلة أساسية في ترويض الضحية.

كان الأستاذ واثقًا من أن فَرَاشته سوف تركض إلى محرابه عاتبة أو

غاضبة، لكنها لم تذهب، صارت تتردد على مكتب "نجوى" فقط وهي تبكي.. وكانت بدورها تدَّعي مشاركتها مشاعرها المتناقضة التي لا تفهمها، وتلاحظ فقط أن رغبة "زهرة" في البكاء صارت حقيقية وجارحة ومصحوبة بذلك الشعور المُرّ بالانسحاق..

صارت تبكي أيضًا لأسبابٍ غير عاطفية بالمرة، فقدت ذات يوم الملف البلاستيكي الذي تحفظ فيه أوراق المحاضرات، بعد عدة دقائق من البحث بين المقاعد الخالية وبعد الفشل في العثور عليه، دخلت "زهرة" فجأة إلى القسم حيث يجلس الأساتذة، كان المغلف ذو اللون الأحمر مُلقى على مكتب أحد أعضاء هيئة التدريس، نظرت "زهرة" إلى المغلف وقالت: "الحمد لله لقيته.." ثم حملته مغتبطة، وفتحت الملف بسرعة وقلبت الأوراق وقالت من دون أن تفكر:

- الملف كان فيه جنيه... ح اركب ازاي من غير فلوس؟.

المدرس الذي كانت تقف أمام مكتبه، نسي وجود الآخرين، وحاول أن يعوضها عن شعورها بالإهانة ثم الضآلة والاحتياج بمغازلة صريحة قائلًا:

- العيون الحلوة دي بتعيَّط على جنيه؟.. أنتِ بنت فقر والله..

قال ذلك وهو يحاول الإمساك بيدها، ومواصلة النظر إلى جسدها الذي يتأرجح باشتهاء، لكنها لم تصده ولم تبدُ منزعجة من ملامساته، وقفت ببرودٍ حتى بدأ في استمالتها ببعض كلمات الغَزَل التقليدي قائلًا:

- ضحكتك جميلة، إنتِ يا زهرة أحلى وردة ربنا صنعها، أنت خسارة في هذا العلم الرديء والله.

سحبت "زهرة" جسدها بعيدًا عن مكتبه لتترك لنظراتها مساحة كافية للانقضاض عليه، ثم قالت له بلهجة متهكمة لا تخلو من وقاحة:

- خلِّي الحبتين دُول لحد غيري يا روح أمك...

ثم ضحكت وكان للإيقاع الرتيب لضحكتها تلك المرة غضبٌ ممزوجٌ بالمرارة، استدرجت ضحكتها "يوسف الأزهري" فخرج من غرفته ووقف في قلب المشهد، مُظهرًا انزعاجه من صدى ضحكتها الذي يوقظ كل حواسِّه، قال غاضبًا:

- فيه إيه؟ إيه الضحك ده؟..

انتفض المدرس الذي ما زال تحت تأثير وقاحة تلميذته وهي تنعته بـ"رُوح أمَّك"، انتفض هذا الزميل منسحبًا قائلًا لأستاذه الذي احتل المشهد:

- ولا حاجة يا أفندم.. زهرة كانت تسأل فقط عن بحثها.

بعد عدة أسابيع قال "يوسف الأزهري" لنجوى إنه لم يعُد يرى "زهرة" في الصف، وأنها اختفت للمرة الثانية؛ أدركت "نجوى" بشكل ما أنه يريد منها التقصِّي له عن أخبار اختفاء زهرته الفجائي، وأسباب تغيبها عن المحاضرات، وحين فشلت "نجوى" في الوصول إلى طريقها، قال الأستاذ بيقين:

- على كل حال.. ستظهر.. هذا النوع من النساء لا يختفي إلا تحت

جسد رجل يعتليها، وضحك الأستاذ مكملًا:

– ح تروح فين...؟ بكرة ترجع.. لكنه لم يُخفِ لوعته وشعوره بالضآلة أمامها.

بعد عدة أشهر ظهرت "زهرة" في مكتبه وصار يُطلق عليها لقب "طالبة مجتهدة"، ولم يتعجب البعض من ذلك الاجتهاد الطارئ الذي مكَّنها في نهاية العام الدراسي من التفوق والتأهل للحصول على لقب معيدة جديدة بقسم التاريخ والاجتماع والفلسفة الإسلامية.

كان ذلك الوضع الجديد يشكل حرجًا للجميع، وأصبح وجود "نجوى" ثقيلًا يُذكِّر الأستاذ وزهرته بما لن يستطيعا محوه؛ بخاصة بعدما تغير مظهر "زهرة" عدة مرات وبأشكال يصعب حصرها، عرفت "زهرة" طريقها بسرعة، وكانت قادرة على تبديل هيئتها القديمة وأن تستبدل بها سترات أكثر أناقة، بنطلونًا من الـچينز ومع بعض السترات القصيرة التي تبدو فيها رشيقة وعصرية وجذابة، صارت أيضًا تتجاهل وجود "نجوى" وفي المرات القليلة التي تعثرت في هذا الوجود كانت تنظر إليها بإشفاق، وتعبِّر عن أسفها لعدم قدرتها على التطور، وعادةً ما يتخلل ذلك اللقاء العابر عدة نصائح أخوية تحثُّها فيها على تغيير مظهرها الذي يبدو لها متواضعًا ومخجلًا.

كانت "نجوى" وما زالت غير قادرة على ذلك التطور، ابنة مخلصة لتلك المرأة التي تحاول التحايل على الكفاف بالستر والاقتصاد في كل شيء، متمسكة بذلك الوفاء النادر لقطَع الملابس القديمة بالإصرار على ارتدائها بعيدًا عن

تلاحق الموضات، وتغير الذائقة، كما كانت تقول أمها: "إحنا مش ح نلاحق على الموضة يا بنتي، الناس بتلبس اللي يناسبها"، ولم يكن هناك ما يناسبها، فاحتمت بالزي الكلاسيكي للطبقات الوسطي المحافظة، چيبة سوداء أو دكناء اللون تليق على عدد من البلوزات الفَضْفاضة، ومعاطف طويلة تكافح برد الشتاء، ثم عدة إيشاربات ملونة كغطاء للرأس، وكان التبديل بين ألوان تلك الإيشاربات هو التغيير الطفيف الذي يطرأ على هيئتها عبر فصول العام، لم تكن تلك الهيئة فقط هي موضع انتقاد "زهرة" ومن بعدها "ياسمين العامري" ثم "نعم الخباز"، بل كانت المشكلة الحقيقية تكمن في طبيعة جسد "نجوى" الممتلئ بلا تناسق، وطريقة مشيتها البطيئة المتكاسلة، تلك المواصفات الجسدية التي تكشف عن إمكانات محدودة للتطور الجمالي. كانت "زهرة "على العكس من ذلك، امرأة صغيرة جميلة قادرة على خلق المسافات والفرص والصور التي لا تُحصى لحقيقة وجودها، تستطيع أن تصبح لطيفة وجميلة وراقية ومثيرة ولافتة للنظر، جسَّد حضورها المتطور والمتعدد كل ما اشتهت "نجوى" الوصول إليه وعجزت عنه، فكرهتها وكرهت قدرات الأخريات في الوصول السريع والآمن إلى ما يُرِدْن.

في النهاية، استطاعت "زهرة" أن تؤكد اجتهادها واستطاعت فرض سلطتها وحضورها على الجميع، استطاعت في وقت قصير أن تجعل "يوسف الأزهري" تابعًا لها، يسير خلفها بدلًا من أن تسير خلفه، وخلق وجود "زهرة" الطارئ كعضو في هيئة التدريس نوعًا من التغير الجوهري في بنية القسم العلمية، صار أكثر طراوةً وأنوثةً وانفتاحًا، وضاق ذلك المناخ الجديد بحضور "نجوى"، ذلك الحضور الباهت المتخاذل المتردد المحافظ.

المنحة العلمية القصيرة للسفر التي خصَّ بها "يوسف الأزهري" تلميذته "نجوى" كانت تبدو محاولةً للخلاص من وجودها، أو مكافأة سخية على خدمات الدعم العاطفي التي قدمتها على مدى ثلاث سنوات، شاهدت فيها كيف عبَرت "زهرة" من مرحلة العاهرة الصغيرة إلى العضو الفعَّال في قسم التاريخ والاجتماع والفلسفة الإسلامية.

لم يكن قرار المنحة مفاجئًا، لكن السفر للتعلُّم كان يبدو رفاهية لا تحتملها توقعات الأم عن النبوغ، ولم تكن "نجوى" نابغة في الحقيقة، كانت فقط طالبة تجيد الحفظ، تحفظ وتخطُّ الخطوط تحت الجُمَل التي لا تفهمها لإعادة كتابتها بطريقة عميقة توحي بالرزانة العلمية، لم يكن قرار حصولها على تلك المنحة مثيرًا لحسد الزملاء الذين يسعون إلى الابتعاث الأكاديمي؛ لأن معظمهم يفضلون الابتعاث إلى جهات محببة، تسمح لهم بتجنب مشقة إجادة لغة أجنبية، بلدان أقرب، وأكثر نفطًا، وتسمح لهم بفرص للتحول من مبتعثين مؤقتين إلى موظفين دائمين.

قالت أُمّ "نجوى" وهي تتحسر على مستقبل أبنائها الذكور: "سافري.. يعني اللي قاعدين عملوا إيه؟.. روحي الله يسهل لك طريقك يا بنتي"، كانت تفكر آنذاك في فرص زواج ابنتها التي تلاشت، وفي مستقبل ابنها الصغير الذي لا يعود إلى البيت، والكبير الذي لا يخرج من حجرته ويعيش مُنكبًّا على خيباته، منشغلًا بتعبئة استمارات الهجرة إلى هنجاريا ورومانيا أو قبرص، بعد أن فشل عدة مرات في الحصول على تأشيرة الدخول لأي بلد أوروبي، كانت تفكر أيضًا في حقول العنب في ميلانو أو بعض الصور على

الثلوج، والشالات الكشمير، وجلسات التفاخر بالأبناء الذين قد يحققون ما فشل الآباء في تحقيقه.

احتضنت الأم ابنتها تلك الليلة للمرة الأولى بتلك الطريقة التي تحمل الكثير من الشفقة، وضعت رأسها على صدرها ومسَّدت شعرها بيدها، وقبَّلتها بين عينيها، ثم دخلت بعد ذلك حجرتها، وجلست في فراشها واضعةً يدها على خدِّها وقالت: "أبوك مش عايز يسافر يا نجوى.. أعمل إيه؟"، "أخوك الصغير راح فين؟.. قلبي شاغلني عليه.."، "البيت ما فيهوش مليم أحمر.. أروح فين وأجي منين يا رب؟"، "أخوك الصغير تائه في الدنيا، والكبير عوضي على الله فيه"، "لا الكبير نافع، ولا الصغير نافع.. أعمل إيه يا رب في النصيب والبخت؟"، قالت ذلك ثم نامت، نامت طويلًا بعد أن قررت السفر إلى حيث يرقد جسد الجَدَّة والأب والعمة "هانم"، قررت أن ترحل فحملوها وتركوها خلفهم في تلك المقابر الموحشة لترتاح أخيرًا بجانب مَنْ تحب ومَن لا تحب.

آشفيلد

إذا قسمتَ لفظ "آشفيلد" على مقطعين فهي حقل الرَّماد، وإذا نطقتها هكذا مرةً واحدةً وأدغمت كل الحروف فهي مدينة جامعية في إحدى الولايات الشمالية، مدينة صغيرة وكئيبة لأن الشمس لا تعرف طريقًا إليها إلا في فصل الصيف القصير، الذي يكون بدوره رَماديًّا وضبابيًّا ومُعبَّأ بالرطوبة، وإذا نظرت إليها في فصولها الثلاثة المتبقية فهي مدينة رمادية، ذات تربة ملحية لأنها أقرب المدن إلى بحيرة أونتاريو الشمالية التي تتجمد تمامًا في فصل الشتاء، ورغم الألوان المبهجة التي تكتسبها أشجار الخريف وألوانه فإنه عادة فصل قصير ومراوغ، تهبط الثلوج الرمادية في أيامه القصيرة فجأة وتغطي كل شيء باللون الرمادي، ثم تتحول البيوت بعد ذلك إلى مستودعات لنزح الثلج الذي يتراكم على الأسقف مهددًا بسقوطها ومتكلسًا على عتبات الأبواب مُعيقًا حركة السيارات والبشر الذين يبدءون يومهم بكشطه ومحاولة إزاحته من أمام أبوابهم، في الشتاء تتحول المدينة إلى مستودع من الثلج الأدكن الرمادي الذي لا يشبه تصوُّراتنا عن تعدد الفصول.

في قاعة الانتظار بمطار "آشفيلد" وقفت "نجوى" تنتظر مَن يستقبلها، كانت تتوقع لافتة تحمل اسمها واسم رفيقتها في السكن "ياسمين العامري".. لكن اللافتة لم تظهر؛ كانت العاصفة الثلجية قد أغلقت المطارات والطرق فجلست "نجوى" في مقاعد الانتظار ريثما يأتي الفرج، وبعد محاولات الاتصال المضنية بكل شركات السيارات ووسائل النقل، فشلت في الحصول على توصيلة وسط تلك العاصفة الثلجية؛ وضعت يدها على خدها وجلست في ساحة انتظار صغيرة وقميئة وشبه خالية، ثم ظهر "چون" العجوز الذي لا يبتسم، وضع حقائبها وجلست بجانبه، كانت السيارة رطبة وتفوح منها رائحة البول والكحول والسجائر والعرق والبرد، فضمت يديها إلى صدرها ولم تتكلم، تنفست ببطء وأعطته عنوان النُّزُل الجامعي الذي يُفترض أن يصبح مسكنها، قال إنَّه يعرفه.

يشبه "چون" في صمته وهيئته وتجهُّمه كل أبطال أفلام الغرب الأمريكي، يدخن بشراهة، ويبتسم بغموض وبطريقة مفعمة باللامبالاة ويقول: "ماذا ستفعلين في تلك البلدة؟".

كانت "نجوى" آنذاك ما زالت حريصةً على أن تعطي أقل قدر من المعلومات عن نفسها، فقالت باقتضاب: "جئت لأدرس"، هز رأسه وهو يشعل سيجارة جديدة، "وماذا تدرسين...؟"، قالت: "علم الاجتماع"، هز رأسه قائلًا: "إن الجامعة قريبة من المدينة وإن المدينة ليست مدينة في الحقيقة فهي بعض الحوانيت والبنايات القديمة القميئة". قال "چون": "إنها مدينة كئيبة على أية حال.. بها عدة بارات صغيرة لكنها ليست جميلة".

بعد فترة صمت سأل: "من أين أنت؟"، قالت: "من بلاد بعيدة"، قال

وقد أغضبته إجابتها التي بدت متعالية على ثقافته: "من أي بلد.. أليست بلدك على الخريطة..؟ أنت هندية أليس كذلك.. هؤلاء الأسيويون.. صاروا يملئُون الحياة بطلابهم الفقراء وأشكالهم الرثة".

قالت لـ"چون":

"أنا من الشرق الأوسط"، كما لو كان ذلك يعطيه مبررًا كافيًا لإعادة النظر في وجودها.. فقال بحدَّة: "آه أعرف ذلك البلد في شمال أفريقيا كما أعتقد.. أعرف أن تلك المنطقة هي أصل كل المصائب والحروب الدائرة في نشرات الأخبار..".

ضحك "چون" وأكمل: "بلاد فقيرة.. أليس كذلك؟ إنها منطقة موبوءة بالخراب"، وأكمل: "آشفيلد أيضًا مدينة موبوءة وأكثر خرابًا من بلادك..".

ضحك فكررت الجملة الوحيدة التي تلخص وجودها الطارئ عليه: "جئت لألتحق بالجامعة".

هز رأسه وقال: "إنها جامعة وضيعة.. وأنها لا تُعد جامعة حتى.. كلهم طلاب فقراء جاءوا من بلاد ليست على الخريطة بعد..". قال ذلك ثم أدرك احتمالية الإهانة الموجهة ضمنيًّا لها في كلماته، فأردف بتلطف: "حسنًا، ستكون تجربة مثيرة لامرأة صغيرة مثلك".

لم تعرف كيف تعبر عن حنقها فاكتفت بالصمت القلِق، عبرت السيارة عدة حقول ومناطق جبلية ثم انحدرت إلى الوادي وظهرت "آشفيلد" بشوارعها الضيقة وبناياتها القديمة المتجاورة الغارقة في الضباب، وقفت السيارة إلى أحد المباني متعددة الطوابق.. قال "چون": "أتمنى لك حظًّا

سعيدًا يا فتاة.. ليس في تلك البلاد حظوظ كثيرة لو كان فيها لأعطته لأبنائها بدلًا من تبديد الأموال على الغرباء".

أعطاها "چون" بطاقة مكتوب عليها مهنته "چون للنقل السريع"، قال إنَّه يصلح النوافذ ويقوم بأعمال أخرى إذا احتاجته، وقال إنَّها لا شك ستحتاج خدماته فالبلدة صغيرة والغرباء دائمًا ما يحتاجون بعض العون... وضعت "نجوى" البطاقة في حقيبتها وحاولت نسيانه، لم تكن تعلم آنذاك أن ذلك الرجل سيصبح الصديق الوحيد الذي اكتسبته في تلك البلاد.

حين وصلت وجدت "ياسمين العامري" تقف بانتظارها خلف الباب، بعينين ملونتين وبشرة خمرية وشعر قصير ومصبوغ باللون الأشقر على طريقة "مارلين مونرو".

تحب "ياسمين العامري" "مارلين مونرو"، وتضع صورًا كثيرة لها على جدار الغرفة التي ستصبح أيضًا غرفة "نجوى"، قالت ياسمين معتذرة عن عدم استقبالها لها في المطار: "العاصفة كانت مخيفة.. ولم أكن أستطيع الخروج.. الحمد لله أن چون كان مُستعدًّا لتوصيلك"، هل رأيتِ مطار آشفيلد.. هههه إنه مجرد ممر بائس... لمدينة بائسة أيضًا.. هزت "نجوى" رأسها متفهمة، كانت تود أن تنسى هذا الـ "چون" وتمحوه من ذاكرتها.

في صباح اليوم التالي اعتذرت "ياسمين" من تحت لحافها عن عدم قدرتها على مرافقتها للجامعة قائلة: "أيام الخريف انقضت بسرعة.. الخريف لا يتجاوز أسبوعين على الأكثر، يدخل الشتاء بسرعة.. أنا لا أستطيع تحمل هذا البرد"، قالت أيضًا إنها تحب أن تساعدها للوصول إلى القسم وإنهاء

بعض الأوراق المتعلقة بالإقامة، لكن الجو بارد وهي لا تحب الخروج في هذا الطقس... قالت ذلك وهي تدسُّ جسدها في الفراش، بعد أن رسمت لها على الخريطة عدة اتجاهات للوصول، ثم أكدت لها: "إنها بلدة صغيرة.. والجامعة أيضًا صغيرة، كل ما عليك هو أن تسألي فقط وسوف يقودك الموظفون إلى مكتب الطلاب الأجانب".

راقبت "نجوى" جسد "ياسمين" وهي تستعد للانزلاق تحت لحافها متحاشية الصقيع الذي ينبعث من الجدران، لم يكن جسدها باذخًا كما تصورت حين رأتها في الليلة السابقة، ظهر ذلك حين خلعت "ياسمين" الشال الصوفي الذي دثرت به كتفيها، بدا جسدها صغيرًا ونحيفًا بشكلٍ ملحوظ، وحين أزالت عدسات عينيها الزرقاوين استعدادًا للنوم، تحولت إلى امرأة عادية تمامًا تشبه كل النساء اللاتي يخرجن بعباءاتهن السوداء ويطللن عليك من مجتمع محافظ، لكنها ظلت مبهورة بالطريقة التي تبدل بها "ياسمين" هيئتها كل صباح، ظلت تراقب كيف ترتدي البنطلون الصبياني وتضع عدسات خضراء لوزية أو زرقاء حسب ما تتطلبه ملابسها، وتقضي وقتًا في تصفيف شعرها، ثم ترسم شفتين صغيرتين هذه المرة، وتبتسم ببلاهة وطفولة تجعلها من بعيد فقط نسخة من "كاميرون دياز".

أقسام الدراسات الشرق أوسطية في تلك الجامعات مُفخَّخة بالتناقضات، فهي في مجملها أقسام صغيرة وملحقة بغيرها من التقاطعات الجغرافية، الشرق الأدنى، الشمال الأفريقي، تاريخ الأديان، وغيرها من التقاطعات الأكاديمية الأخرى التي تجعلها منطقة آهلة بكل صور الصراع. القسم الذي ترأسه "هانا ميلر" مُكوَّن من زميلتها "شيبا" أستاذ الشرق الأدنى

والتي لا تزال تلبس الساري الهندي، وتفوح من غرفتها رائحة الكاري والبهارات، ثم "آذار رضا" ذي الأصول الإيرانية الذي يملك بدوره سطوةً لا بأس بها باعتباره أحد خرِّيجي جامعات القمة، ابتسم لها "آذار" بلحيته الصغيرة وتبادل معها سلامًا قصيرًا، مقدمًا نفسه باعتباره أستاذ علم الأديان المُقارَن.

في المقابلة الأولى قالت "هانا" وهي تتفحصها: "لغتك ليست جيدة.. والكثير من خطاباتك للجامعة مليئة بالأخطاء.. لا بُدَّ أن تتصرفي في هذا"؛ احمرَّ وجه "نجوى" قليلًا وأدارت نظراتها في مكتب أستاذتها المكتظ بالكتب القديمة، تأملت المخطوطات وقطع السجَّاد المشرقية الفخمة، وبعض اللوحات الاستشراقية لنساء في أسواق الرقيق على الجدران، كان مكتب "هانا ميلر" واسعًا جدًّا لدرجة تُشعرك بالبرودة، وأضفت عليه تلك النوافذ العالية الضخمة مهابة وغرابة، قالت لها بخجل: "إنني أفهم ذلك، وإنني جئت كي أتعلم، وسأكون عند حُسن ظنك"، قالت ذلك بلهجة مدرسية مهذبة، فاكتفت "هانا" بنظرات الشفقة وعبارة واحدة مُتشكِّكة، قالت: "سنرى كيف تسير الأمور".

قالت "هانا" لها بعد ذلك: "عليكِ اجتياز بعض الفصول التأهيلية قبل أن تفكري في الأطروحة، كما أن الجامعة لا بُدَّ أن تستفيد من وجودك، هل يمكن أن تدرِّسي فصلًا للغة العربية إذا توافر عدد من الطلبة لذلك؟، هل تعرفين كيف تدرِّسين العربية؟ أم أن لغتك العربية ركيكة أيضًا؟".

قالت الجملة الأخيرة على سبيل الدعابة وضحكت، لكنها سرعان ما أعادت وضع قناع وجهها الجامد وهي تكمل: "أنا أعرف العربية جيدًا،

والعبرية أيضًا.. درست في سوريا ثم في المغرب".. ثم أكملت متسائلة: "هل تتحدثين السواحلية؟"، هزت "نجوى" رأسها نافيةً فقالت لها "هانا" بتعالٍ:

"أمامك الكثير لتتعلميه".

كانت "هانا ميلر" تعتقد أن بإمكانها أن تجعل وجود الآخرين دائمًا مفيدًا للقسم أو الجامعة بشكلٍ من الأشكال، وهو ما أثبتت نجوى عكسه، فلم يتحمس أحد لدراسة اللغة العربية في "آشفيلد"، حتى بعد طباعة بعض الإعلانات وتوزيع عدد من المنشورات لبَثِّ الوعي بتلك اللغة.

وقفت "نجوى" طويلًا على تلك الطاولة التي وضعوها لها أمام باب الجامعة لتشرح للعابرين فوائد تعلُّم لغة لا تعنيهم، كان الطلاب يمرون بسرعة ولم يتوقف أحد، فقط وقف معها ذلك الشاب غريب الأطوار، وطلب منها كتابة عدة كلمات بالعربية لأنه يحتاجها.

كانت تلك المفردات على الترتيب: (أحبك، حبيبي، أنام معك، أنت ساخنة، أنا خَوَل)، كتبت "نجوى" ذلك بخط رُقعة منقوش على تلك الورقة التي أعطاها لها، فشكرها كثيرًا، وقال: "ذلك بالضبط هو كل ما أحتاجه"، ابتسمت بأكثر الطرق أدبًا، فقال لها موضحًا: "أنا فنان، أعمل في أحد دكاكين الوشم.. التاتُّو، هل تعرفين التاتو؟"، هزت رأسها فأكمل "أنا أحتاج تلك الكلمات، تلك الكلمات هي عادة ما يطلبه الزبائن لنقشه على جلودهم".

بعد أسبوع من الوقفات الدعائية لم تنجح "نجوى" في جذب انتباهِ

أيٍّ من الطلاب ليدرس معها، فقط صار الجميع في "آشفيلد" يلقبونها في المتاجر الصغيرة باختصار قائلين: "معلمة العربية".

بعد ذلك حاولت "هانا ميلر" اختبار قدرات "نجوى" في الترجمة، كانت الأستاذة مشغولة آنذاك بأحد أبحاثها عن الرحَّالة الألمان في شمال القارة الأفريقية، وتتحدث كثيرًا عن ابن بطوطة وابن خرداذبة والمسعودي والبكري وعن بعض المخطوطات المتصلة بهم والتي تود اكتشافها، وتعتقد أن كتاب المسالك لابن حوقل يشير في هوامشه إلى تلك المصادر المجهولة.

كانت "نجوى" تعرف كيف تبحث في تلك الأوراق الصفراء، كان النبش في الكتب القديمة واحدة من المهارات القليلة التي تتمتع بها، يُنعم عليها "يوسف الأزهري" بلقب "دودة" ويقول ضاحكًا: "أعطها أنت جملة واحدة وهي تطلعها من أم الكتاب"، كانت "نجوى" ماهرة أيضًا في الحفظ، تحفظ كثيرًا وتجمع ما حفظته في أوراق تطلق عليها مصادر، لم تكن ترجمة ابن حوقل أو غيره إحدى مهاراتها على أية حال، لكن "هانا ميلر" أعطتها نسخة ورقية من كتاب "المسالك والممالك" وخطَّت تحت بعض الصفحات خطوطًا وقالت لها: "هل يمكنك ترجمة تلك الفقرات إلى الإنجليزية؟".

قضت "نجوى" عدة أسابيع بين القواميس في محاولة لإيجاد مُعادِل لُغوي لتلك الفقرة: "فأما ما بين يأجوج ومأجوج والبحر المحيط في الشمال وما بين براري السودان والبحر المحيط في الجنوب فقَفْرٌ خراب، ما بلغني أن فيه عمارةً ولا حيوانًا ولا نباتًا، ولا يعلم مسافة هاتين البريتين إلى البحر المحيط كم هي، وذلك أن سلوكهما غير ممكن لفرط البرد الذي يمنع من العمارة

والحياة في الشمال، وفرط الحر المانع من العمارة والحياة في الجنوب".

وحين انتهت من محاولة ترجمة تلك الفقرة، صرخت "هانا" قائلة: "ما هذا؟ هذه ليست ترجمة، هذه مجرد قَصّ ولصق من القواميس، لا أستطيع أن أفهم جملة واحدة مما تدَّعين أنه ترجمة، أنت لا تستطيعين فهم النص؟"، كانت "نجوى" تستطيع بالطبع فهمه وربما شرحه، لكنها لم تكن تستطيع فقط تقديمه لها باللغة التي تفهمها، كانت "هانا" عاجزة عن فهمه بالعربية وتنكر ذلك، وكانت "نجوى" عاجزة عن ترجمته وتنكر ذلك أيضًا؛ مزقت "هانا" تلك المحاولة وألقت مباشرة بالأوراق المتناثرة في سلة المهملات، فوضعت "نجوى" رأسها في الأرض ونظرت إلى قدميها التي ترك الثلج عليها ركامه، كانت تبحث عن كلمة تُنهي بها تجهُّم أستاذتها وخيبة أملها ولم تجد ما تقول، فهمهمت بتسليم: "سأعيد العمل عليه".

في الأسابيع التي تلت ذلك صارت "نجوى" تسير حاملةً "المسالك والممالك" أينما ذهبت لدوافع صعُب عليها تفسيرها، كانت تود أن تُرضي أستاذتها أو ربما تود أن تثبت لنفسها بعض القدرة على الإنجاز، ثم صارت في النهاية تجد في صفحات الكتاب ذكرى ذلك العالم الذي تركته خلفها، تقلب في فصوله عن خرائط البلدان عن المدن التي تعرفها، وصارت تسجل في مذكراتها تلك الجمل التي اختارتها:

"إن مدينتها العظمى تُسمى الفسطاط.. وهي مدينة حسنة ينقسم النيل عندها قسمين.. وفيها أبنية حسنة ومساكن جليلة، تُعرف بالجزيرة، يُعبَر إليها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة... والفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد، وهي على غاية العمارة والخصب والطِّيبَة واللذة، ذات رحاب في

محالّها وأسواق عظام ومتاجر فخام، وممالك جسام إلى ظاهر أنيق وهواء رقيق وبساتين نضرة ومُتنزَّهات على مَرِّ الأيام خضرة".

تغلق الكتاب وتحاول إعادة النظر في الترجمة التي لم تستطع أن تجعلها مرضية لهانا أو كافية من وجهة نظرها، كلما قدمت لها نسخة مُحسَّنة من تلك الترجمة، كانت تنظر إليها تلك النظرة التي تحمل احتقارًا ممزوجًا بالرثاء ثم تُنهي اللقاء بسرعة قائلة:

- يبدو أنك لا تعرفين العربية ولا الإنجليزية، كُفِّي عن تلك المحاولات إنها تثير أعصابي.. أنا لا أعرف كيف ستقومين بكتابة أطروحة وأنت لا تفهمين شيئًا هكذا؟.

كانت "هانا" أيضًا حريصة على إحراجها ما أمكن لها ذلك، فبعد كل جملة تنطق بها كانت على سبيل التوبيخ تعيد صياغتها بشكل بالغ الأناقة. لم تكن تستطيع أن تصبر على طريقة نطق "نجوى" الثقيلة، فقط تختصر الطريق على عباراتها المتقطعة الغائمة، تلك الجمل التي قضت "نجوى" وقتًا طويلًا في تحضيرها كي تبدو صحيحة ومعبرة، كانت "هانا" تقاطعها قبل إكمالها قائلة: "أهذا ما تريدين قوله.. أنا لا أفهمك تمامًا.." صارت تهز رأسها فقط وتشعر بالانسحاق وتبكي في فراشها وتشعر بالمهانة، فترفع "ياسمين" الغطاء عن وجهها وتقول لها موبخة: "لماذا تحاولين طوال الوقت إرضاءَها؟، أنت لم تأتي هنا لتترجمي لها، يجب أن تتعلمي أن تقولي: (لا وقت لديَّ).. أنا طالبة".

كانت "ياسمين" تستطيع قول ذلك لمن تريد بمنتهى البساطة، لم يكن

بوسع أحد إهانتها لأنها كانت أذكى، وأكثر ثقة، وتملك من قوة الشخصية ما تعجز "نجوى" عن امتلاكه، كانت فقط تراقب من تحت لحافها كيف تأخذ "ياسمين" كل قراراتها العنيدة تجاه الوجود ثم تضع جسدها في الفراش وتنام، من دون شعور بالتقصير تجاه أحد.

في النهاية توقفت "هانا" عن إسناد أي واجبات بحثية أو غيرها لـ"نجوى"، بل وتحاشت رؤيتها تمامًا، صارت تتعامل معها باعتبارها قضاءً وقدرًا غير مرغوب فيه، تتجنب مقابلتها ما أمكنها ذلك، وتقول كل مرة تضطر لملاقاتها:

- حسنًا.. ما أخبار فصولك؟ حسنًا.. أنا مشغولة تمامًا.. حسنًا سنناقش موضوع أطروحتك لاحقًا بعد أن تتخطي الفصول.

تعتقد "هانا" - وكان هذا صحيحًا - أن "نجوى" جاهلة وشبه أُميَّة، وأنها غير قادرة على التحصيل الدراسي وأنها ستعجز عاجلًا أو آجلًا عن المواصلة.. وربما ستحمل حقائبها وتعود.. وكان ذلك أيضًا ما تفكر فيه "نجوى" طوال الوقت.

قالت "ياسمين العامري" لها، وكانت شبه متأكدة من قدرتها على اجتياز تلك الفصول بجدارة، إنها ستختار "آذار رضا" كمشرف عليها بعد اجتياز الفصل التمهيدي للأطروحة، قالت إنها تعتقد أن "هانا" و"شيبا" ينظران إليها بشكلٍ مريب، ويبدو أنهما لا يُطيقانها، لكنها لا تهتم، قالت إن "آذار رضا" متزوج وعنده أولاد، لكنه دعاها إلى مشاركته العشاء، وإنها تجده وسيمًا، ضحكت "ياسمين" وقالت: "أنا ذاهبة الآن"، كانت ترتدي تَنُّورة

قصيرة للغاية وكان الجو باردًا، لكنها لم تكترث، قالت إنها سعيدة لأنه لا يطلب منها شيئًا حتى الآن.. قالت إنها محظوظة لأنها تجد دائمًا في حياتها مَن يساعدها، وكان ذلك حقيقيًّا، كانت تجد دائمًا مَن يجلس بجانبها في المكتبة، ويساعدها في واجباتها الدراسية، ومن يخرج ليتسوق معها، ومن يتبرع بتوصيلها بسيارته إلى حيث تريد، تستطيع "ياسمين العامري" أن تخلق أصدقاء ومحبين وتجد رجالًا عَطُوفين حتى في "آشفيلد" الكئيبة.

تعرف "ياسمين" كيف تجذب عشاقها، كان فيها كل ما افتقدته "نجوى" وتمنَّته؛ قدرتها على الابتسام، والدلال والتواصل بتلك اللغة الأنيقة، وتلك اللكنة المقطرة بالأنوثة، لا تعرف كيف تنسج جُملها الإنجليزية بكل تلك الخلاعة والرُّقيّ معًا.

قالت لـ"ياسمين" ذات يوم إنها تشبه بنتًا جميلة كانت تعرفها، كان اسمها "زهرة"، ضحكت "ياسمين" ثم قالت: "لا شك أن بين الأزهار علاقة وطيدة".

لم تحكِ لـ"ياسمين" قط عن تلك الزهرة؛ لأنها لم تكن قريبة منها بتلك الدرجة، وضعت "ياسمين" منذ البداية مسافة واضحة بين ثرثرة "نجوى" وطقوسها الخاصة، كانت مشغولة دائمًا بطقوسها، جلسات المساج، كريمات فرد الشعر، جلسات الاعتناء بالأظفار وتدليك القدمين، كل تلك المهمات كانت في قوائم رعايتها المفرطة بجسدها، كانت تتحدث كثيرًا في جوَّالها وتخرج للشرفة كل مرة متدثرة بذلك الشال الصوفي وتهمس لفترات طويلة، وتجد في رسائلها ما يؤنسها؛ لذلك فقد تعاملت مع "نجوى" باعتبارها كائنًا غير مرئيّ بالضرورة وغير نافع في كل الأحوال.

حاولت "نجوى" الانشغال بالدروس التي بدت ثقيلة ومرهقة، انشغلت بتحول الفصول التي تزداد برودة، وبكتابة الخطابات التي تؤكد أن كل شيء جميل ومنظم ومرتَّب وأنيق، وأن الحياة في "آشفيلد" تسير كما ينبغي لها أن تكون، كانت تحاول إقناع نفسها بذلك رغم كل المخاوف.

كانت آنذاك مشغولة بحمل القواميس للتمرُّن على حفظ الكلمات أبجديًّا، وبعد حصيلة لا بأس بها بدأت بمحاولة صياغة الجُمل التي كانت دائمًا ركيكة وغير صحيحة المعني، تركت القواميس وانشغلت بحفظ المخاطبات الرسمية، صارت تحفظ فواتير الغاز والكهرباء وقُصاصات الجرائد وتدوِّن في يومياتها بعض الجمل التي توحي بالفصاحة: (يُرجى التفضل بالرد المفصل كتابيًّا)، (أتمنى أن تكون ملمًّا بالتفاصيل اللازمة كافة لاتخاذ القرار)، (ليس لديَّ أي شك في تفهُّمكم لطبيعة الوضع ونتائجه)..، تحاول التمرُّس على نطق تلك الجمل كاملة في رحلات التسوق الأسبوعية، فيضحك "چون" ويقول محاولًا تشجيعها: "إذا كان الجميع يتحدث في الجامعة بتلك الطريقة فلاشك أنك تتقدمين بشكل استثنائي".

وفي ظل محاولات "نجوى" لاجتياز الفصول المقررة للدراسات العليا، كانت تحرص على الجلوس في الصفوف الأولى كما تعودت، وتصغي بانتباه وتحاول تدوين ما يُقال وما تعتقد أنه ضروري، متأنقة كما ينبغي لطالبة علم في سُترات فضفاضة طويلة ذات أكتاف عريضة، واضعة شعرها الذي بدأ يتساقط تحت قبعة سوداء أوروبية للغاية، ومتحصنة بقدرٍ من المساحيق الرخيصة التي تجعل من وجهها المستدير المتخم بالنعمة، وجه امرأة ممتلئة ومنكمشة ومترددة وتصلح نموذجًا مثاليًّا لطالبة غريبة الأطوار.

في شتاء "آشفيلد" كان كل شيء يبدو معتمًا، تطفلت نوبات الهلع واقتحمت حياة "نجوى" وتبخرت معها كل أحلامها في النبوغ، صارت تمارس الاختباء تحت أغطية فراشها، ومواصلة الحفظ وخط الخطوط الثقيلة تحت الجمل التي تبدو مبهمة وعصيَّة على الفهم، تغلق المصادر والمراجع بعد ذلك وتتفرغ لحشو الخطابات بالصور التي تعكس سعادتها، وإرسالها إلى البلاد على سبيل إشاعة جو من الطمأنينة عن أحوالها، وكلما كان عليك أن تكتب الجمل الكاذبة عن الحياة التي يتخيلها الآخرون، أصبحت الحقيقة غائمة والعودة من حيث أتيت إعلانًا لفشلك، تقول لنفسها ذلك وتحاول تفادي القلق على راتب المنحة الطلابية التي صارت مهددة بفَقْدها بمزيدٍ من المحاولات الفاشلة للصمود، وربما لتجنب لعنة الأسى الذي يبدو متوارثًا ومرتبطًا بالخيبات المتراكمة.

في بداية الربيع، قابلت "نجوى" أستاذتها "هانا ميلر" ذات صباح، فابتسمت وقالت: كيف حالك؟ أصبحت "هانا" فجأة أكثر عطفًا ولطفًا بعد أن عرفت أنها تقيم في السكن ذاته مع "ياسمين العامري"، لم تخبرها "نجوى" بذلك، لكنها عرفت ولم تستطع "نجوى" التكهُّن بسر حماسة "هانا" لتلك المعلومة.

بدأ وجه "هانا" اللطيف يظهر على السطح للمرة الأولى حين دعتها إلى مرافقتها في تناول فنجان من القهوة، مشت خلفها في الممشى الطويل في حرم الجامعة، كان ثلج الشتاء قد ذاب، وبدأ الربيع يترك علاماته على الحشائش، تحب "هانا" المشي طويلًا، وبخطوات سريعة تجعل من مرافقتها محاولة مستمرة للتعثُّر بين الرَّكْض واللحاق بها، تستطيع "هانا" أن تكون

لطيفة أحيانًا، تسألها عن أحلامها، وعن خطط الأطروحة، وعن إعجابها بمثابرتها كطالبة ورغبتها في التعلُّم، ومدى التطور الذي أصاب شخصيتها، كان ذلك اللطف فوق طاقة "نجوى" على الاستيعاب فحاولت استعراض تطور بلاغتها اللغوية، قاطعت "نجوى" ثناء أستاذتها على مثابرتها قائلة بطريقة فصيحة بشكل مضحك: "إنني أحاول.. يموت الجبناء مرات أما الشجاع فلا يذوق الموت إلا مرة واحدة"، ضحكت "نجوى" بعد تلك العبارة الشكسبيرية التي تمرنت عليها طويلًا، ولم تفهم لماذا قررت "هانا" بعد تلك الجملة إنهاء المحادثة بإشارة من يدها طالبةً منها التوقف عن الكلام أو الانصراف، فانصرفت بذلك الحَرَج الذي صار ملتصقًا بكل حواسِّها.

في المقابلة الثانية، لم تَقُل "هانا" شيئًا جديدًا، كانت أكثر توترًا، وأقل تركيزًا وبدت كأنها تود أيضًا الخلاص من تلك المقابلة بأكثر الطرق لطفًا، ابتسمت فقط ثم أعطتها بعض الكتب التي ألفتها، وكان معظمها عن ثقافة شعب الهوسا.

في المرة الثالثة لم تتطرق "هانا" إلى أحوالها وأخبارها قالت لها مباشرة، ومن دون مواربة:

- ما رأيُك في "ياسمين"؟.

قالت "نجوى":

- إنها جميلة، تشبه امرأة كنت أعرفها كان اسمها "زهرة".

لم تَبدُ "هانا" مهتمة بما تقول، قالت:

- هل لها صديق أو صديقة؟.

قالت "نجوى":

- إن "ياسمين العامري" تستطيع أن تجعل نصف شعب "آشفيلد" أصدقاءها إذا أرادت، إنها جميلة جدًّا ولم أعرف أحدًا حتى اليوم في "آشفيلد" لم يحاول الاقتراب منها، حتى "چون" نفسه.

سألت "هنا" بسرعة:

- چـون ؟ مَنْ هذا الـچون؟.

قالت:

- سائق الشاحنة، إنه يقف كل يوم تحت بابنا ليُقلَّها بسيارته إلى الجامعة مجانًا لأنه يخاف عليها من التعثر في الثلج، رغم أن المسافة بين سكن الجامعة وقاعات المحاضرات مجرد فركة كعب.

لم تبدُ "هانا" مهتمة أيضًا بما أرادت "نجوى" قوله، قطعت فاصل الركض سريعًا وصرفتها بعد أن أثنت على المعطف الجديد الذي ارتدته قالت لها:

- صرتِ تنتمين إلى آشفيلد بهذا المعطف الثقيل يا نجوى، ابتسمت "نجوى" ثم قالت لها:

- إن ياسمين اشترته لي، تعتقد أنه يناسبني، يجعل جسدي أنحف قليلًا ويصلح للمطر أيضًا.

في اللقاءات التي تلت ذلك، صارت "نجوى" أكثر ارتباكًا، تعاودها تلك الذكريات المرتبطة بـ "زهرة"، وتتساءل لماذا يكون مصيرها مرتبطًا بتكرار الدور نفسه، الدور الذي قامت به مع "يوسف الأزهري"؟ هل هذه المرة ينحصر دورها في مطاردة "ياسمين"؟ لم تكن "هانا ميلر" من ذلك النوع الذي يعرف المحبة أو يستطيع الوقوع في غرام أحد، ذكرًا كان أو أنثى، كانت "هانا" بطبيعتها حادة ومتوترة، وكان هناك دائمًا ما يشغل بالها، لم تفهم "نجوى" قط ما الذي يشغل بالها آنذاك، لكنه كان بالضرورة مرتبطًا بـ"ياسمين العامري".

في نهاية تلك المقابلات قررت "هانا" التطرق إلى تلك العلاقة التي تعتقد أنها تربط "آذار رضا" و"ياسمين العامري"، صارت أكثر تحفزًا وأقل صبرًا وهي توجه تلك الأسئلة المتتابعة لها:

- هل تعرفين طبيعة تلك العلاقة؟، هل تعتقدين أنه تحرش بها جنسيًّا؟ لقد فعلها قبل ذلك، لا نريد لهذا الأمر أن يتكرر، هل سمعت منها شيئًا؟.

ألقت كل تلك الأسئلة دفعة واحدة وكانت "نجوى" ما زالت تركض خلفها في إحدى تلك النزهات، التي اكتشفت ساعتها أنها لم تكن مصادفة، ولا واجبًا، ولا شفقة على حالها، كانت لقاءات مرتبة ومصممة لاستدراجها إلى ذلك الحديث الذي يجب أن يظل مجرد ثرثرة عابرة بين الطالبة المتعثرة والأستاذة التي تحيط بكل شيء علمًا.

قالت "نجوى" لها:

- يبدو أنهما يلتقيان، لا أعرف، لم أرَهما، أعرف أنها ذهبت معه إلى نادي

الجولف، كان يعلمها تلك الرياضة، أعرف أنها تذهب مع الآخرين، تعرف "ياسمين العامري" الكثير من الأصدقاء وتستطيع أن تضحك وتتحدث وتغني وترقص أيضًا، رقصت في حفل الطلاب الأجانب في ثوب عربي، كانت فقرة ممتازة صفق الجميع لها، "ياسمين" أيضًا طيبة، إنها الوحيدة التي تهتم بي تشتري معي ملابسي وتُقرضني بعض أحذيتها القديمة الصالحة للثلوج، وتستطيع إذا كان عندها بعض الوقت تعليمي كيف أضع كُحْل عينيَّ من دون أن أصبح مثل القرويات، عندما تكون مبتهجة، ترقص في الغرفة، وتوقد الشموع، وتحتضن هاتفها طوال الليل والنهار.

كانت في الحقيقة تعتقد أن "ياسمين" في حالة حب متعددة الأطراف وأنها تستطيع أن تخرج مع الكثيرين، لكنها لم تحدد بعد من سيكون له قلبها.

وكانت تلك الإجابات المحايدة تثير ضيق "هانا" التي تعتقد أن "نجوى" تقوم عمدًا بتضليلها وأن إجاباتها المتناقضة لا تشبه إلا محاولاتها المتعثرة لترجمة (المسالك والممالك)، مجرد جُمل لا معنى لها ولا ترابط بينها، جمل تخص "ياسمين"، لكنها لا تصلح لخلق نظرية أو فكرة واضحة كاملة لتلك العلاقة.

لم تكن "نجوى" في الحقيقة تكترث بطبيعة تلك العلاقة، وليس لديها دليلٌ على تورط "آذار رضا" مع "ياسمين" في علاقة جنسية ولم تكن ترغب في البحث عن تلك الأدلة التي لا تخصها، وبعد عدة محاولات للتملُّص من الإجابة قالت لـ"هانا" بحدَّة:

- أنا لا أعرف.. لماذا لا تسألينها أنت؟.

هزت "هانا" رأسها بقلق ونفاد صبر ثم قالت:

- هل تعتقدين أنني أنتظر نصيحتك أو أستشيرك مثلًا؟.

ابتلعت "نجوى" الإهانة وأكملت:

- إنني لن أستطيع معرفة شيء، حتى لو عشت مع ياسمين عشرين عامًا، ليس لأنني أترفّع عن التورُّط في التجسس عليها، بل لأن ياسمين لا تعطي سرَّها أو جسدها لأحد، إنها فقط تعطي وعودها.

بعد تلك المحادثة أدركت "نجوى" بوضوح أن "هانا" تود استخدامها بشكلٍ ما، في حربٍ ما، أو قضية متصلة بتصفية الحسابات بين أعضاء القسم المتنازعين دائمًا وأبدًا، تبحث عن شبهة علاقة لا يمكن إثباتها.

بعد عدة أيام استدعتها "هانا" في مكتبها بصفتها الرسمية كرئيس للقسم، وطلبت منها إفادة رسمية في تلك الشائعة، جلست "نجوى" أمامها وكانت الأستاذة "شيبا" تجلس على هامش المقابلة بعيدًا وتراقب بحذر تلك التحقيقات المنتظرة والتي لم تسفر عن شيء، قالت "نجوى" لهما ببراءة نادرة: "لا أعرف، لا أظن ذلك، كيف يمكنني أن أعرف؟"، فانصرفت "شيبا" بعد خيبة أمَل قصيرة، تنهَّدت فقط وخرجت من دون أن تعلق، واستمرت "هانا" في استجوابها بلهجة أكثر حدَّة وعدائيَّة: "حقًّا أنت لا تعرفين شيئًا؟"، هزت "نجوى" رأسها عدة مرات نافية، فجذبت "هانا" ورقة بيضاء وكتبت عليها بالعربية، "نجوى سالم" ثم رسمت بجانب الاسم سهمًا ساقطًا من أعلى الورقة إلى أسفلها، ثم مزقت تلك الورقة وقالت لها آمرة: "اخرجي" فخرجت، ولم تَرَها "نجوى" بعد ذلك أبدًا، كانت تعتذر

عن مقابلتها لأنها مشغولة عادة أو لا تريد رؤيتها على الأرجح.

في نهاية فصل الربيع أعادت "ياسمين" صبغ شعرها بلون أسود أدْكَن يُبرز سُمرتها، وبدت نحيلة للغاية في ملابس فضفاضة، عبأت حقائبها ثم قالت إنها لا بُدَّ أن تعود إلى بلدها، وأن أمها مريضة، وأنها ليست متحمسة لاستكمال الدراسة هنا، قالت إن "آشفيلد" كئيبة جدًّا، وإنها لم تحبها، قالت ذلك ثم رحلت وكان كل ما تركته لها من معارف أو محبين هو "چون" الذي تعهَّد لها بتفقُّد أوضاع "نجوى"، صار يقف بشاحنته الصغيرة مُستعدًّا لاكتشاف خريطة الأحياء الهندية والأسيوية واللبنانية المتاحة معها، يرافقها إلى بعض الحوانيت الشرقية الصغيرة التي صارت تزورها بانتظام باحثة عن بعض المعلبات وروائح البهارات وخبز البلاد التي تركتها وراءَها، يشفق "چون" عليها من السير متعثرةً بين الثلوج باحثةً عن وظيفة لتغطية بقية النفقات التي لا يغطيها راتب المنحة المهدد بالانقطاع، بعد فشل "نجوى" في اجتياز الصفوف التأهيلية العليا، صار "چون" يتفقَّد معها الإعلانات المطبوعة والملقاة في الحوانيت.. أسرة لبنانية تبحث عن جليسة أطفال، مخبز سوري يحتاج إلى عاملة تجيد العربية، مغسلة يمنية للكَيّ والتنظيف، يعتقد "چون" أنها فتاة قليلة الحظ، كانت تعتقد ذلك أيضًا، لكنه كان أكثر تفاؤلًا ويعتقد أن البحث في أزقة "آشفيلد" قد يفضي إلى مفاجأة يدبرها القدر، قد يضع مثلًا في طريقها الزوج المتاح، وقد تستطيع اللحاق بما يُسمَّى الحياة المستقرة.

***

"محمود الخليلي" كان رجلًا بدينًا وقصيرًا، تزوج عدة مرات وفشل

في الإنجاب من زيجاته المتكررة، يملك بيتًا صغيرًا مهملًا وعملًا لا يحتاج منه مغادرة البيت، يقضي وقته أمام شاشة حاسوبه الضخم، يقوم ببعض المعاملات البنكية والحسابات والاستشارات العقارية والضرائبية الصغيرة لتلك الحوانيت.

قال "چون" إنه يبحث عن زوجة محافظة وتستطيع ملء فراغ الغرفة الزائدة على الحاجة في بيته، وإعادة إعمار مطبخه الذي يحتاج إلى عناية خاصة، كان خيارًا مثاليا للنجاة إذا أرادت أن تبقى، وكانت "نجوى" لا تستطيع العودة لأسباب تجهلها.

قال "چون" إن "محمود الخليلي" يبحث عن زوجة مُحَبَّة وحياة عائلية مستقرة، ويسأل عن زوجة عربية بالضرورة، ومُحجَّبة إذا أمكن، وآنسة كما يفضل، وطبيبة أو مهندسة لو تسنى له ذلك، ومن أسرة كريمة بالضرورة، وتعيش بتولًا كمريم العذراء في خِدْرها تنتظر المعجزة الإلهية التي يدبرها لها القدر، ولأنه يعرف استحالة ذلك فقد وافق على دعوة "چون" وزوجته لمقابلتها فربما صلحت لهذا الدور.

كان حفلًا موسيقيًّا راقصًا كما يُفترض، فقد أعدت فيه زوجة "چون" مجموعة نادرة من الموسيقى الشرقية الراقصة، ولكنها حين رأت هيئة "نجوى" وشكلها المحافظ عدلت بسرعة من برنامج الحفل، واكتفت بالجلوس حول المائدة لإنجاز ما يمكن إنجازه بعيدًا عن الرقص.

أظهر "محمود الخليلي" بدوره ضيقًا حين رأى هيئتها، جلس متململًا في مقعده، متبادلًا بعض الكؤوس مع مضيفيه، حاول "چون" تلطيف

هذا القلق قائلًا: "إن الزواج تجربة كئيبة تشبه صقيع "آشفيلد"، لكنها تجربة مسلية على الأرجح"، هز "محمود الخليلي" قدميه وتأرجح المشروب في كأسه نافيًا تلك العبارة ومؤكدًا بشكل مباغت أنه "لا يعتقد ذلك، وأنه لا يفكر في الزواج حاليًا".

هز "چون" رأسه ولم يقُل شيئًا، فلم يحاول "محمود الخليلي" إظهار أي قدر من اللطف بل حاول إنهاء المقابلة بأسرع ما يمكن، كان حريصًا على إيضاح أركان الزواج الصوري المزمع بطريقة عملية ومحددة، صمت قليلًا ثم التفت إلى "نجوى" بحدَّة متسائلًا:

– ماذا تفعلين هنا بالضبط؟ ما الذي تحتاجينه بالضبط؟، ثم خبط بكفِّه على الطاولة وقال مجيبًا:

– ورق؟ لا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك، بوسعي توفير الورق إذا كنت تحتاجينه.

كان لفظ "أكثر من ذلك" جارحًا لكنها ابتسمت، كانت مستعدة آنذاك لما هو أكثر من ذلك، مستعدة للبيت والزوج والاحتمالات الممكنة للحياة، خططت طويلًا كيف ستحكي له قصة قيام وانهيار سلالة جدتها المنحدرة من الشركس، وكيف كان أبوها يلعن أيامهم وخِلْفتهم وسُلالتهم في كل مناسبة ممكنة وأنها وُلدت هكذا باختصار وربما نكاية في الشركس، جاءت نسخة مُصغَّرة من وجه أبيها ومن جسد العمة "هانم"، وتشكلت هيئتها في إبداع رباني لم تعرف كيف تتفادى عواقبه، فقد خلقها الله بدينة وسمراء وقصيرة، وتتركز بدانتها حول الوَرِكين والمؤخَّرة بينما يبقى الصدر والأكتاف

أكثر لفتًا للانتباه، كانت تود أن تشرح له كيف أن ملامحها المأساوية التي تشكلت على مهل لا تعكس حقيقتها، وربما فكرت في سرد حكاية "زهرة" لتلوِّح له بأخلاقها العالية، وشرح مشاعرها تجاه "ياسمين" وعلاقتها المعقدة بـ "هانا ميلر" لكنه لم يعطها وقتًا لذلك.

كان "چون" يتململ على الطاولة يحاول أن يركز على فكرة الزواج، ويتحدث عن طيبة "نجوى" وأخلاقها وروحها الذكية الساخرة، لكن "محمود الخليلي" اختصارًا للوقت قطع تلك الثرثرة وقال بلكنة أهل "آشفيلد" الممطوطة:

- ثلاثة آلاف مقدمًا، ومائتان كل شهر لمدة عامين.

كان ذلك أحد اللقاءات النادرة التي تبادلت فيها "نجوى" بعض الجمل مع ذلك الرجل الذي يُدعى "محمود الخليلي"، ذلك الرجل الذي تكفل بإتمام الأوراق وتكفلت بالدفع له، بعد ذلك عثرت على إعلان للتوظيف في وكالة أهلية لإغاثة المنكوبين، للعمل كموظفة تساعد الذين يحتاجون عونًا لغويًّا في تعبئة طلبات محدودي الدخل؛ أملًا في توفيق بعض حالات المهاجرين، أو تأهيل بعض المتعطِّلين لفرص العمل، بدت لها تلك الوظيفة ساعتها فرصة، فالجمعية ذات موازنة محدودة؛ وبالتالي فالواجبات الإدارية متواضعة، وكل متطلبات العمل تنحصر في الاعتذار لضيق الميزانية أو ملء بعض قوائم الترقُّب للمؤهلين لتلك المساعدات.

قال "چون" وهو يودعها في مطار "آشفيلد" الصغير: "أين تقع تلك الشمس المشرقة.. هل تعرفين؟"، هزَّت رأسها نافية، قال: إنه لا يعرف

أيضًا لكنها على ما يبدو بلدة حدودية في الجنوب الغربي وأنها تطلُّ بشكل ما على المحيط، قال إنَّها ستكون أكثر دفئًا، صمت قليلًا ثم أكمل: "قلت لك إن آشفيلد لا تناسبك على أية حال، هل صدقتني الآن؟ ألم أقُلْ لك إنها مدينة كئيبة، مجرد كومة من الثلوج وبعض البارات الحقيرة"، هزت رأسها، فضمها إلى صدره وكانت رائحة الشراب ما زالت تفوح من فمه، قال: "ربما نبيع البيت ونلحق بك في تلك الشمس المشرقة، زوجتي تريد بيتًا متنقلًا، ربما نشتري بيتًا متنقلًا ونذهب إلى الساحل الغربي، ربما نذهب إلى الشاطئ أو الجبال، لا أعرف، لكننا سنراك إذا كنت لا تزالين في تلك البلاد"، صمت قليلًا ثم أكمل: "قلت لك إن تلك المدينة تقتلني، إنها باردة وحقيرة"، قال "چون" ذلك فعرفت أنه مخمور تمامًا، كان يردد تلك الجملة كثيرًا إذا كان مخمورًا، تأكدت من ذلك بعد أن لوَّح لها قائلًا: "اذهبي أيتها الفتاة الجميلة"، كان أول رجل يقول لها ذلك، لا بُدَّ أنه كان مخمورًا تمامًا ليستطيع قول تلك الجملة، كانت تعرف أنه يقولها ليطيِّب خاطرها فابتسمت بطمأنينة، ثم حملت حقيبتها ولوَّحت له ومضت إلى مصيرها الذي صار مرتبطًا بتلك الأرض التي يسمونها "الشمس المشرقة".

(5)

الرُّبْع الخالي (الكُوارتَر)

خاضت "الشمس المشرقة" - من أطرافها المطلة على الخليج حتى حدودها المتاخمة للجبال - تاريخًا طويلًا من التطور والتمدد، لكن أقدم وأعرق أحيائها ظل على حاله، يطلقون عليه "الكوارتر" لأنه الربع الوحيد الذي يشرف مباشرة على الساحل أو الخليج المائي، يشكل "الكوارتر" ما يمكن تعريفه بـ "وسط المدينة"، إذا كنت غريبًا يمكنك الاهتداء إليه عبر الروائح البحرية النفاذة الممتزجة بمُخلَّفات كلاب البحر.

يتكـون "الكوارتـر" مـن بنايات متعـددة الطوابـق، يسـكن البنايات القديمة بعض موظفي الحي وسـائقي الشاحنات والقطارات، الموظفين المؤقتـين والعابريـن، يعتقـد البعـض أن تلـك البنايات كانـت تعود إلى بعـض المهاجرين الأسـيويين الذين اسـتوطنوا هذا الشـاطئ في مراحل مبكـرة، وكان يُطلـق عليه آنـذاك "الحـي الصيني" ثم انطمسـت معالمه

الأسيوية وتمددت أعراقه ليصبح "رُبعًا" متعدد المعالم. لم يكن للكوارتر في الأساس هُويَّة معمارية باستثناء قِدَم بناياته التي تجاورت صفًّا واحدًا في مواجهة الفضاء المفتوح، صمدت تلك البنايات في مواجهة الرطوبة والتآكل لسنوات طويلة، تعبر الأيام على هذا "الكوارتر" وتجعله في حالة ترقُّب دائم، ترقب للفصول ودوريات الشرطة الباحثة عن المتسللين عبر الخليج، ودوريات حرس الحدود التي تمشط البحر بالزوارق، على أيَّة حال كان "الكوارتر" هو الرصيف الشاطئ الذي سمحت به الطبيعة الجرفية الصخرية لهذا الجزء من الساحل، ثم أصبح بمرور الوقت هو البقعة الوحيدة المضيئة الحافلة بالحياة والصَّخَب، تلك التي يتوافد عليها الخلق للتسكُّع والتجوال الليلي.

يحتل قلبَ "الكوارتر" موتيل رديء للعابرين يُسمى 24، يقدم هذا الموتيل خدماته طوال الأربع والعشرين ساعة، تتعدد خدماته بين الدعارة، والتجارة وتبادل السلع، والإيواء المؤقت للعابرين.

كان الموتيل -ولا يزال- محطة من محطات المتسللين الجدد، يجلس رواده بين الطرقات وبين الطوابق وفي الممرات بين الغرف، يدخنون ويتعارفون ويشربون ويتجاذبون الحديث وتعلو ضحكاتهم ثم يتبادلون المواد والأقراص المُخدِّرة، وتنتهي بعض تلك الجلسات باشتباكات طفيفة وبعض النزاعات التي تؤدي إلى حوادث غير متوقعة تنتهي بإطلاق النار، وعلى سبيل التحسب تقوم عربات الشرطة نهارًا بالدوران حول المكان كل عدة ساعات لمراقبة المترددين والحيلولة من دون تطور النزاعات إلى جرائم محتملة، لكن تلك

الدوريات لا تستطيع أن تفعل شيئًا أمام القدَر والليالي الحالكة التي تحيك خيوطها حول الضحايا.

شهد موتيل 24 عدة اغتيالات وتصفيات جسدية كبيرة، كانت تفضي إلى إغلاقه لبضعة أيام ثم يعود بعد ذلك ليتلألأ بنجمته الواحدة في سماء الربع الخالي.

يحتل الموتيل ناصية الكوارتر وتقف بجانبه ماكينة الصرف التي قُتل أمامها "أوسكار"، ومحطة البنزين والرصيف الذي دأب "أحمد الوكيل" على الجلوس أمامه مع بعض المتسولين وراغبي العمل اليومي.

بُني ذلك الموتيل على أنقاض مركز من مراكز التسوق الطموح التي تم إنشاؤها لتخدم سكان الشمس المشرقة، كان يُطلق عليه "ڤيستا مول"، أفلس المركز التجاري بسرعة لم يتصورها مستثمروه، فعقب افتتاحه صار المركز التجاري قبلة لكل سكان "الشمس المشرقة" الذين انخرطوا في عمليات شراء جنونية لتلك البضائع ذات الماركات أو العلامات التجارية المشتهاة، وتحولت غرف القياس إلى حفلات شرائية تتجمع فيها صغيرات "الشمس المشرقة" لقياس ما اشتهين على سبيل التجربة، يتوافدن في مجموعات مبهجة وينخرطن في قياس الملابس وتبادل الضحكات والتعليقات، ثم ينتهي فاصل الضحك بترك كل البضاعة على أرضية غرف القياس والانسحاب بكثير من التوتر والبهجة المصحوبة بالرضى عن الذات.

عقب افتتاح المركز التجاري شهدت "الشمس المشرقة" أزهى عصورها في المرح ومحبة الحياة، وتحول شاطئ "الكوارتر" إلى مهرجان للأزياء المتنافرة،

لكن تلك البهجة لم تعرف طريقها إلى إدارة المركز؛ لأن عمليات البيع والشراء لم تكن مبشرة على الإطلاق، فقد دأب المشترون على إجراء عمليات استرجاع تماثل وتعادل عمليات الشراء، لأن الزبائن المفترضين كانوا يجولون في "الشمس المشرقة" بملابسهم الجديدة لعدة أيام، تاركين أسعار البيع (التِّكِت) في بطاقاتها تتدلى من أطراف الملابس، حريصين فقط على الحفاظ على إيصالات الشراء في جيوبهم استعدادًا لعملية الاسترجاع التي ستتم بعد عدة أيام، بعدها يتبادل المشتري مع البائعات ذلك الحوار القصير الذي تسأل فيه البائعة المتدربة بأدب: "هل يمكن أن أعرف سبب الاسترجاع؟"، فيرد المشتري بأقصر الطرق إيضاحًا: "البضاعة لم تعجبني".

يرسم مواطن "الشمس المشرقة" بعد ذلك على وجهه ابتسامة المنتصر والمتحدي، ويسترد النقود ثم يعود إلى ممارسة التبضُّع بالطريقة نفسها التي تسمح للجميع بالتمتع بتلك البضائع لعدة أيام ثم إرجاعها.

لم تخلُ تلك العملية الشرائية قصيرة المدى من مخاطرة لكلا الجانبين: البائع والمشتري، فالمشتري بعد الاسترجاع قد لا يحصل على نقوده في الحال، عدًّا ونقدًا، وقد يُضطر في معظم الأحيان إلى انتظار عودة تلك النقود إلى بطاقته بعد عدة أيام، وقد تتعرض بعض المشتريات خلال فترة التجريب أيضًا إلى مصائر فاجعة وخارجة عن التوقع، يحدث مثلًا تلف غير مقصود لبعض قطع الملابس باهظة الثمن، أو بقع لونية لا يمكن مداراتها في القمصان ناصعة البياض، تؤدي تلك السيناريوهات إلى حوار مختلف في عملية الاسترداد، قد يتخذ شكلًا أكثر عمقًا وينتهي بمشادات لإثبات

طبيعة التلف وأسبابه ومَن يتحمل نتائجه؟ ولما كان العميل دائمًا على حق فقد كان شعب "الشمس المشرقة" يدافع عن حقوقه بصلابة مثيرة للتأمل، واجه أيضًا شعب "الشمس المشرقة" في علاقته بالمتجر بعض المشكلات المتعلقة بشراء الملابس الداخلية والأحذية والحقائب، والتي حسب سياسة المتجر لا تُردُّ ولا تُستبدل؛ لذلك تعرضت تلك الأقسام لأعمال تخريبية منظمة، لم تستطع الكاميرات تحديد مرتكبيها؛ إذ كانت الوفود الشرائية تدخل بأعداد كبيرة وبمهارات فائقة وتعمل بحذر في دَسِّ قطع الملابس الداخلية بسرعة في أماكن يصعب تفتيشها، لكن رغم تلك المنغِّصات فقد عاشت "الشمس المشرقة" أيامًا مفعمة بالحيوية والنشاط التجاري طوال تلك الفترة، انتهت للأسف بعد عدة أشهر بما يشبه الإغلاق المؤقت للمركز التجاري، حدث ذلك بعد أن اكتشفت الإدارة أن حصيلة المبيعات صفرية، وأن ما تم إهداره من بضاعة يفوق المباع، وانتشرت أخبار متضاربة عن تصفية المركز التجاري، وأثار ذلك حفيظة شعب "الشمس المشرقة" الذي كان يعتبر المركز وجهة من وجهاته الحضارية، لكن الإغلاق التام لم يحدث إلا بعد إطلاق الرصاص على "أوسكار" الشابِّ ذي الأصول الأفريقية، الذي تم إطلاق النار عليه أمام ماكينة الصرف التي تجاور المتجر، فبعد اندلاع الاحتجاجات العِرْقيَّة التي استمرت عدة أيام وتم فيها تبادل إطلاق النار وقذائف الدخان ونتيجة لذلك، تم إغلاق مداخل "الكوارتر" من قِبل المتظاهرين لمنع عربات الشرطة من الدخول إلى الساحة.

في تلك الليلة التاريخية التي ما زال سكان الحي يتذكرون أمجادها، حيثُ

بلغ فيها التلاحم البشري ذروته، وتفجر فيها الغضب ودمر واجهات المتجر الزجاجية التي تهشمت تمامًا، وأعقب ذلك التهشُّم خروج شعب "الشمس المشرقة" ركضًا إلى ساحة الاحتجاج لقنص ما يمكن قنصه من تلك الواجهات.

يشرف المركز التجاري الذي تحول إلى موتيل 24 جانبيًّا على الخليج عبر شارع الرايات الزُّرْق، الشارع الساحلي الذي يفصل الخليج عن "الكوارتر"، بقي ذلك الشارع كما كان منذ عهود طويلة كورنيش مظلمًا يشرف على الخليج، تحتلُّ ناصيتَه بيوتٌ صغيرة ملونة متراصَّة صفًّا واحدًا بأبواب زرقاء مجعَّدة من الرطوبة ورائحة الملح، قيل إن بائعات الهوى كُنَّ يقفن على تلك الأبواب شبه عاريات وهن يتفاوضن على أجورهن مع البحَّارة العابرين، كان ذلك منذ زمن بعيد، قبل إغلاق الخليج وقطع الطريق إلى الميناء وغياب البحارة، مع الوقت تحولت تلك البيوت إلى دكاكين صغيرة للبقالة ومَحالّ لبيع الأطعمة الرخيصة والسريعة، بعض المطاعم الأفريقية والأسيوية والمكسيكية، وإلى جانبها تم افتتاح بعض صالونات التجميل وقص الشعر التي يقصدها شعب "الشمس المشرقة" على فترات متباعدة، تجاور ذلك أيضًا سلسلة من الحوانيت القميئة للتدليك أو المساج يعتقد البعض أنها أوكارٌ محتملةٌ للدعارة، تقف على أبوابها بعض الفاتنات بعيونهن النَّهِمَة للترحيب بالزبائن، ثم يتنقلن بين البارات الصغيرة الملاصقة لعرض خدماتهن، تمدد البارات طاولاتها في شارع الرايات الزرق ويتبادل روادها زجاجات البيرة والمقرمشات البحرية، بينما يمر من حينٍ إلى آخر أحد الموسيقيين الجائلين ببؤس بين الطاولات ويعزف للمارَّة.

الشارع الذي ما زال يجذب عمال الميناء القريب وبائعات الهوى ويمتلئ بقارئات كروت التارو العجائز بملابسهن الغرائبية وبلوراتهن السحرية، يجذب الشارع أيضًا مُروِّجي الماريوانا الصغار الذين يدخنون في الأزقَّة أمام البارات، ويناولون بضاعتهم للطالبين ببهجة المغامرين.

يصبح شارع الرايات الزرق رومانتيكيًّا إذا تغاضيت عن روائح الماء العَطِن وتشاغلت بالنظر إلى القمر وهو يعبر التلال ويسقط في الخليج وانطلقت أصوات كلاب البحر وهي تتطارح الغرام، يصبح الشارع مخيفًا في بعض الليالي الأخرى حين يشرب العمال الملونون الذين يشكلون غالبية شعب "الشمس المشرقة" ويتصارعون مع بعضهم البعض في شجاراتٍ تنتهي حين يدوِّي الرصاص الطائش بلا مناسبة، تضطر العصابات المحلية إلى التدخل بحكمة لفَضِّ تلك النزاعات الطارئة، يمكن تمييز أعضاء تلك العصابات عن بعضها البعض من خلال الإشارات المطبوعة على الملابس مثل نقوش الجماجم والهياكل العظمية، وأحيانًا من طريقة لف العصابات السوداء على الرأس، يمكن تمييزهم أيضًا من خلال وشُوم العقارب وأنياب الكوبرا التي يلوحون بها فوق العضلات البارزة، تسير تلك المجموعات الشبابية وتجول ليلًا في شارع الرايات الزرق، تفرض نفوذها على الشارع، فيتنحى العشاق جانبًا، وتتفرغ تلك الجماعات لبعض المهام مثل فض المنازعات، وتصفية الخلافات بين الغرباء، واستعراض القوى، ثم تدبير تهريب العمال والمهاجرين المتسللين عبر الطرق الجبلية إلى حقول العنب، لكن ظهور تلك المجموعات لم يكن في معظم الأحوال داميًا، كان ظهورًا صبيانيًّا واستعراضيًّا لفرض السلطة الرمزية على الشمس وسكانها؛ لذلك

لم تؤثر تلك الاستعراضات في شعبية هذا الشارع وحيويته، بل جعلته قِبلة للمتعطلين والمتسللين، الذين يتسكعون في أروقته، ثم ينتهي بهم المطاف إلى مقهى الدخان الأزرق الذي يجاور الحانات.

من ساحل "الكوارتر" يستطيع سكان "الشمس المشرقة" الاعتقاد أن لهم نافذة بحرية يطلون منها على العالم، فمن حافة الخليج تصبح الأرض منبسطة ولها امتداد وأفق وليست حفرة في قلب مستنقع صخري، وأن المحيط يتصل في نقطةٍ ما بهذا الخليج، وأن أسراب أسماك السالمون وقوارب البحَّارة والجُزُر الصغيرة واللاجون واليخوت والمنتجعات الشاطئيَّة تمثل امتدادًا جغرافيًّا لهذا الساحل، وأنها تتجاور شمالًا على بعد أميال فقط من هذا الماء الراكد في الخليج.

في المساء يراقب الجائلون على رصيف الكوارتر كيف تسير الحياة وتعيد دوراتها أمامهم بشكل معجز ومتكرر، تلك الحياة التي يمكن اختصارها بوصفها محاولة انتحارية للتسلل إلى تلك الأرض ثم محاولة انتحارية موازية للهرب في تلك الجبال، يحاول العابرون تجاهل تلك المشاعر المختلطة وتجاهل حركة الزوارق التابعة لمكتب الجمارك وحماية الحدود وهي تجول متهادية أمامهم.

فبعد ازدياد محاولات التسلل بالمراكب، وبعد أن أصبح البحر مؤخرًا أكثر جاذبيةً للمهربين، انتشرت تلك الدوريات الشاطئية المزودة بالمروحيات ومعدات المراقبة قُبالة الشواطئ، مستعدة للانقضاض على تلك القوارب الخشبية ذات المحرك الواحد التي تطفو على مسافات شاسعة في محاولات

يائسة للتسلل، تلك المحاولات التي تغطيها الأخبار المحلية بشكل يومي والتي تأتي دائمًا مقتضبة وغائمة وتقريرية تبدأ عادة بالفعل "تم"، مثل: تم العثور على سفينة مهجورة على بُعد 85 ميلًا شمال شاطئ نوث بوينت، أو تم العثور على قارب به 24 شخصًا على بُعد 43 ميلًا قُبالة الإمبريال بيتش، أو تم اعتقال 23 شخصًا بينما كانوا يستعدون للعبور على شاطئ "كارلسباد"، وقد قام سائقو القوارب بالتخلص من أجهزة الراديو الخاصة بهم في الماء قبل أن تصل إليهم قوات حرس الحدود، تم القبض على عدد من مراكب الصيد على الحدود بشاطئ "تاجونا" بتهمة التهريب، تم العثور على أحد القوارب المحطمة على رصيف الـ (بلاك بيتش) وإلى جانبه عُثر على عدد من سُترات النجاة المستعملة ولم يتم بعدُ القبض على المتسللين.

لم تكن "الشمس المشرقة" بالطبع بعيدة طوال تاريخها من محاولات التسلل البرِّي أو البَحْريّ، بل إن معظم سكانها ينتمون فعليًّا إلى تاريخ طويل من الهجرة والتنقُّل والتسلُّل غير الشرعي، لكن بعضهم نجح في توفيق أوضاعه، وعاش نصفهم الآخر على ما تجلبه تجارة البشر لتلك الأرض من منافع، لكنهم رغم ذلك كانوا جميعًا حريصين على إظهار اللامبالاة بتلك المطاردات التي يدعون أنها لا تخصهم، يراقبونها بحياد ومن بعيد، من فوق الجرف الصخري الذي يشرف مباشرة على المحيط، أو من ساحل الخليج، وأحيانًا من أرصفة الكوارتر، يتأملون كيف تظهر قوارب "البنجاس" المتهالكة، وكيف تختفي بسرعة، وكيف يسلط حرس الحدود عليها تلك الأضواء الكاشفة بعد إطلاق صفَّارات الإنذار، يتابعون كيف تختفي تلك القوارب وتغوص في الظلام، وكيف تطفو غيرها من

جديد وتعود أدراجها من جديد في دوراتٍ لا منتهية من المطاردات، عبر ساحلٍ يمتد من قرى الصيد الفقيرة التي تقع على الحدود البحرية حتى أقصى نقطة في هذا المحيط الهادئ..

يحاول شعب "الشمس المشرقة" في تجواله على الشاطئ أن يتفادى التفكير في مصائر البشر والمراكب وأخبار تلك المطاردات اليومية، بالانشغال بمتابعة قطعان كلاب البحر التي تحتلُّ الساحل الرملي الشحيح تحت أقدام العابرين، يراقبونها وهي تتبادل الغَزَل ويتسابق ذكورها في الفوز بأنثى صالحة للنِّكَاح، بعد تلك الغزوات الإخصابية يتمطَّى الذكور بكسل ثم تتجمع في قطعان تُبحر باتجاهٍ لا يعلمه أحد، يهاجر الذكور وتترك خلفها ضحاياها من الإناث الحوامل على حافة الخليج، تتمدد الإناث باسترخاء بانتظار مواسم المخاض.

يقسم سكان "الكوارتر" مواسم السنة طبقًا للأصوات التي تصدُر من ذلك الخليج، موسم التلاقُح والإخصاب وفيه يتلوث الشاطئ بالدم الأحمر القاني من جرَّاء تلك الصراعات الدامية على الإناث، اللاتي تتمرغ على رمال الشاطئ وتعوي بذلك الأنين الذي لا يمكن الوقوف على طبيعته سواء أكان هربًا أم انتشاءً، تركض الإناث في كل اتجاه وتطاردها الذكور ويتسلى العابرون بتراچيديا الصراع على الإناث الأكثر جمالًا، وبعد أن تنتهي تلك المعارك الدامية ينام الجرحى والأصحَّاء على أطراف الشاطئ، ويفيض الخليج بتلك الرائحة النفاذة التي تتركها الأجساد المنهكة على الرمال.

موسم المخاض لا يبدو أقل قسوة، يتلوث الماء باللون الدموي نفسه،

وتعوي الإناث في أداء جماعي بلا توقف انتظارًا لتلك اللحظة التي يسيل فيها دم المخاض وتلعق الأمهات جِرَاءَها بمحبة، ثم تقذف المياه كل ليلة ببعض الأجنَّة الضعيفة التي كانت تعوي أيضًا بحُرْقة قبل أن تفقد الحياة، في النهاية تتراصُّ الجراء الناجية وتلعق بطون الأمهات التي تتمطى على ظهورها بتكاسل بينما تتدلى أثداؤها لتبدأ مراحل الرضاعة، تنام الجراء بلطف وتركض حول الأمهات التي تتمدد باستسلام.

في مواسم الفطام يتصاعد العواء من جديد، تعوي الكلاب الصغيرة بعد حملات مضنية للفطام القسري، تقوم فيها الأمهات بطرد صغارها التي تجاوزت مراحل الرضاعة وذلك بدفعها عنوةً في ماء الخليج، تقذف الأمهات صغارها بعيدًا عميقًا في مجرى الماء لتواجه أقدارها، ثم تعود بتثاقل لتتمدد على الشاطئ هادئاتٍ تمامًا، غير مكترثاتٍ بذلك الضجيج الذي تُحدثه الجراء التي تخوض حربها الأولى في البحث عن الطعام، إذا كنت ما زلت جالسًا حتى فصل الخريف فسترى جثث بعض الأمهات التي نفقت على الشاطئ، وسترى قُطعانًا ضخمة من الجراء التي كبرت واحتلت الشاطئ من جديد، على الرمال ذاتها ستبدأ المطاردات والعواء في معارك جديدة للحصول على أنثى للتلاقح، ربما تشاهد أيضًا قطعان الذكور التي عادت من رحلتها لتموت على شاطئ الخليج نفسه، الذي وُلِدت عليه.

صورة الفنان في شبابه

في بنايةٍ من بنايات الكوارتر كان "سليم النجار" يعمل حارسًا لأحد العقارات الذي يحتل أحد دكاكينه صالون "بحيرة البجع" للتدليك والمساج، يقف "سليم النجار" أمام الدكان عاشقًا وزبونًا وحارسًا، يعرف العاملات ويعرفنه بشكلٍ عميق.

يعتقد "سليم" أن كل فنون الشَّبَق مشرقية وذلك لأسباب مناخية في الأساس، وأن البلاد الحارة مثل "الشمس المشرقة" هي موطن أيروس ذاته، وأن ذلك الفضاء الجغرافي يلائم طبيعته الشخصية لعدة أسباب، فهو فضاء دافئ وصحراوي، وشاطئي وحدودي ومليء بالغرباء والعابرين ودكاكين المساج الرخيصة، وأنه في الحقيقة لا يحتاج أكثر من ذلك ليشعر بالألفة ويعتقد أنه في المكان الصحيح في هذا العالم.

يعتقد أيضًا أنه المهاجر المثالي بامتياز، فقد جاء صغيرًا وحالمًا ومسلحًا بكل المتخيلات المشرقية عن الحب والتلاقُح والإخصاب البشري، وتوافق

سريعًا مع عالمه الجديد واضعًا أحلام المهاجرين الرومانتيكية جانبًا والتعلق بما جادت به الحياة من متع صغيرة وآثمة.

يعتقد "سليم النجار" أنه وُلِد فنانًا، صحيح أنه لم يتعرف بعد بشكل كامل إلى الشكل الذي سوف تتجلى فيه موهبته، لكنه فنان بشكل عميق وُلد ليحقق أسطورته الفنية المخبوءة، وظل مخلصًا لهذا الاعتقاد، وكانت موهبته تتجلى في قدرته على التقمُّص ونسج روايات عن أحداث حياته، بوصفها محطات مهمة تؤرخ لما يمكن اعتباره التاريخ الرسمي لما يُسمَّى المنفى الاختياري، لا يمكن بالطبع تصديق كل رواياته المتناقضة دفعة واحدة، إلا إذا أردت أن تتعاطف معه فيجب أن تتغافل عن التاريخ والجغرافيا وتصدق أنه لاجئ أزلي ومناضل رومانسي، وثائر وأديب لم تُكتشف مواهبه.

حينما وفد إلى "الشمس المشرقة" كانت كلمة لاجئ لا تزال تحمل هذا الرنين العاطفي والثقل الأيديولوچي، ما زالت قادرة على خلق بعض التعاطف، إلى جانب هيئته المَهِيبة وملابسه التي انتقاها لتُحدث ذلك التأثير الفوضوي، بجانب أرقه الوجودي ورقته الشاعرية كان وما زال "سليم النجار" وسيمًا وطويلًا ومبهجًا بشعر أسود أدْكَن وبنية شرق أوسطية مَهِيبة، بملامح تختصر سمات الجمال بالمواصفات الشرقية للرجولة، وكان يعرف أنه وسيم ولذلك فقد عاش حياته متفهمًا ومستثمرًا لتلك الحظوة التي لم يُعطِه القدر سواها، في الحقيقة أعطاه القدَر قدرة على البهجة والوَلَه بالحياة وقبول الآخر؛ لذلك تسامحت ذائقته مع كل ألوان وأحجام الجسد

الأنثوي، كان يستطيع أن ينام مع أي امرأة حتى وإن كانت تلك المرأة هي "نعم الخباز"، تفضح طريقتها في النظر إليه بلوعة حقيقية أنه قد ذاقها كأنثى بشكلٍ ما، واستطاع أن يهبها تلك اللحظة التي تشعر فيها أنها جميلة، وكان ذلك كافيًا لأن تركض "نعم" ما تبقَّى من حياتها وراءه، وفاءً لتلك اللحظة التي تنتظر تكرارها بشغف، لا يعني ذلك أنه لم يكن له ذوق حسي في النساء، كان فقط عاشقًا كبيرًا ويتسع قلبه لكل من هبَّ ودبّ، مخلصًا للحظات التلاقُح ومتنازلًا عما يتبع تلك اللحظات من ارتباطات أو نتائج.

حين بدأت "نعم الخباز" في مطاردته كانت قد تعافت من أحزانها وقررت مواصلة الحياة وتحقيق أمنياتها لتصبح مُحبة ومحبوبة، وكان "سليم النجار" هو الرجل الوحيد الذي يصلح لمداواة سلسلة النكبات التي مرت بها.

كانت تسعى إلى ذلك بكل دأب وحرص وخبرة واتزان، فقد بدأت رحلتها في الركض خلفه بإثارة الشفقة، تجلس بجانبه على الخليج حيث يحب وتحكي له عن مغامراتها، وكان يضحك، تستطيع أن تجعله يقهقه، ثم بدأت في استدراجه لكتابة الخطابات للمُؤسَّسات الخيرية لمساعدتها في اقتناء تلك الشاحنة، كانت كتابة الخطابات إحدى مهاراته، يحب "سليم النجار" كتابة المخاطبات الرسمية، يستطيع أن يكتب العرائض الطويلة ويدحض بالحجج كل شاردة وواردة، يعرف "سليم النجار" تلك التعبيرات الرصينة ويشعر بالسعادة وهو يفعل ذلك، كان يحب أن يقوم بتلك الخدمات طوال الوقت، يُدبِّج الخطابات الرصينة للمستأجرين، ويحرص على استخدام تلك التعبيرات القانونية الدقيقة، كانت رغبته في كتابة المناشدات والخطابات

والشكاوى لا محدودة، يشعر بانتصاراته الصغيرة، وينتشي بها، أدى ذلك في النهاية إلى نجاحه فيما سعت إليه "نعم" فبعد مدة طويلة من ملاحقة بعض المؤسسات الخيرية، والخدمات الاجتماعية بتلك الرسائل التي لا تنقطع، نجحت "نعم" في تقديم ما يثبت إعاقتها لجهةٍ ما، وحصلت على بعض الإعانات الخيرية لأسبابٍ صحيةٍ ظهرت فجأة منها تلك الخشونة التي أصابت فقرات ظهرها، والتي أدت إلى عدم قدرتها على ثني ذراعها اليُمنى، إلى جانب ظهور أعراض غامضة لعدة أمراض صارت تهدد حياتها كامرأة وحيدة، في النهاية حصلت "نعم" بفضل تلك المخاطبات على معونة نقدية للمعاقين وأصحاب الأمراض المستعصية، ثم استطاعت بفضلها اقتناء حافلة صغيرة بيضاء، زيَّنها "سليم النجار" بملصق دعائي لثلاث فتيات صغيرات يبتسمن وهن يحملن أدوات التنظيف في ألوان وردية مبهجة، وكتب تحت الملصق: "البرنسيسة الصغيرة للتنظيف العميق"، بعدها صارت "نعم الخباز" صاحبة عمل ومتخصصة في التنظيف العميق، وهو مرحلة من التنظيف الشاق المرتبط بالكوارث الكونية، أو الحفلات الصاخبة، التي قد تنتهي بتحطم بعض الأثاث أو بإطلاق الرصاص.

تخصصت "نعم" في البيوت الأكثر احتياجا إلى جهود التنظيف العميق، تلك البيوت الفارهة أعلى مدرجات الجبل، التي تجتاحها مواسم الحرائق وتتعرض لبعض حوادث إطلاق النار المنزلي، بيوت هؤلاء الذين يحتاجون إلى من ينظف خلفهم، فالفقراء عادةً ما ينظفون بأيديهم آثار كوارثهم الصغيرة والكبيرة.

زودت "نعم" حافلة "البرنسيسة الصغيرة" بأدوات التنظيف والمناشف وأدوات شفط الماء وماكينات تنظيف السجاد وقناني المنظفات القوية التي فاحت في السيارة، وحرصت على إعطاء عملها صبغةً أكثر احترافية، فوحَّدت زِيّ العاملات، ليصبح أثوابًا قصيرة بلون أدْكَن فوقها مرايل مطبخية مُطرَّزة باسم البرنسيسة الصغيرة، كان ذلك المظهر يسهل دخولهن إلى بيوت "الجنة الأبديَّة" كعاملات نظافة متخصصات ومحترفات، بينما ظلت "نعم" على هيئتها كرَبَّة للعمل بسروالها الضيق وبلوزتها المطبوعة بغرائب الكائنات، تقود الشاحنة بين الجبال العالية وتترك المقعد يهتز بثلاث من العاملات اللاتي يتبدلن حسب الحاجة.

فريق العمل في قافلة "البرنسيسة الصغيرة" ليس كبيرًا، عادة ما يتكون من ثلاث عاملات صغيرات، تختارهن "نعم الخباز" بعناية كل صباح، ثلاث عاملات يتغيرن حسب طبيعة العمل والقدرة الجسدية المطلوبة لإنجاز المهمة التي تتراوح بين غسل الجدران، إزالة آثار الدمار، تكديس مُخلَّفات البيت المدمر في حاوية نُفايات ضخمة، تنظيف المراحيض بالمواد الكيميائية المركزة، إزالة السجَّاد الذي يكسو الأرضيات، التنظيف العميق كان يقتضي إخلاء البيت تقريبًا من كل آثار الحياة، إخلاء المعلبات والقناني من دواليب المطبخ، ولُعب الأطفال من مخازن الذكريات، وقطع الثياب من المجففات المنسية في غرف الغسيل، تعرية البيت من كل شيء، فقط تُبْقي البيت فارغًا من كل مخلفاته، بعدها تترك "نعم الخباز" البيوت الخالية خلفها للمقاول الذي يتسلم البيت منها ليعيد ترميمه.

توقفت "نعم" عن المشاركة في عمليات التنظيف العميق، واكتفت بالجلوس لأن فقرات ظهرها صارت تؤلمها بشكل منتظم، لكنها لم تستطع قط التوقف عن القيام بحركاتها الانقضاضية على الأشياء الصغيرة التي تلفت انتباهها، مثل بعض التذكارات الملقاة بإهمال، مساحيق العناية بالبشرة، الحقائب وقطَع الملابس المتناثرة بين الأنقاض، تلك النُّفايات التي تعيد تدويرها.

في المساء، كل مساء، صارت "نعم الخباز" تنهي يومها بالعبور على بيت "سليم النجار"، وبعد ذلك تصحبه لتناول وجبته على شاطئ الكوارتر، على الخليج، حيث تتناثر تلك المقاعد الحجرية التي يجلس عليها الآخرون، محبون صغار يتبادلون القُبَل، عجائز يتصفحون النهار الهارب في الأفق، أصحاب عربات الفلافل والهوت دوج وهم يلملمون بقايا اليوم من فوق الطاولات.

في المساء يستيقظ "سليم النجار" على خبطات يدها وهي توقظه قائلة إن النهار خلص، يفتح عينيه بأرقِ كاتبٍ قضى ليله محاولًا اقتناص لحظات الكتابة، تدخل حاملة بعض غنائمها له، بعض الصور والأنتيكات الصغيرة، عددًا من الشراشف الناعمة، بعض علب الصابون والمنظفات.

تعرف "نعم الخباز" دورها في حياته، تتفنَّن في إظهار حرصها على رعايته، ويتفنن في إظهار امتنانه لتلك الرعاية وحاجته إليها، تتركه يستحم بينما تقوم هي بمهام التنظيف العميق لحشرة الفراش التي تؤرقه، نقل مخلفات الشقق إلى صناديق القمامة، جر تلك الصناديق إلى الحارة الضيقة خلف

البناية، حيث يتسلمها عمال النظافة في اليوم التالي، مسح مداخل البناية ومخارجها، تخرج وتدخل من غرفته حريصة على إتمام كل ما يتصل بعمله كحارس، وحين تنتهي من تلك المهام يكون مستعدًّا لما تنتظره كل ليلة، التسكُّع على أرصفة الكوارتر والجلوس على شاطئ الخليج حيث يخرج الجميع ويجولون، محاولين التغافل عن تلك الروائح الثقيلة التي تقذفها قطعان كلاب البحر الناعسة على الشاطئ، تجلس "نعم" بجانبه على تلك المقاعد الحجرية على رصيف البحر، تحاول خلق هذا الاحتياج الدائم إلى وجوده، طالبة عونه في قراءة بعض الرسائل، أو كتابة بعض المناشدات أو طلب المساعدات التي تطمح في الحصول عليها، يتبادلان تلك المصالح الصغيرة والأحاديث التي صارت مشتركة، بعد ذلك يتناول "سليم النجار" وجبته اليومية المكونة من حبات الأرز والدجاج بِشرَه، تشاركه "نعم" تلك اللحظات بحماسة امرأة تبحث عن دور لها في حياته، لكنها تفشل عادةً في مَدِّ جسور التواصل أبعد من ذلك؛ تشعر بعجزها في تبادل تلك الكلمات الجوفاء التي يلخص بها ما قرأه عادةً من مقالات سياسية أو ثقافية.

تستدعي "نعم الخباز" عادة صديقتها "نجوى" لتلحق بهما هناك على ضفة الخليج، تعتقد "نعم الخباز" أن وجود "نجوى" مفيدٌ بشكل من الأشكال، تحتاج إلى هذا الوجود حين تعجز عن خلق التواصل الذي يُرضي غرور "سليم النجار"، تدرك أنه بشكلٍ ما يحب الحديث عن نفسه، ويفرد قلوعه كمثقف عتيد في حضور تلك المرأة التي يصفها بالمثقفة، يصبح أكثر توقًا للتعبير عن أمجاده، سعيدًا بقدرته على إبهار الآخرين بثقافته.

كان "سليم النجار" وما زال مثقفًا، يقرأ كثيرًا ويتحدث كثيرًا ويستعرض آراءه بثقة، لم تكن "نجوى" مثقفة بما يكفي لمجاراته، أو المزايدة عليه في تلك الآراء التي كوَّنها على مهل، وبتأنٍّ، معظمها عن تلك البلاد التي جاءوا منها، كانت آراؤه جاهزة وحادة ومسندة بالأدلة التي لا تسمح للاختلاف معها، فهو مثلًا يعتبر العرب مجرد زائدة دودية ملتهبة، يؤكد نظريته بطرح الأسئلة التي تختبر ثقافتها: "هل قرأت الأرض الخراب؟ هل تعرفين مزرعة الحيوانات؟"، تهز رأسها نافية، ثم تقول له: "قرأت نفح الطيب والروض العاطر والمسالك والممالك لابن خرداذبة"، يضحك "سليم النجار" وتبتسم "نعم الخباز" التي تفهم بشكل غائم أنه يتحدث عن جهل "نجوى" بشكلٍ ما، تقاطعه متسائلة: "مين ابن خلزبة ده؟"، يضحك، وتضحك "نعم" منتصرة وراضية، تعتقد أن نبرته المتهكمة تؤكد يقينها المسبق بضعف إمكانات "نجوى" الثقافية مقارنةً بالرجل الذي يتربع على عرش مشتهياتها.

باختصار كان حضور "نجوى" يضفي على جلستها معه بعض الظلال السعيدة والمحبطة معًا، تكره "نعم" ذلك الوجود حين تفشل في المشاركة بفاعلية في حديثهما الطويل، تغضب حين ينظر "سليم النجار" إلى صديقتها بوصفها الكائن الوحيد القادر على فهمه في تلك البلاد، تشعر فجأة بتضاؤل هامش وجودها في ظل هذا التواصل، تتغير ملامحها وتعبر عن نوبات غيرتها المزمنة من وجودها، بأن تصبح أكثر نزقًا وعدوانية، ثم تُصاب فورًا بالتحسُّس، وتتهم رذاذ الماء وكلاب البحر والمنظفات بنوبات الهرش

التي تنتابها، تقرر فجأة إنهاء الجلسة، ثم تسحبها من يدها كصديقة حقيقية مخلصة لتعود بها من حيث جاءت.

كان "سليم النجار" مشغولًا طوال تلك اللقاءات بخلق أسطورته التي يحاول إقناع نفسه بها، لم تكن "نجوى" تمثل له شيئًا في الحقيقة، كانت مجرد مرآة يريد أن يرى في انعكاساتها صورة اللاجئ التاريخي المكونة من مجموعة متناقضة من الأساطير التي رواها وصدقها عن ذاته، فـ"سليم النجار" حسب رواياته المتضاربة وُلِد في مُخَيَّم في جنوب لبنان وشهد الحرب الأهلية أو توابعها وانفجرت عبوة ناسفة في وجه أمه التي ماتت متأثرة بجراحها، لم يغفر "سليم" لوالده زواجه السريع بعد موت الأم، بعدها رحل الأب مع زوجته الجديدة إلى دمشق وأرسل "سليم" إلى خاله الذي كان يعيش آنذاك في البرازيل، بعد موت الخال عاش متسللًا مترحلًا بلا هُويَّة حتى وصل إلى أرض "الشمس المشرقة".

في رواية أخرى يصبح "سليم" ابن "خليل النجار" مدرسَ اللغة العربية الذي عاش في أحد بلدان الخليج مع إخوته السبعة، الذين استوطنوا وما زالوا يعيشون ويديرون أعمالًا مربحة في تلك البلاد لكنهم لا يتذكرونه، وأنه وحده الخائب الذي ترك النِّفْط وآمن بالقضية واعتقد أن بلدًا لا يستطيع أن يحمل هُويَّته لا يصلح للعيش فيه أو الانتماء إليه، أحيانًا يصبح هذا الأب "خليل النجار" أستاذًا في جامعة الموصل، لكن في أحيان أخرى يتذكر "سليم" أنه قضى أجمل أيام طفولته في بيوت أخواله في الأردن، وإن ظلت أجمل أيام شبابه هي التي قضاها في جامعة حلب حيث تخرج في قسم

الأدب الإنجليزي، وأيامها تعرف إلى الكثير من الفاتنات الحلبيات، لكن كل ما يتذكره عن دمشق التي قضى فيها نصف عمره، هو المدينة القديمة التي يود أن ينثر فيها بعضًا من رماد جسده، لكن في رواية أخرى تلقَّى تعليمه في جامعة بغداد وفي أروقتها اكتسب تلك اللكنة التي جعلت إنجليزيته فخيمة وكلاسيكية وهناك تعرف إلى "علياء الدُّوري"، المرأة التي يعشق التراب الذي تباركه بكعب حذائها، لم يعبر على مصر لأسباب لا يتذكرها لكن جده تعلم في الأزهر وتم طرده أيضًا لأسباب سياسية قبل أن يستقر في مخيَّم "اليرموك" الذي عاشت فيه عائلته، كانت أسماء المخيمات فضلًا عن خرائط اللجوء تتغير حسب مزاجه الثوري، وكنت قد سمعت تلك المرويات المختلفة لسيرة الفنان في شبابه عدة مرات، ولما كان التوفيق بين تفاصيل تلك السيرة مهمة صعبة، فقد احتفظ في النهاية لحياته بذكرى عدة محطات لا شك أنه اجتازها، بيروت، بغداد، چنيف ثم تحطمت مراكبه على شواطئ "الشمس المشرقة".

كان هناك أيضًا قصتان يمكن التصديق بأنه عاشهما في الحقيقة أو أجاد تقمص أحداثهما على نحو فني بليغ ومقنع، قصة جده الذي تم قسرًا إخراجه من قريته التي تُسمى "الناعمة" بالجليل ذات صباح، وكان عليه أن يسير مثل غيره في صفوف طويلة صوب الشمال باتجاه ذلك المخيم قبل أن يصير مخيمًا، وللحظة وقف جده النجار الأزلي على طرف ذلك الجرف ونظر إلى الخلف ليلقي الوداع على بلاده، فضربه أحد الجنود بكعب بندقيته وقال له: "سِرْ ولا تلتفت إلى الوراء"، كان هذا الوراء هو مسقط رأسه، قرية "الناعمة" وكان الأمام هو جنوب لبنان أو مخيم "عين الحلوة"..

يسرد "سليم النجار" قصته بشكل مؤثر، وينجح في خلق هذا الانطباع العميق بالنفي القسري الذي يترك دلالاته الرمزية المحملة بالأسى، يستطيع شعب "الشمس المشرقة" بأطيافه كافةً أن يفهم دوافع هذا الحنين، وأن يتعاطف مع صورة الخروج من تلك الجنة التي تركها الجميع وراءهم طوعًا أو كرهًا، تبدو تلك الأرض التي أُجبرت لسبب ما على تركها خلفك دائمًا جميلة وبعيدة وعصيَّة على الاستعادة، تصبح زمنًا مقدسًا، أو حُلمًا رومانتيكيًّا لا يمكن تعويضه أو تجاوزه في ذاكرتك.

القصة الأخرى كانت عن التحاقه بإحدى المليشيات المسلحة أثناء الحرب الأهلية التي كانت وراء تغريبته، وكيف تم تكليفه بمهمة حمل بعض الجثث إلى ذويهم، كان عليه هو وسائق شاحنة حمل جثامين بعض القتلى الذين ينتمون إلى المليشيا، وإيصال الجثث إلى عائلاتها، في ذلك الوقت، كانت المدينة تنهار تحت القصف وتعطلت الطرق وانهارت البيوت وانقطعت الكهرباء؛ وأدى ذلك إلى فشل الفريق في الوصول إلى العناوين المذكورة للجثث، بعد إلحاح من السائق الذي لم يجد لمهمته معنى، قررا معًا إلقاء الجثث في إحدى المزابل القريبة من الثَّكَنة العسكرية، والعودة قبل أن ينفد ما تبقى من وقود العربة.

يرسم "سليم النجار" على ملامحه هيئة الجلَّاد والضحية، ويبتسم قائلًا إنه لم يعُد بعد تلك اللحظة يستطيع مسامحة ذاته، ولا مسامحة ذلك التاريخ الذي يدفع الإنسان أن يتخلى عن إنسانيته، تهز "نعم" رأسها مصدقةً على روايته، وتعتقد "نجوى" بشكل عام أن الجميع قد ألقى بالكثير من جثث

الموتى والأحياء من ذاكرته، ألقى بهم في محطةٍ ما في لحظةٍ ما، وأن كُلًّا منهم بشكلٍ أو آخر يحمل تلك الذنوب التي لا يستطيع أن يغفرها لنفسه، كان الشيء الوحيد الذي يخفف تلك الذنوب في تلك الأرض، هو إدراك الجميع العميق بالخيبة، وأنهم لم ينجوا أيضًا بشكلٍ ما، وأن "الشمس المشرقة" هي مزبلة مليئة بجثث الأحياء بشكلٍ من الأشكال، وأن المقبرة التي تقع تحت أقدام الشقيقات الثلاث عامرة بتلك الجثث التي لم تصل إلى عناوينها الحقيقية قط، وأن "حديقة الأرواح" في النهاية ليست حديقة، إنها مجرد حفرة قميئة لم تجملها تلك الأزهار البلاستيكية أو نباتات الصبَّار وأشجار المسكيت.

كان "سليم النجار" قادرًا بمروِيَّاته المترعة بالقسوة على خلق هذا الحس اليسوعي بحاجة الإنسانية للإنقاذ، يملك بتعابير وجهه تلك البراءة التي تجعله مُخلِّصًا وقديسًا وابن الرب الذي كُتب عليه حمل الصليب، كانت "نعم الخباز" تترجم تلك المرويات باعتبارها تاريخًا مؤثرًا، ولا تخفي عجزها عن فهم تلك الحكايات وخلفياتها التي تدور في أجواء الحروب والنزوح والمليشيات وبلاد الله التي تنقل فيها، لكنها تعتقد من خلال تلك المرويات أن "سليم النجار" رجل عظيم وأن ما مر به يصعب وصفه، وتعتقد "نجوى" مثلها أن ما مر به فعلًا يصعب وصفه؛ لأن الحقيقة لا تزال في مكانٍ ما في ذاكرته لم يَبُح بها لأحد بعد، وأن كل ما يرويه هو تلك الأسطورة التي أراد صنعها لذاته؛ لتستر خيباته العميقة.

بعد عدة سنوات أعاد "سليم النجار" رواية أساطيره بشكل مختلف، أراد أن يضفي عليها دلالة كونية تنسحب رمزيًّا على الجميع؛ لتتلاءم مع

الواقع الجديد في "الشمس المشرقة"، فمع غلبة أفواج اللاجئين الذين يتسربون إلى الساحل ويغرقون في القوارب، ويتم إعادتهم قسرًا كل مرة إلى حيث جاءوا، أدرك "سليم النجار" أن صورة المنفيّ واللاجئ وفاقد الهوية لم تعُد مؤثرة بشكل عميق، فأصبح أكثر ميلًا للتغاضي عن أساطيره الماضوية، وأكثر انفتاحًا على نقد اللحظة الراهنة، صار يعتقد أن "الشمس المشرقة" مجرد شَرَك رأسمالي واستغلالي وغير آدمي، وأنه لو كان يملك خيارًا ويعرف لوطنه طريقًا لعاد إليه، يقول مثلًا: "مَنْ قال إنَّنا تحررنا من العبودية، انظري إلى هؤلاء المتسللين، عمال المزارع الذين يفقدون حياتهم في الوصول إلى تلك الأرض، ماذا يريد الرأسمالي أكثر من ذلك، عبيدًا متطوعين، يركضون بحثًا عن سيد، عبيد، هم مجرد عبيد"، تهز "نجوى" رأسها بأسف فتتطوع "نعم" قائلة: "مالهم يا أخويا؟.. كل حي بيجري ورا رزقه".

يكمل "سليم النجار" مُركِّزًا عينيه الجميلتين في وجه "نجوى"، متجاهلًا محاولات "نعم" للفت انتباهه بتلك الجمل الاعتراضية الساخرة، قائلًا: "السعار الرأسمالي صمم العالم على هذا المنوال، يجب أن يبقى الفقير فقيرًا ويصبح الأغنياء أكثر تخمة، انظري هذا هو الفرق بين السهل والجبل، من يستطيع تسلق تلك المسافة فردًا كان أو جماعة؟، من الذي يستطيع أن يكسر دائرة البؤس؟، من يستطيع الصعود؟"؛ ينظر إلى "نعم" ثم يتساءل: "تلك البائسة التي تتسلقه كل يوم لتنظف فضلات المتخمين، هل هذا هو الطريق الوحيد إلى الصعود؟، تلك هي المساحة الوحيدة المسموح لك باجتيازها، (البرنسيسة للتنظيف العميق)"، يضحك بعد تلك الجملة وتضحك "نعم"

وهي تجهل السياق الذي يرد اسمها واسم شاحنتها فيه، لكنها تضحك لتجعله يشعر أنها تفهمه، تقول ضاحكة: "برنسيسة طبعًا، باكل من عرق جبيني"، يتجاهلها "سليم النجار" وينظر بثقة إلى "نجوى" بوصفها مثقفة وتشعر بأوجاعه، الحائط الوحيد الذي يصلح ليجلد نفسه على جدرانه؛ تُربِّت "نجوى" على كتفه وتقول له بمحبة: "وحّد الله يا رفيق كله فاني"، يبتسم لها بمحبة فتقشعر "نعم الخباز" خوفًا من خطر هذا التواصل الفكري المحتمل، تهب رياح أنوثتها المجروحة وغيرتها المتأججة، فتقرر مصادرة تلك الفرصة، وتبدأ في التحسس والهرش، ثم تسحب صديقتها من يدها لتوصيلها إلى بيتها، مقررة إنهاء الجلسة التي لا توافق هواها.

يستطيع "سليم النجار" أن يتحدث كثيرًا، وطويلًا، ولا يكفُّ عن استعراض نظرياته السياسية والثقافية التي يطبخها على مهل، وينشغل بتحليلها بوصفها انشغالاته الفكرية، يستطيع أيضًا أن يؤلف روايات متعددة لحياته ولكنه مع ذلك لا يتطرق أبدًا إلى علاقته القديمة بـ"علياء الدوري"، وعلاقته الأزلية مع "ميمي دونج"، ولم تكن أيٌّ من تلك العلاقات سرًّا، لكنه حرص على أن يتجنب ذكرهما ما أمكنه ذلك.

لا تسكن "علياء الدوري" ذلك السفح أو المستنقع البشري الذي يسكنونه، تهبط من السماء من تلك "الجنة الأبديَّة"، وسط هذه التلال، كانت "علياء" هي المرأة العربية الوحيدة التي حظيت بأن تكون من سكان "الجنة الأبديَّة"، تملك قصرًا صغيرًا أسمته قصر الرشيد، زرعت أطرافه بالنخيل، وجلبت أنقى سلالات الخيل ووضعتها في مزرعته، لم تكن الوحيدة

في تلك الجنة التي تملك قصرًا، فكل منتجعات الجنة الأبديَّة ملحق بها إسطبلات للخيول ومزارع للفواكه التي يرغب أصحاب القصر في زرعها، كان هناك حدائق من الخوخ والرمان والبرتقال، وكانت أشجار النخيل تحيط بتلك المزروعات.

امتلكت "علياء الدوري" أيضًا طائرة صغيرة أنيقة، مثل كل جيرانها، وعددًا من الكلاب، وجيشًا من العمال وملأت قصر الرشيد بالتحف والسجَّاد النادر، وبعض القطع الأثرية التي خرجت معها من متحف بغداد، نثرت في أرجاء البيت مقتنياتها التي تعددت ما بين أدوات موسيقية قالت إنها نادرة، ملابس تراثية قالت إنها تؤرخ لتاريخ تطور الزي النسائي لتلك المنطقة، تملك لوحات لفناني كل العصور، العصور الذهبية وعصور الانحطاط وقِطَعًا فنية تضع تحتها وصفًا تفصيليًّا لقيمتها الأثرية.

دخلت "نعم الخباز" و"نجوى" ذلك القصر مرة واحدة فريدة لم تتكرر، كان ذلك بعد انتقال "ناصر الدوري" من دار رعاية العَجَزة إلى رحمة الله ورضوانه حيث تم حرق جسده ونثر رُفاته حسب وصيته في نهر دجلة.

كان "ناصر الدوري" لاجئًا وفي أقوال أخرى هاربًا، وفي رواياتٍ أخرى شبحًا سياسيًّا يجب أن يظل مختبئًا في دار العجزة.

دخلت "نعم" و"نجوى" البيت خلف "سليم النجار" الذي لم يبدُ غريبًا على المشهد، كانت "علياء" قد تلقَّت أكوامًا من برقيات العزاء، تركتها على الطاولة ثم بدأت تجوالها معهم في أرجاء قصر الرشيد، شارحةً ببساطة قيمة كل قطعة تركها لها والدها المناضل والسياسي المنفي، في نهاية الجولة بكت

قليلًا بعد أن تذكرت مقتل ثلاثة من إخوتها في تصفيات دموية ثأرية ذات طابَع سياسي، لم تحاول تفسير خروجها، فقد كان السيناريو معروفًا ومتكررًا في تلك البلاد: انقلاب أُسَري فاشل قد انتهى بصلح بين أفراد القبيلة التي قررت نفي الرأس المدبر وما تبقى من أسرته، كان ذلك مبررًا كافيًا لتطلق على نفسها ضحية لتلك الأنظمة الدكتاتورية، وتكرر أنها خرجت من بلادها لاجئة وناجية أيضًا مثل الجميع، لكن طوق نجاتها كان مختلفًا، بعد تلك اللفتة الكريمة التي شارك الجميع صديقتهم أحزانها بوفاة الوالد لم تحظَ "نعم" أو "نجوى" برؤية ذلك القصر مرة أخرى، لكنهما حظيتا برؤيتها عدة مرات، جاءت لتتسكع قليلًا معه في شارع الرايات الزرق، لم يستطيعا بدورهما كراهية "علياء الدوري" لأنها جميلة جدًّا وثرية بشكل فاحش وتستحوذ على "سليم النجار" بشكلٍ يصعُب تصوره، يركض وراءها بِوَله ويستحضر صورتها بقداسة وينسحق أمامها كما لم ينسحق لأحد، كانت تغدق عليهم جميعًا من خيراتها، تجيء عدة مرات في العام وتوزع هداياها الصغيرة والكبيرة بمحبة، كما أن إقبالها العميق على تبادل الأحضان مع "نعم" و"نجوى" والسماح لهما بادِّعاء أخوَّتها واقتسام تلك اللحظات الفارقة في عمر تلك الصداقة، تركض على الشاطئ بمرح وتتأمل الماء الراكد وتقول إنها تحب هذا المشهد، وأن الخليج أكثر روعةً حين تراه عن قرب، متغاضية عن الجائلين غريبي الأطوار والمتسولين وبنات غرف المساج وأضواء شارع الرايات الزُّرْق المخيفة، حتى عن رائحة كلاب البحر وأصوات النحيب التي تطلقها بلوعة، تكتفي "نعم" و"نجوى" بتأملها فقط بحسرة، تأمل ملابسها الأنيقة المتسقة مع شخصيتها المثقفة والمنفتحة، التي تنطفئ كل النساء في حضورها.

كانت "علياء الدوري" أيضًا مفعمة بالبهجة وتملك ولعًا جنونيًا بالحياة، تستطيع أن تحكي بلا توقف عن تلك الأشياء التي لا تعرفانها بطبيعة الحال، كان هناك دائمًا ما تحكيه، تشارك الجميع صورها في تاج محل، ومغامراتها في التزلُّق على الجَلِيد، ثم تشرح باستفاضة لماذا تحب باريس وتكره لندن، كان هناك ما ترويه وكانتا تجلسان إلى جوارها وجوار "سليم" بصمتٍ وتبتسمان محاولتيْن في النهاية فهم تلك العلاقة الغامضة التي تربطها بسليم النجار، ثم تكتفيان بالفخر بأن لهُما صديقة، يُفترض أنها صديقة رغم كل الفوارق الطبقية، قد قررت الهبوط من "الجنة الأبديَّة" لتنضم إليهما في جلساتهما البائسة أمام ذلك الخليج.

تغيب "علياء الدوري" وتظهر، تعرفان أنها جاءت حين يختفي "سليم النجار" لعدة أيام ثم يعود وعلى جسده آثار حضورها العميق، تأتي كل مرة حاملة طموحها في تحقيقِ مشروعٍ ما، تغلق أبواب قصرها لتكتب وترسم وتحضر لبعض العروض المسرحيَة أو الـڤيديوهات القصيرة، التي تحكي فيها قصتها كناجية من جحيم الحرب، غالبًا ما تحتاج "سليم" في تلك الخلوة وحده، فيقول معتذرًا عن تلك الخلوة التي لا تسمح بوجود الآخرين إنه يساعدها في تصميم مشروعها الذي يمزج كل مواهبها في الحكي والأداء والتشكيل، يعتقد "سليم النجار" أن دخوله إلى "الجنَّة الأبديَّة" وخروجه منها كل مرة هو قدَرُه، ومصيره السِّيزِيفيّ، يعيش عدة أشهر انتظارًا لتلك اللحظة التي تهبط فيها "علياء" إلى "الجنة الأبديَّة"، وتأذن له بالدخول إلى عالمها، ثم يتقبَّل لحظة الخروج بالمرونة نفسها، يعيش بعد ذلك على أمجاد تلك الفترة، يجترُّها حاكيًا تفاصيل تلك الأيام، يسرد ذلك بفخر، كيف

كان قريبًا من أجمل امرأة يمكن أن يحلم رجل مثله بالاقتراب منها، يدرك أنه لا يمكن أن يجمع بينه وبينها سوى تلك اللحظات التي تختصر تلك العلاقة الفنية المؤثرة.

كان "سليم النجار" وسيمًا ورقيقًا وملهمًا راضيًا بأن يصبح جزءًا خفيًّا من هذا العرض المستمر للناجية الأبديَّة، تلك المرأة المطارَدة والمضطهدَة والضحية، التي تقف على المسرح فتلقي ذلك المنولوج المتجدد عن معنى النجاة بالفن، ثم تجد من يصدقها ويصفق لها، تأتي "علياء الدُّوري" وغالبًا ما تختفي وتتركه خلفها وحيدًا وضائعًا لعدة أيام ثم يستعيد توازنه ويعود ليجلس إلى جانب "نعم الخباز"، بعد أن يتبادلا بعض المنافع، ثم يتحسَّس كفَّ "نجوى" وهو يجترُّ لحظاته الحميمة مع "علياء"، ويتحدث عن التفاوت الطَّبَقي والرأسمالية وتلك الحياة التي تنتهي ببؤس من دون أن يتحقق فيها شيء سوى الركض، يتحدث عن أحلامه وكتاباته الكثيرة التي لم يسمح له الوقت بالتفرُّغ لها، ثم تأخذه قدماه في نهاية النهار لينام في الغرفة التي تطلُّ على سُرَّة الأرض في بيت تحيط به بركة مياه آسِنَة تُسمى بحيرة، حاملًا معه أوجاعه باحثًا عن صدر "ميمي دونج" ليبكي عليه.

يغيب "سليم النجار" عن فراش "ميمي دونج" ويأتي حيثما شاء، لا يفسر ذلك ولا يحدده، تعدُّ له جسدها بالطريقة التي يحبها، تلف الملاءة حول خصرها وتكشف صدرها، وتفك جدائل شَعْرها الذي قضت الساعات في تضفيره، تتمدد مثل مومياء بانتظار لحظة بعثها، تسند ظهرها قليلًا على تلك الوسائد التي يحبها خلف ظهرها ليسمح له ذلك التقوس بأن

يضع رأسه المشحون بالقلق بين نهديها، يبدأ في عدِّ ضربات قلبها وينام، ذلك الالتصاق الأمومي يبدو أنه لا يزعجها بل إن شئت كان مصدر المتعة الوحيد التي أهداها إليها، تنقط بعض قطرات اللبن على حافة أنفه المدسوسة فتمسحها إن كان ناعسًا ويلعقها إذا كان مستيقظًا، لم ينقطع ذلك اللبن قط، كانت خلاياها اللبنية متهيجة دائمًا مستعدة لاستقبال أطفال لم يولدوا أبدًا، عشاق متعبين من الأرق وبحَّارة يلقي بهم البحر ويعود ليلتقطهم من جديد.

تعيش "ميمي" مستعدة لاحتواء رأس "سليم" الولد الذي نزل ذات يوم من الميناء الشرقي، شابًّا فتيًّا وحالمًا ووسيمًا، ما زال يحتفظ ببقايا ذلك العنفوان والطفولة.

كان صدرها وسادته التي يرتاح عليها، لم يفكر قط فيها سوى بوصفها تلك الوسادة، قال إنَّه استغلها أيضًا، وأنه لم يفكر قط في حياتها، ما تحب وما تنتظر.

لم تكن "ميمي" على أية حال تلك المرأة التي تنصب شباكها حول أحد، لم تطالبه بشيء، لم تشاركه جلساته أو أحلامه، كانت فقط تترك بابها مفتوحًا له، يغيب حالمًا بـ "علياء الدوري"، أو متمرغًا في أحضان نساء البارات القريبة وغرف المساج، ثم يعود إليها، فتضعه على صدرها ولا تقول شيئًا، تضمه كأنها تلك الأم التي فقدها صغيرًا، يخرج حين يشبع من صدرها ويعود ليكرر ذلك بلا كوابح، كأنها خُلقت لتلقمه حَلَمتها، ولا تصلح أن تكون أكثر من ذلك، لا تصلح أن تكون امرأته أو زوجته.

إذا سألت "سليم النجار" ما الذي جاء بك؟ فسيتعكر مزاجه الذي سريعًا ما يتعكر، وعلى الرغم من أن ذلك هو السؤال الوحيد الذي يتبادله الجميع مع الجميع أينما التقت ملامحهم المختلفة وأجناسهم المتعددة في تلك الأرض، وعلى الرغم من أن الجميع يبتسم بشجن ويعتبر السؤال مداعبة لذلك الماضي الطفولي الذي عبره يومًا ما، فإن "سليم" هو المهاجر الوحيد الذي يغضبُ ويحتدُّ ويعتقد أن هذا السؤال بالتحديد يحمل إهانة مضمرة بشكلٍ من الأشكال، كان يصرخ ويقول: "لاجئ"، لكن ذلك لا يخفي أن وجوده مرهون ومتصل بـ "علياء الدُّورِي"، كان من الصعب أن يعترف بتلك الحقيقة، فقد كان يدَّعي لوجوده أسبابًا مثيرة للتندُّر، كالتفرغ للكتابة مثلًا، ولم يكن ذلك مستغربًا، فالعابرون الذين دخلوا إلى أرض "الشمس المشرقة" يقولون أشياء أكثر غرابةً عن أحلامهم، كاكتشاف ما تحمله بطون هذه الجبال من مناجم الذهب، أو تخمير أطنان من عنب الشاطئ الغربي، كما كانت للنساء الصغيرات الوافدات أيضًا أحلام أكثر إثارة، وغرابة، كان هناك حالمون كثيرون، لكن "سليمو" كما كان يُسمِّي نفسه كان وحده مثيرًا للشفقة بشكل استثنائي، لم يستطع أن يحلم سوى بهبوط "علياء الدوري" لعدة أيام على تلال "الجنة الأبديَّة"، ولم يستطع سوى أن يكون حارسًا لعقار متهالك، تركه مُلَّاكه الذين انتقلوا بقدرة قادر إلى أعلى الجبل، رحلوا بعد أن شكلوا النموذج المثالي للمهاجرين الذين يستطيعون بعد نصف القرن من الجهد والعرق والتفاني في اللِّهاث والتسلُّق، الوصول إلى تلك "الجنة الأبديَّة".

ترك أصحاب العقار لـ"سليم النجار" تلك البناية العجوز ليدبر أمورها،

ويرعاها كشابٍّ طَمُوح، مُتفانٍ في إصلاح ما يطرأ عليها من أعطال وما أكثرها، صار "سليم النجار" يُنظِّف العقار وفي مقابل ذلك، كان بإمكانه السكن في إحدى الغرف السفلية التي كانت مخصصة لغسيل الثياب، بعد أن أصبح لتنظيف الثياب ماكينات وغسالات عمومية وأخرى ملحقة بالشقق.

حجرة "سليم النجار" ليست سوى مقبرة واسعة باردة بلا نوافذ، لكنه يستطيع منها سماع صوت أقدام العابرين في الشوارع المحيطة بالعقار، سماع أنين كلاب البحر التي تعوي في الخليج الدافئ، الأصوات لا تؤرقه إذا كان ذلك العمل يوفر له راتبًا صغيرًا وغرفة مغلقة ومكدسة بالكتب وعقارًا كبيرًا يحتاج سكانه دائمًا إلى خدماته؛ لذلك يتركون له الرسائل العاجلة في صندوق البريد عند مدخل البناية، ويطلبون خدماته الكثيرة التي عادةً ما يماطل في أدائها؛ ليكتسب فقط أهمية لوجوده وثناء على قدرته على ممارسة مهارات متعددة، مثل أعمال النجارة والسباكة والكهرباء وترميم الجدران التي تتساقط بفعل الملح والرطوبة، وبذلك يوفر الكثير من نفقات البناية بأصابعه التي لا يُقدرها أحد، لكن كان في المجمل يقدر مواهبه التي عرفها متأخرًا، ولم يكن يؤرقه سوى مشكلة واحدة لا أكثر هي؛ رائحة المُخلَّفات التي يجمعها بنفسه ويكوِّمها في صندوق النُّفايات في الغرفة المخصصة لذلك وهي الغرفة الملتصقة به، وبها تختمر مكونات المخلفات الحيوية وتتفاعل ببطء في تلك الحاوية الكبيرة خلف غرفته، خالقةً هذه الرائحة التي لا يمكنه الخلاص منها حتى بعد الخلاص من النفايات ذاتها كل عدة أيام، لم يَعتَدْ أنفه تلك الرائحة وظلت حاوية النفايات تنغص عليه حياته إلى

جانب عدة أشياء أخرى صارت مع الوقت هامشية، مثل الأرق وعدم القدرة على الكتابة وعسر الهضم وانزعاج سكان العقار من مخاطباته.

كان "سليم النجار" يقضي وقتًا طويلًا في كتابة المخاطبات الطويلة التي يتفقَّد من خلالها دوريًّا حالة الوحدة السكنية المؤجرة، يُذكِّر بدفع الإيجار في موعده، ويهدد بالمساءلة القانونية للمتأخرين في دفعه، ينزعج سكان البناية متعددو الأعراق والألوان من تلك المخاطبات المسجلة التي تتكدس في صناديق البريد، ويسخرون فيما بينهم من صعوبة الاصطلاحات القانونية التي يستخدمها، وكان بدوره يعاني الصعوبةَ ذاتها في قراءة تلك الملاحظات التي يلقون بها بسرعة وبخطوط مختلطة ولغة ركيكة في صندوق بريده، ويبذل قُصارَى جهده في فك رموزها المعقدة.. يضعها أمامه ويصنفها على هامش كل ورقة باختصار: "مفتاح الباب"، "المرحاض يسرب الماء من الماسورة الخلفية.."، "جرس إنذار الحريق".. كان دائمًا مشغولًا بالأرقام، أرقام الشقق والأدوار، ثم تكلفة تلك الإصلاحات.

ينشغل "سليم النجار" بمملكته من المستأجرين ويعتقد أنه وجد ما يشغله، ما يجعله مُهمًّا ويجعل لحياته معنى، فهم في النهاية رعاياه النازحون إلى تلك البلاد الغريبة، هم سكان العقار الذي يحرسه ويرعاه، يحاول في النهاية أن يبدو متفهمًا لمتطلباتهم، يقابلهم بتلك الابتسامة ويُحييهم بصوتٍ رخيمٍ وعميق ويقف عندما يمرون قائلًا: "كيف حالك سيدي" يهز رأسه حين يتحدثون إليه متفهمًا، ويؤكد لهم فهمه التام لاحتجاجاتهم الطارئة، كان يقول بأدب: "نعم يا سيدي.. أفهمك تمامًا.. أجل سأبذل قُصارَى جهدي لإصلاحه".

يحاول طول الوقت أن يقنع نفسه بأن لوظيفته قيمة، وأنه المسئول الأول والأخير في هذه البناية وأنه في المكان الصحيح الواعد لتحقيق أحلامه، في الليل وبعد أن تخفُت الحركة على الأرصفة يترك البناية ويسير باتجاه بيت "ميمي دونج" في الشوارع الضيقة التي تنتهي بسُرَّة الأرض، ذلك الفضاء الذي تتراصُّ فيه بيوت خشبية صغيرة ورديئة وكابية، يذهب محملًا بأوجاعه التي لم يَبُح بها، وتحرص على تخفيفها بإغداق أمومتها، تقوم "ميمي" بذلك لدوافع لا تعرفها، كانت تعرف فقط أن "سليم النجار" أو "سليمو" كما تسميه لا يملك ما يعطي، ولا يفكر في العطاء، وأن صدرها - رغمًا عنها - ينزُّ بقطرات اللبن، تفتح صدرها لينام عليه، ثم يستكمل سرد مخططاته الأوَّلية لما يطلق عليه سيرة المهاجر المثالي، تلك الرواية التي يعكف على كتابتها، أو التي عجز حتى الآن عن إكمالها، تلك السيرة التي تهيمن "علياء الدوري" على كل صفحاتها، وتتوارى فيها "ميمي دونج" خلف الحروف المترددة، ثم تتحول في النهاية إلى جثة طافية فوق الماء.

***

اختفت "ميمي دونج" منذ عدة أيام فوجد شعب الشمس في اختفائها فرصةً لتبادل بعض الخبرات وتناقل الحكايات المماثلة، وجدوا في ذلك مناسبة لتذكُّر الأزواج الهاربين والأبناء الجاحدين والموتى الذين استراحوا من تلك اللحظات، لحظات الترقب والانتظار.

لم يكن اختفاء "ميمي" تراجيديًّا في المطلق، لكنه ظل علامة استفهام

حول تلك المرأة التي استحوذت بشكل انفرادي على دور المحبوبة والمشتهاة في تلك الأرض.

لم تُخفِ "نِعَم" ارتياحها للخبر، جلست كما اعتادت كل مساء على الخليج وقالت بشماتة: "راحت في داهية".

قالت "نعم" ذلك وهي تواصل التلفُّت حولها ترقبًا لظهور "سليم" الذي أغلق غرفته واختفى، قالت لتفسر غيابه: "يمكن راح ورا بسلامتها".

جلست "نجوى" إلى جانب صديقتها كالمعتاد وقالت كأنها تقرر بعض الحقائق: "غلبانة والله، كانت جميلة لكنها لم تجد حظها في الحياة.. مجرد امرأة سوداء، من سيكترث لغيابها؟". لم تكن "نجوى" واعية بشكل واضح بما ينبغي قوله، كانت تفكر آنذاك أننا جميعًا سننتهي بتلك الطريقة، وسوف نُدفن في مقبرةٍ ما، لن يهتم أحد بتفقُّدها، بينما كانت "نعم" تفكر فقط في الخلاص من "ميمي دونج"، تفكر في "سليم النجار"، تفكر في أن تلك المساحة في قلبه قد تستعمرها فجأة وتصبح كما اشتهت "الريِّسة" والمالكة لحياته، وأن عليها أن تتحرر من صورة الخادمة التي تعيش وتموت لتقتات من فضلات الآخرين.

كانت "نعم الخباز" سعيدة لغياب "ميمي دونج"، ولم تستطع أن تُظهر عكس ذلك، لم تستطع رغم براعتها في ارتداء الأقنعة إخفاء تلك المشاعر، ولم تتوقف ذلك المساء من التلفُّت حولها وترديد تعبيرات التشفِّي والارتياح لتلك النهاية الغامضة لغريمتها.

قالت لنجوى عدة مرات، وبطرق مختلفة إن "ميمي دونج" مجرد "عاهرة ومنحوسة أيضًا"، قالت ذلك ثم سألتها بطريقة مباغتة: "هل تعتقدين أنها وجدت رجلًا لتهرب معه؟"، هزت "نجوى" قدميها القصيرتين ثم قالت: "إنها ليست مضطرة للهرب كان باستطاعتها أن ترافق من تشاء".

غاب "سليم النجار" في حجرته لعدة أيام بعد اختفاء "ميمي" ثم عاد ليمارس حياته كما عرفها، ينظف البناية ويحمل حاويات القمامة ويرسل مكاتباته ويُحصِّل فواتير الكهرباء والماء والغاز، ثم يقلِّم أظفاره ويلمع حذاءه ويرتدي تلك الملابس الرياضية التي تجعله أكثر وسامةً ثم يجول على الأرصفة ويغازل فتيات البارات القريبة، قال إنَّ عليه تجاوز غياب "ميمي" باعتباره جزءًا من تصاريف الحياة، عليه أن يقبل أن "ميمي" قد خرجت من حياته وقررت ألَّا تعود.

أفاد تقرير الشرطة أن "ميمي" خرجت من باب المشفَى على قدميها، ابتسمت لعامل المصعد ولعاملة النظافة، ولوَّحت لبعض عاملات التمريض اللاتي صرن يعرفنها، ووقفت قليلًا عند عاملة الاستقبال التي سألتها باعتياد "هل كل شيء تم بخير؟". هزت "ميمي" رأسها وهي تأخذ الحوالة الماليَّة من عاملة الاستقبال، ووضعتها بحذر في حقيبتها وابتسمت بشكلٍ وَدُود "نعم كل شيء بخير"، رأى البعض "ميمي" بعد ذلك تجلس أمام الماء الذي ينثال من إحدى النوافير التي تسكب ماءها في مدخل البناية، توقفت "ميمي" عند متجر الأدوية التابع "لعيادة الأمل للخصوبة"، تسلمت حصتها التي وصفها الطبيب؛ مقويات وحفَّاضات نسائية وأدوية لتكبير البويضات أو لإيقاف السيولة، أخذت الدواء الذي اعتادته ثم خرجت

مبتسمة، رأوا على وجهها تلك الابتسامة الشاحبة التي صارت تعبيرها الأثير عن تلك اللامبالاة، بعد ذلك لم يَرَها أحد.

كانت "ميمي" تتردد كل عدة أشهر على هذا المشفى للتبرع ببويضاتها، لم تخجل من تكرار تلك العملية، كانت مؤمنة بأن الولادة فعل بيولوجي، بينما الأمومة مسألة نسبية وقصيرة وغير مفهومة لها؛ فهي على سبيل المثال لم تعرف أُمها، ولم تشعر بتلك العلاقة المشيمية تحرضها على الحنين أو التفهُّم أو الغفران، وتستطيع أن تكون متعافية تمامًا بعد أن تهب بويضتها، وتعتقد أن كل البشر يتركون أطفالهم خلفهم بشكلٍ من الأشكال، كانت متصالحة وتعتقد أنها واهبة ومُمتنَّة لقدرتها الخلاقة في العطاء.

يعرف "سليم" أن "ميمي" احترفت بيع بويضاتها كل عدة أشهر وأنها تنفق من دخلها من تلك المقايضات، أو التبرعات؛ بخاصة بعد أن أصبحت عميلة مطلوبة في عيادات التخصيب، وشبكات بيع البويضات، ربما لأنها بملامحها الجسدية تلائم مطالب المتعاقدات وتوقعاتهن حول صورة الطفل المنتظر؛ فهي تحمل في دمائها چينات تجتذب المتسوقات من الأمهات البديلات، اللاتي يبحثن عن بويضة جيدة صالحة لإنجاب أطفالهن المتوقعين.

تنجح "ميمي" كل مرة في تلك الاختبارات الجسدية والـچينية الوراثية، وتتأهل بسهولة لتكون متطوعة وواهبة مثالية للأجنَّة.

لم تكن عمليات التبرع أو بيع البويضات عملية شاقة في البداية، صحيح أنها تستغرق استعدادات ومراحل متعددة من الحقن والمتابعة والانتظار كي يتضاعف حجم وعدد البويضات، وتصبح بعد ذلك مُعدَّة للنقل من

رحم "ميمي" إلى رحم الأم المفترضة، لكنها في النهاية عملية آمنة وغير مؤلمة؛ بخاصة أن "ميمي" لم تكن منشغلة بأجنَّتها، ولا تريد أن تعرف أي معلومات عن الأم البديلة، فضلًا عن مسيرة الحمل أو مدى نجاحه وفشله، لم تكن مهتمة بأولادها المفترضين.

كانت "ميمي" تفكر في ما تدرُّه تلك العملية من دخل، ربما لأنها تعتقد أن كل مواهبها لا تساعدها في التأقلم مع المهن المطلوبة، فهي بالطبع لا تحب رعاية الأطفال، وتنزعج من رؤية المربيات اللاتي يتجولن حاملاتٍ أطفال غيرهن، كما أنها لا تنجح في أعمال التنظيف والتي تحتاج روحًا قتالية، فضلًا عن أنها حساسة جدًّا لروائح المنظفات، كانت تكره تنظيف بيوت هؤلاء السعداء الذين يتركون صورهم العائلية المبتسمة على الجدران.

عرفت "ميمي" بسرعة طريقها لبيع ما يمكن بيعه، أقنعت نفسها بالعبارات ذاتها التي يمكن سماعها من الإخصائيات النفسيات في عيادات الخصوبة، إنها مجرد بويضة لم تتشكَّل مشاعر حولها بعد، لم تُظهر "ميمي" اهتمامًا بما يقلن، في النهاية رحم مستأجر مثل مُرضِعة مستأجَرة، مثل يد عاملة مستأجرة، مثل كل تلك الأيادي العاملة بهمَّة وتفانٍ في صالونات التجميل والتدليك ورعاية الكلاب وتدليل القطط، مثل كل العمال الجالسين بترقُّب على رصيف محطات الوقود، هؤلاء المندفعين بحماسة تجاه الشاحنات الصغيرة التي قد تختارهم للعمل في تلك الأعمال الموسمية؛ تنظيف الحدائق، جني عناقيد العنب، تنظيف الحظائر.

لم يكترث "سليم النجار" أو شعب "الشمس المشرقة" باختفاء "ميمي"،

لم يكن الاختفاء فعلًا فجائيًّا معظم الوقت، كان فعلًا طبيعيًّا تعودوه، فعمليات الاختفاء تحدث لأسباب يصعب حصرها؛ القلق، والهرب، والحنين والضَّجَر، يختفي الرجال والنساء ولا يعودون، تترك بعض الأمهات أطفالهن وتهرب مع الغرباء، يضجُّ الرجال بحياتهم فيتسللون إلى الجبال، ويكبر الأطفال ولا يجدون في تلك الأرض ما يبحثون عنه فيرحلون إلى الشمال، لا يكترث أحد لغياب أحد في النهاية، يتساءل البعض أحيانًا لكنهم يدركون أن الغياب سُنَّة من سُنَن تلك الحياة التي يعيشونها.

telegram @
yasmeenbook

عينُ الحياة

استيقظ شعب "الشمس المشرقة" على موجات الحرارة التي تهبُّ في نهاية صيفٍ جاف، حيث هبت رياح سانتا آنا الموسمية عدة أيام، تلك الرياح المحملة بالأرق والتأهب الذي يسبق النكبات، لا يكترث هذا الشعب بطبيعته بتلك الأعاصير الموسمية أو ما يتبعها من الكوارث لأنها تصيب عادةً المنتجعات الجبلية، كما أن الحرائق تبدأ في الأحراش العشبية وتمتد إلى حقول الكروم ومناطق إنتاج النبيذ ونادرًا ما تصل إليهم، بل يرى فيها بعض الفوائد، فالأعاصير والانهيارات الجرفية والحرائق تحتاج إلى تلك الأيدي الماهرة.

ينتظر العمال المتعطلون تلك المواسم وربما يترقبونها، تبدأ تلك المواسم بعواصف الرياح الجافة المحملة بالغبار، أو تلك الهبات الموسمية الترابية الرملية الحارة التي تكنس قمم الجبال وتلقي بها في وجوه الجميع، يثير الغبار الجبلي موجات من التحسس الموسمي، ثم تبدأ خيوط الدخان تتسلل إلى الوادي من تلك التلال البعيدة ثم تتحول بعد أسابيع إلى سحب خانقة

محملة برائحة الحريق، لتعلن موجة جديدة من موجات اندلاع الحرائق في الوديان الجبلية والغابات البعيدة.

يصاحب الأجواء القلقة تصاعد موجات موازية من العواء على الشاطئ، ذلك العواء الذي يرافق فطام كلاب البحر الصغيرة التي يتم طردها لتبدأ رحلة نضوجها، تصرخ الجراء وهي تدفع قسريًّا باتجاه الماء، وتبكي الأمهات وهي تدفع بقسوة الكلاب الصغيرة التي ما زالت تتعلق بأثدائها، تستمر تلك المعارك لعدة أسابيع، ويستمر العواء لما هو أطول من ذلك.

في الصباح الباكر خرجت بعض العجائز للجلوس أمام البيوت في تلة "سنام الجمل"، وركض آخرون وراء كلابهم للتنزُّه ولاقتناص يوم العطلة، هدأت الرياح قليلًا وما زالت الشمس بعيدة في الأفق الضبابي لم يشتعل جحيمها بعد.

كانت "نجوى" جالسة كعادتها الصباحية على الأُرجوحة في الباحة الأمامية للبيت، عبر "مارك" أمامها قاصدًا سيارته، حاملًا من أغراضه أكثر مما اعتاد أن يحمل في رحلاته من مستلزمات للتخييم أو تسلق الجبال، جلس على الأرض متعرقًا ومتعبًا بعد أن انتهى من نقل وترتيب أغراضه فوق سقف الشاحنة التي حملت أيضًا دراجته النارية، جلس متجاهلًا وجودها متأملًا في الفضاء الذي يفصل البيوت، ثم التفت إليها لبرهة وقال كمن يكمل حكاية قديمة: "كان ذلك متوقعًا على أية حال، كانت تحتاج قدرًا كبيرًا من اللطف لم أستطع أن أقدمه لها، إنها لطيفة جدًّا وحساسة للغاية، كانت تحتاج الكثير من الرعاية، ولم أكن متنبهًا إلى ذلك". لم تكن "نجوى" تعرف عمَّن يتحدث بالضبط؛ لذلك اعتبرته مجازًا يتحدث عن "لوسي" التي هربت ليلة البارحة، لم يكن "مارك" ينتظر ردها كعادته،

لم يكن يعتقد أن تلك المرأة الجالسة على الأُرجوحة تستطيع فهمه أو التعاطف معه، فقام بسرعة متجاهلًا تلك الثرثرة الباهتة التي تخرج من فمها وهي تقول: "إنني أفتقدها أيضًا يا مارك، كانت لوسي لطيفة جدًّا... وربما انشغلنا عنها فهربت".

اختفت "لوسي" منذ عدة أيام، وفشلت جهود العثور عليها في الجوار، استسلمت "إيمي" لهذا الفقد ودخلت غرفتها متعبة، بينما حاولت "نجوى" كعادتها تجاهل الأمر وعدم التورُّط في المأساة.

اعتادت "لوسي" أن تخرج وتعود مثل كل الكائنات الأليفة حولهم، تدور في الباحة الأمامية وتعرف طريقها إلى البيت، اعتادوا بدورهم أن يبحثوا عنها في بيوت الآخرين القريبة، تعودت أن تتنقل بألفة بين بيوت الجيران ثم تعود في النهاية إلى حجر "إيمي"، لكنها غابت تلك المرة ولم تظهر.

أغلقت "إيمي" حجرتها على نفسها وكانت بشكلٍ من الأشكال لا تريد رؤية أحد بعد رحيل صديقها أيضًا، لم تكن تعتقد أن تلك المرأة الجالسة على الأُرجوحة تستطيع فهمها من الأساس؛ وبالتالي لا يمكن أن توفر لها الحد الأدنى من التعاطف والمشاركة الذي تنتظره، كان ذلك صحيحًا إلى حد كبير، فلم تكن "نجوى" بطبيعتها قادرة على التعبير عن هذا التعاطف مع "إيمي" أو غيرها، كانت "نجوى" تريد التخلص من الفقد والانتظار والترقب ولا تعتقد أن ما تبقَّى لها من عمر ووقت يمكن أن تقضيه في البحث عن أحد، كانت فقط راغبة في الهرب، في الجلوس على الأُرجوحة بانتظار أن تعبر "نعم الخباز" وتنطلق بها في تلك الشاحنة، ثم تجلس بجانبها بانتظار ذلك الرجل الذي يسمي نفسه "سليمو" ليتحدث عن أحلامه وأساطيره التي تؤكد وحدته وبؤسه، تريد أن تقضي ما تبقَّى من

حياتها هناك على حافة الماء الراكد، تود أن يتحول غياب "لوسي" و"مارك" و"ميمي دونج" إلى ذكرى بعيدة، وأن تعود تلك الأيام المبهجة التي يجلس فيها ثلاثتهم على الرصيف نفسه ويقتسمون الضحكات ويراقبون بأسى هؤلاء الوافدين الجدد، الجائلين حديثًا، غريبي الأطوار، هؤلاء الغرباء المتسللين الباحثين عن خلفية مناسبة لالتقاط الصور.

لكن "نعم الخباز" لم تظهر، وتحولت تحول حاد في تلك العلاقة ولم يكن واضحا ما الذي غير مزاجها بالضبط وخلق هذا التحول الحاد، اختفت ولم تردَّ عليها وقررت بشكلٍ قاطع أن تتفادى تلك الطرق التي اعتادت أن تقابل صديقتها فيها، انتظرت "نجوى" عدة أيام ثم قررت ذلك المساء وبعد أن هدأت تلك الرياح، الخروجَ والتسكُّع حول الخليج.

قصدت "نجوى" تلك المقاعد الشاطئية بحثًا عنها، لكنها لم تجد سوى تلك الضجة التي صاحبت القارب الجانح على الشاطئ، بعد عدة محاولات للبحث عنها على رصيف الكوارتر وجدت "نعم"، كانت جالسة هناك بجواره، متجهمة ومستعدة لمقابلتها بذلك البرود والتجاهل الذي تقابل به البشر الذين تقرر الخلاص منهم، كانت واقفة أمامها حين ألقت "نعم" في وجهها بتلك الجمل ببرود: "أولًا.. أنت حتفضلي ماشية ورايا وشابطة في ديلي ليه..؟ روحي اتفرجي هناك.. الناس كلها هناك"، ثم تشير إليها بيدها إلى البحر حيث وقفت "عين الحياة".

كان "سليم النجار" جالسًا بجوارها يواصل احتساء الأرز بالكاري متجاهلًا وجودها، ستدرك "نجوى" في تلك اللحظة أن "نعم الخباز" قد قررت التخلص منها كما تتخلص من النفايات بمهارة، وستظل "نجوى" تتساءل عن أسباب هذا التحول، ولن تجد له سببًا سوى ذلك الملل الذي

يدفع الآخرين إلى الخلاص من وجودها الثقيل، تسحب قدميها باتجاه الشاطئ وتتابع مع العابرين جنوح "عين الحياة" على بعد أميال قليلة من مدخل الخليج، كانت مجرد مَرْكَب خشبية ملونة باللونين: الأبيض والأزرق، طولها نحو خمسة وعشرين قدمًا وعرضها سبعة أقدام، سطحها مكشوف بشكل لا يوفر أي حماية، على متنها تم حشر عشرين شخصًا، جلس معظمهم على سطحها الملطخ بالقيء واجمين، كان البعض قد فتح فتحات في أكياس قمامة بلاستيكية ودفعوا رؤوسهم وأذرعهم من خلالها، ملتصقين ببعضهم البعض، وفي مؤخرة المركب انكمش النساء والأطفال تحت شِبَاك الصيد.

كان المشهد بائسًا، قال البعض إن المركب المحملة بالمهاجرين ضلَّت طريقها إلى نقطة الإنزال المحددة بفعل تلك العاصفة؛ ومن ثم اضطر إلى رفع رايات الاستغاثة، بينما تناقل البعض أن تعثر المركب مجرد حيلة قديمة وأن عملية الإنزال الآمن قد فشلت، ولم يكن أمام المتسللين سوى إلقاء أنفسهم في الماء والعوم حتى الشاطئ، وقد تعذر ذلك لأن معظمهم من الأطفال والنساء غير القادرين على العوم لتلك المسافة، ولم يكن أمامهم سوى رفع رايات الاستغاثة وادِّعاء تعطل المحرك، لكن تلك الروايات تم تعديلها بعد أن تناقلت الأخبار المحلية ما يؤكد أن فرقة من قوات الجمارك وحماية الحدود الأمريكية قد أطلقت النار على المركب، وهو الخبر الذي أجبر سلطات الولاية على إصدارِ بيانٍ مختصرٍ، تقول فيه إن الساحل الغربي للولاية قد شهد البارحة مطاردة وإطلاق نار على عدد من المهربين، وأن قوات حماية الحدود البحرية رصدت ظهور مركب من نوع البانجاس وهي زوارق صغيرة تتحرك بسرعة تزيد على ثلاثين عقدة، كانت تلك المركبة

تتحرك متجهةً بسرعة إلى إحدى نقاط الإنزال قرب الشاطئ.

وأنه في نحو الساعة 3: 15 صباحًا، طاردت القوات المركب المشتبه بها، وكانت المطاردة سريعة، اضطر فيها ضابط حرس الحدود "أندرو فليم"، وهو محارب وقنَّاص سابق في سلاح مشاة البحرية إلى إطلاق ثلاث زَخَّات من مدفع رشاش في الهواء، وبعد محاولات رُبَّان المركب للفرار، فقد تم إطلاق النار على المحرك الخارجي للمركب من بُعد نحو عشرة أمتار، بعد مطاردة طويلة وشاقة وكان إطلاق النار على المحرك تصرفًا نموذجيًّا لإيقاف التسلل وإنفاذ القانون.

تعاطف شعب "الشمس المشرقة" بفتور مع قارب المتسللين المتعطل الذي ذكَّرهم بلحظات البؤس والترقُّب التي عرفها الجميع، تذكَّر البعض كيف جاءوا في أوقات كانت أكثر إشراقًا، حين كانت المعابر الحدودية البرية لا تعمل بتلك الكفاءة، وكان يمكن التحايل للعبور بطرق متعددة، كما كان روتين تهريب البشر على الساحل الغربي الجنوبي أكثر أمانًا، قفزة في الأمواج، والاندفاع إلى الشاطئ، والركض إلى السيارات المنتظرة، ثم القيادة إلى منازل آمنة حيث سيُحتجزون فيها حتى انتهاء رصيد رسوم التهريب وبعد ذلك، إذا نجح كل شيء، إذا لم يغرق أحد، فسوف يشرعون في البحث عن فرص غير شرعية للعمل والحياة، كان ذلك قبل أن تقرر مصلحة الهجرة أن تحُول بين القادمين وبين تلك الحيَل بكل الطرق، وتحيط الشاطئ بتلك الخوازيق الفولاذية التي تحمل علامات التحذير من الاقتراب، وتحيط الساحل بأبراج المراقبة المستعدة لإطلاق النار على القوارب المتسللة مثل "عين الحياة".

تآلف شعب "الشمس المشرقة" سريعًا مع وجود ذلك القارب المتعطل على مسافة غير بعيدة من الشاطئ، انطلقت في الليل الألعاب النارية وفي النهار بدأت حركة الرواج التجاري بين الركاب البائسين وشعب "الشمس المشرقة" الأكثر بؤسًا، تبادل الفريقان علب السجائر وزجاجات الصودا وبعض الكحوليات للقبطان الذي تسلخت بشرته البُرونزية، تآلف السكان مع عمليات التبوُّل والتبرُّز وإلقاء الحفَّاضات في الماء الراكد، ظلت المركبة تصدح ببعض الأغنيات الفلكلورية الأفريقية التي لا يفهمها أحد؛ فيصفق المارَّة ويرقص بعض العابرين، ويصرخ الأطفال وتعوي كلاب البحر ويركض شعب "الشمس المشرقة" بحثًا عن رزقه بينما ينتظر الركاب قرار إدارة الهجرة الذي قد يقرر اعتقالهم أو ربما يسمح لهم بالهبوط، ويعني ذلك بالتالي استطاعتهم إعلان حق اللجوء متى وصلوا إلى الشاطئ، لكن تلك المراسلات بين إدارة الهجرة وحراسة السواحل لم تسفر عن شيء.

قالت الإذاعات المحلية إنه من المرجح أن يتم اعتقال قائد المركب بتهمة الاتجار بالبشر التي قد يُعاقب عليها بالسجن لمدة طويلة، وأن الركاب ربما سيواجهون مخاطر قانونية أقل إذا تم تصنيفهم على أنهم شهود جوهريون، وسيتم اعتقالهم جميعًا بالطبع وإرسالهم إلى مركز الاحتجاز الإقليمي في سان لويس في أريزونا، لكن مصيرهم النهائي لم يتحدد بعد، ففي ظل الإجراءات الحكومية السابقة كان يُسمح لبعض الحالات الإنسانية بعد إطلاق السراح بالعمل مؤقتًا أو ترحيلهم من دون عقوبة، لكن في قضية "عين الحياة" فمن المرجح أن يتم الإفراج عن القارب والسماح له بالعودة؛ لأن إطلاق النيران وإصابة المحرك تم بشكلٍ استباقيّ مما أدى إلى تعطل

المحرك عن العمل، وقد تسبب هذا العطل في جنوح القارب إلى المياه الإقليمية لا إراديًّا.

وحتى صدور هذا القرار فقد ألزمت السلطات المتسللين بعدم مغادرة القارب، إلى حين انتهاء إدارة الهجرة من مناقشة الإجراءات اللازمة للإنقاذ.

في أثناء تلك المباحثات بين فرق الإنقاذ ومكاتب الهجرة انشغل مكتب مواجهة الكوارث في إمداد العالقين في الخليج ببعض الاحتياجات الضرورية، مثل الأطعمة والمُعلَّبات والمشروبات وبعض الأدوية الضرورية وحفَّاضات الأطفال..

في اليوم التالي صرح وكيل مكتب حماية الحدود أنها جريمة، كل يوم تقريبًا يندفع بعض المهاجرين على بُعد ميل واحد من مياهنا على متن زلَّاجات مائية، أو قوارب خشبية بدائية ويغافلوننا، لقد قام مشغلو هذا القارب بجريمة وكان لا بُدَّ من إيقافهم ولو بإطلاق الرصاص، أحدهم كان صيادًا تجاريًّا سابقًا والآخر ابن عمه، لقد قاموا في الليل بتحميل المركب بالبشر من ساحل "تجوانا"، ثم شقوا طريقهم بعيدًا عن الشاطئ وباتجاه الشمال، بعد منتصف الليل بقليل وصلوا إلى منطقة شاطئيَّة يتسكَّع فيها المهربون البحريون الذين يستعدون للركض إلى الشاطئ..

لقد جاءوا من أصول متعددة وطابقوا ملامح مألوفة للمهاجرين غير الشرعيين الذين يسعون إلى العبور، إنهم عشرون راكبًا أحدهم أرملٌ يبلغ من العمر ستةً وخمسين عامًا من هندوراس، قال إنَّه يعول ثلاثة أطفال وحفيدين وقد تم إيقافه وترحيله عدة مرات قبل ذلك، بعضهم مراهقون

قُصَّر وسيدات حوامل وأخريات يحملن أطفالًا رُضَّعًا، جاء معظمهم من إثيوبيا والصومال وإريتريا متسللين حتى وصلوا إلى الحدود، كان بعضهم يأمل أن تسمح لهم إدارة الهجرة ولأطفالهم بالبقاء حتى يتم السماع لطلبات الهجرة الخاصة بهم، لكن ذلك الخيار لم يعُد متاحًا، سيتم ترحيل الجميع على الفور تنفيذًا لقانون الهجرة ولن تستثني في ذلك إلا الأطفال غير المصحوبين بذويهم.

قال أيضًا: نحن نبذل جهودًا غير مسبوقة في الإنقاذ، منذ عدة أشهر لقي ثلاثة أشخاص مصرعهم وأُصيب ثلاثون آخرون في انقلاب قارب للمهربين قبالة السواحل، كان ذلك القارب يقلُّ أيضًا عددًا من المهاجرين غير الشرعيين لكننا لم نستطع إنقاذهم، ولا نظن أن من واجبنا إنقاذهم، لا يمكننا حماية شبكات التهريب أو تشجيعها.

وختم كلامه قائلًا: نحن نبذل جهودًا جبارة أيضًا في مراقبة وتمشيط الساحل، وفي الصباح نعثر على تلك القوارب المهجورة التي تم ربطها في رصيف الميناء عند شروق الشمس، أو سترات النجاة، أو ملابس السباحة، وألواح التزلُّج التي يتخلص منها المتسللون بعد الوصول إلى الشاطئ، إنهم يركضون شمالًا نحو سكة القطار أو يتسلقون تلك التلال شديدة الانحدار ويختبئون في حقول العنب، وبعضهم يتسلل إلى تلك المنتجعات الساحلية، لقد تم هذا الأسبوع اعتقال ستة مواطنين صينيين وثلاثة من المكسيك وثلاثة أفارقة.. وآخرون لا تزال جنسيَّاتهم مجهولة داخل أحد المنتجعات شديدة الحراسة.

قررت إدارة الهجرة بعد تلك التصريحات السماح لعين الحياة بمواصلة الإبحار والعودة بحمولتها بعد تبديل محرك المركب في الماء حيث توقفت،

والاستمرار في حظر الركاب من مغادرة الزورق أو الترجُّل للياسة لأي سبب.

بعد إعلان قرار الترحيل بدأت أصوات البكاء تصل إلى أسماع العابرين، كان ذلك القرار يعني أن حركة الإصلاح التي قد تستغرق عدة ساعات هي كل ما تبقَّى لتلك الشحنة البشرية من وقتٍ في تلك الأرض، وبعدها ينبغي على "عين الحياة" أن تعود كما جاءت حاملةً ركابها، كان يعني أيضًا رفض كل محاولات اللجوء أو حتى الاعتقال التي اعتقد البعض أنها أفضل من العودة خائبين.

قرب لحظة الانطلاق، أعاد حرس الشواطئ تحذيراته في مُكبِّر الصوت: "على المركب العودة فورًا من حيث أَتَتْ... سيتم القبض على المهاجرين غير الشرعيين وترحيلهم مرة أخرى... رجاء لا تحاولوا القفز إلى المياه، سيُطلَق الرَّصاص على المقتحمين للمياه الإقليمية فورًا"، مضت ساعات من الترقُّب يتخللها هذا العويل الموجع: "لماذا تطردوننا.. نحن لاجئون".

كان قائد القارب المنكوب ما زال يدخن سجائره بلامبالاة، بينما حرس الحدود الجائلون على الشاطئ بملابسهم العسكرية يترقبون لحظة الإقلاع بحذر.

وتحسُّبًا لأي تعثر في إجراءات هذا الإجلاء القسري للمتسللين، انتشرت قوات الإنقاذ وحرس السواحل بالزوارق السريعة المجهزة ليحاصروا "عين الحياة" من كل اتجاه، بعد استبدال المحرك وتزويد الركاب ببعض الطعام وسُترات النجاة لرحلة العودة.

بعد أن زُود القارب بقدرٍ كبيرٍ من الإمدادات والمستلزمات الإنسانية لرحلة العودة؛ زجاجات الماء الصغيرة وبعض قطع الجبن والخبز وقناني

الحليب، وعدد من سترات النجاة، ويطلبن من الأمهات التأكد من أن الأطفال مستعدون للإقلاع.

استدارت المركب حاملةً معه شحنة أقل من البشر، وتاركةً خلفها سبعة أطفال في الماء لا يعرف مصيرهم أحد.

غابت "عين الحياة" في تيارات الماء تاركةً فرق الإنقاذ أمام المشهد الذي لم يتوقعه أحد، أجساد صغيرة تطفو في سُترات النجاة الصفراء مثل فقاعات بالونية يقذفها المَدُّ والجَزْر بعيدًا عن الشاطئ، يختلط صراخ الصغار بنُوَاح كلاب البحر وهي تطرد جراءها وتتعمد إلقاءها قسرًا في الماء، يستمر العويل الحزين الذي يتكرر صداه في صمتٍ لعدة دقائق، قبل أن يتم انتشال الأطفال السبعة.

ثم كان مساءٌ وكان صباحُ يومٍ رابعٍ ظلت الصحف والإذاعات المحلية تناقش فيه قضية "عين الحياة" باعتبارها جريمة إنسانية، وانقسم مقدمو البرامج إلى فريقين؛ فريق يفرغ اللوم على الأمهات اللاتي تجرَّدن من الأمومة وألقين أولادهن في الماء، وفريق يتهم فرَق الإنقاذ وإدارة الهجرة بالعجز عن اتخاذ قرار إنساني تجاه المتسللين، لم يشارك شعب الشمس المشرقة في تلك المناقشات التي استمرت عدة أيام، كانوا يركضون لملاحقة الكوارث الموسمية المتتالية ويتابعون بحذر أخبار اندلاع الحرائق في الجبال؛ لذلك لم ينتبه أحدٌ لخبر العثور على جثة "ميمي دونج" إلى جوار عدد من جثث كلاب البحر النافقة فوق رمال الخليج.

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

الكاتبة في سطور

ميرال الطَّحاوي

كاتبة روائية وأكاديمية مصرية، تعمل أستاذًا للأدب العربي بكلية اللغات العالمية والترجمة بجامعة آريزونا الأمريكية، ومن أشهر رواياتها: "الخباء"، "الباذنجانة الزرقاء" التي حازت على جائزة الدولة التشجيعية في الرواية سنة 2002، "نقرات الظباء"، "بروكلين هايتس" التي ترشَّحتْ للقائمة القصيرة لجائزة البوكر العالمية سنة 2011، كما حازت على جائزة نجيب محفوظ سنة 2011 التي تمنحها الجامعة الأمريكية بالقاهرة. تُرجمتْ رواياتها إلى أكثر من عشرين لغة أجنبية حول العالم، ولها مجموعة قصصية عنوانها "ريم البرابري المستحيلة".

دَرَّسَتْ في جامعات فرجينيا ونورث كارولينا وكلية دار العلوم بجامعة الفيوم.

ومن أعمالها الأكاديمية: "مُحرَّمات قبلية: المقدس وتخيلاته في المجتمع الرعوي روائيا" صدر عن المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، 2008. "امرأة الأرق: دراسة في كتابة المرأة"، صدر عن الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2011. "الأنثى المقدسة.. أساطير المرأة في الصحراء"، صدر عن دار بتانة، سنة 2019. "بنت شيخ العُربان"، صدر عن دار العين، سنة 2020، "بعيدة برقة على المرسال.. أشعار الحُب عند نساء البدو"، صدر عن دار المحروسة.

أيام الشمس المشرقة

تشيّد ميرال الطحاوي، بمعرفة تامة وبعمق، جسرًا بين الشرق والغرب، وترسم بانوراما شديدة المأساوية لواحد من أسئلة عصرنا: حياة المهاجرين. وتختار لهم موقعًا جغرافيًا هو الأمثل لهذا السؤال: أمريكا.
تستخدم الطحاوي الخريطة النفسية لأبطالها، وأبعادهم الاجتماعية السابقة حتى على الوصول لأرض المهجر، توظف تفاصيلهم اليومية التي تنتقيها بعناية، لتسلط الضوء على حياة لم نكن نعرفها، وعن فئة مهمّشة يظن الجميع، على عكس الواقع، أنها الفئة الناجية. تمنح الكاتبة لهؤلاء المهمّشين في المجتمع الغربي صوتًا، وتحفر عميقًا في أسئلة تخصهم وعالمًا روائيًا هو واقعهم ذاته، قبل أن يتحوّل السرد إلى رواية متماسكة تسرد قصصهم.
تشيّد ميرال الطحاوي سرديتها عبر تكنيكٍ مراوغ يشبه حركة الذاكرة ذهابا وإيابًا، من حياة بائسة إلى حياة لا تقل بؤسًا، وفي الخلفية ثمة رسم آخر لأرض الحلم بعد أن تحوّلت إلى كابوس.
"أيام الشمس المشرقة" تجسيد لسؤال الإنسان المعاصر حول الهوية الشخصية، ونموذج مثالي لتيهة الهجرة، لكنها، قبل كل شيء، رؤية الغريب التي تتمتع بالتمرد على الواقع الجديد، مع ذلك يخلق أسلوبًا للتكيف مع قسوته.

- أحمد عبد اللطيف

تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف

مكتبة ياسمين
telegram @ yasmeenbook

9 789774 906473
دار العين للنشر
Elain Publishing House